








طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها

دراسة تأصيلية تطبيقية



أ.د. طه عابدين طه حمد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

بجامعة أم القرى بمكة المكرمة





ح مكتبة المتنبي، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حمد، طه عابدين طه

طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها: دراسة تأصيلية تطبيقية./ طه عابدين طه حمد.- الدمام، ١٤٤١هـ

٣٥٤ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٤٥-٨٢٨٩-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- علوم القرآن أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٤١/٤١٤٢

رقم الإيداع: ١٤٤١/٤١٤٢

ردمك: ٧-٤٥-٨٢٨٩-٦٠٣-٩٧٨

١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م



المركز الرئيسي: الدمام شارع المستشفى ت: ٨٤١٣٠٠٠ - فاكس: ٨٤٣٢٧٩٤

فرع غرب الدمام: شارع أبو بكر الصديق التجاري ت: ٨٠٢٩٠٠٩

فرع الرياض: شارع السويدي العام ت: ٠١١٤٢٤٧١٠٠

فرع جدة: شارع الجامعة - جوال: ٠٥٥١١٩٤٧٨٤

E-mail: mb.book.sa@gmail.com





مقدمة كرسي الهدايات القرآنية

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسوله وبعد:

فإنَّ خدمة القرآن الكريم وعلومه شرف يختص الله به من يشاء من عباده، وحين تتعلق مجالات العمل بخدمة الغاية التي من أجلها أنزل القرآن - وهي هداية الخلق لمعرفة الحق - يسمو الهدف ويعظم الأثر وتعلو المكانة.

ولقد أكرم الله تعالىٰ جامعة أم القرىٰ بإنشاء كراسي علمية وأقسام أكاديمية وبرامج نوعية لخدمة كتاب الله تعالىٰ وعلومه بحثًا وتأصيلاً وتعليمًا، وكان من أبرزها كرسي الهدايات القرآنية ومشروعه الحضاري (الموسوعة العالمية للهدايات القرآنية).

وإثراء لهذا المجال القرآني وتطويراً لأداء الباحثين في الموسوعة أعدَّ الفريق العلمي بالكرسي عدداً من الأبحاث والدراسات، وكان منها هذا السفر الأصيل الموسوم بـ (طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها) والذي أعده فضيلة أ.د/ طه عابدين طه حمد، رئيس اللجنة العلمية بالكرسي ليضيف للمكتبة القرآنية مؤلفًا متميزاً تم تحكيمه من (٥) أساتذة مختصين من عدد من الدول، فأثنوا عليه خيراً، وأجمعوا علىٰ أهمية موضوعه، وجدّة طرحه، ودقة تأصيله، وروعة أسلوبه - ولله الحمد والمنة.

أسأل الله تعالىٰ أن يتقبل هذا العطاء، وأن يبارك هذا الجهد، ويجعله في موازين حسنات كاتبه، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

أستاذ كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرىٰ

أ.د/ يحيىٰ بن محمد زمزمي



مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي جعل القرآن نورًا وهدىٰ، وشفاء ورحمة، والصلاة والسلام علىٰ خير مبلغ للهدىٰ ومعلم له، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين، وصحبه البررة الصادقين، ومن سار علىٰ هداهم إلىٰ يوم الدين، ثم أما بعد:

فتأتي أهمية هذه الدراسة في كونها امتداداً للدراسة التأصيلية في الهدايات القرآنية، وقد تحدَّثنا هنالك عن طرق العلماء في استخراج الهدايات باختصار؛ لأن الهدف كان إبراز تلك الطرق، فلما رأينا الحاجة للبسط والإيضاح تأصيلًا وتطبيقًا لهذه الطرق مع إضافة مقدمات يستدعيها مدخل الموضوع، واستكمال جوانب معرفية ووجدانية مهمة في بناء رواد الهدايات القرآنية في مكونهم الروحي والفكري مع البناء المهاري المتمثل في طرق العلماء في استخراج الهدايات، وقيام الحاجة لمباحث أخرىٰ لم تأخذ حظها في الدراسة التأصيلية؛ تتعلق بالهدايات الكلية، وصياغة الهدايات الجزئية وغيرها جاءت هذه الدراسة لتحقيق هذه الأغراض المتنوعة، كما ارجو أن يكون مسلكًا علميًا سديداً للمتعلمين، وعمدة في بابه عند المتدبرين والمستنبطين ؛ ولذا فهي دراسة فريدة تكتسب أهمية خاصة من عدة وجوه تتلخص في الآتي:

أولًا: الحديث عن مصطلحات وتصورات مهمة ودقيقة في موضوع الهدايات من حيث بيان مفهوم الهدايات عمومًا والهدايات الجزئية والكلية خصوصًا، وكيفية التمييز بينها وبين المصطلحات المقاربة، مع بيان أهمية الهدايات وأثرها في النهوض بالأمة، وكذلك بناء التصور العلمي الكلي عن

الجوانب التأصيلية لموضوع الهدايات التي حوتها الدراسة التأصيلية بما يوضح موقع طرق العلماء في استخراجات الهدايات منها.

ثانيًا: البيان لمكملات إيمانية وفكرية مهمة ينبغي أن يتزود بها الباحث في مجال الهدايات القرآنية، وهي مهمة في البناء والتكوين الكلي مع طرق العلماء في استخراج الهدايات وصياغتها.

ثالثًا: الوقوف علىٰ جهود متنوعة للعلماء ذات أهمية عالية فيما يتعلق بموضوع الهدايات، أثمر جمعها المتناثر وتناسقها في هذه الدراسة إلىٰ تفردها بقيمتها العلمية في بابها؛ بما يبين عراقة هذا العلم وأصالته في مكتبة الدراسات القرآنية.

رابعًا: التعريف بالطرق التي سلكها العلماء في استخراج الهدايات، وهي وإن اشتملت علىٰ نفس الطرق التي جاءت في الدراسة التأصيلية؛ ولكن زادت عليها بتأصيل كل طريقة، وبيان أهميتها، وذكر أمثلة تطبيقية متنوعة عليها، إضافة للتأصيل الكامل للهدايات الكلية من حيث المفهوم والأهمية والأنواع وطرق استخراجها.

خامسًا: الإسهام في بناء وتطوير قدرات الباحثين في استخدام طرق العلماء في استخراج هدايات جديدة وفق منهج علمي واضح ومؤصل ومنضبط يمنع من القول علىٰ الله بغير علم من خلال ما شملته هذه الدراسة من أمثلة ونماذج تطبيقية متنوعة.

سادسًا: التعريف بمنهج العلماء في صياغة الهدايات وذكر وجه الدلالة لها، والاستدلال عليها بدليل خارجي وفق معايير واضحة، فإذا كان استخراج

الهدايات يحتاج إلىٰ علم بطرق العلماء وحسن تطبيق لها، فإن صياغتها والاستدلال عليها تحتاج إلىٰ علوم ومهارات أخرىٰ لا تقل أهمية عن طرق استخراجها.

سابعًا: النماذج التطبيقية المتنوعة ذات المقاصد التربوية والفكرية وغيرها هي واحدة من المقومات التي تجعل لهذه الدراسة وزنها وقيمتها العلمية.

هيكل الدراسة:

وقد قسَّمت هذه الدراسة إلىٰ مقدمة، وستة مباحث، وخاتمة، في كل قسم عدد من المطالب جاءت علىٰ النحو الآتي:

المبحث الأول: الهدايات القرآنية مفهومها وأقسامها وأهميتها:

المطلب الأول: مفهوم الهدايات القرآنية وأقسامها.

المطلب الثاني: فروق مهمة تتعلق بتعريف الهدايات القرآنية.

المطلب الثالث: أهمية ومكانة الهدايات القرآنية.

المبحث الثاني: الإعداد الروحي والفكري لمستخرجي الهدايات القرآنية.

المطلب الأول: الإعداد الروحي لمستخرجي الهدايات القرآنية.

المطلب الثاني: الإعداد الفكري لمستخرجي الهدايات القرآنية.

المبحث الثالث: أهمية معرفة طرق العلماء وأنواعها وفوائدها.

المطلب الأول: أهمية معرفة طرق العلماء في استخراج الهدايات.

الخاتمة.

الفهارس.

وقد أكثرت في هذه الدراسة من الأدلة ونقل أقوال العلماء بما يمكن اختصاره، ولكن طبيعة الدراسة وهدفها التأصيلي والتطبيقي يتطلب ذلك، كما أني اختصرت في نقاط يمكن التوسع فيها؛ لأن هدفي فيها هو إيصال الفكرة وليس الإحاطة بجوانب الموضوع خاصة فيما يتعلق بالإعداد الروحي والفكري للباحثين في الهدايات القرآنية.

وقد حرصت أن يكون هذا الكتاب خلاصةَ علم وفِكرٍ، وعصارةَ تجربةٍ عشتُها مع الهدىٰ القرآني زادت ولله الحمد والمنة عن عشرين سنة مع التدبر والتدريس والمدارسة والقراءة الواسعة لما كتبه العلماء ونثروه في كتبهم من هدايات.

وقد حررت محتوىٰ هذا الكتاب كلمة كلمة علىٰ مكث من الزمان، هدفت من خلاله إلىٰ تحرير دقيق للمصطلحات، وإلىٰ بناء نوعي في الموجهات والأفكار، وإلىٰ تنوُّعٍ واسع في الأمثلة والتطبيقات ليكون دليلاً ومرشداً لرواد الهدايات، ومادة علمية قوية في مجال التدريب والتطبيقات، ودعَّمته بالأدلة والكلمات ليسهم في بناء روحي لا يستغني عنه باحث في مجال الهدايات، كل ذلك تمَّ بفضل الله تعالىٰ ومنته عليَّ، فوالله لولا الله ما اهتدينا، ولا نحو الهدىٰ مضينا، فالحمد لله علىٰ مَنِّه وتوفيقه، وعونه وتسديده.

نسأل الله تعالىٰ أن يتقبل هذا الجهد وينفع به، ويبارك فيه، ويغفر لمن كتبه ونشره وقرأه ودلَّ عليه، ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١]، فما كان منه

من حق وصواب فهو بفضل الله ورحمته، وما كان فيه من خلل وخطأ فمن نفسي والشيطان، وقد بذلت فيه وسعي؛ ولكن يبقىٰ النقص والخلل قرين أعمال البشر، ورحم الله القاضي الفاضل عبد الرحمن البيساني الذي قال: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يوم إلا قال في غده؛ لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل علىٰ استيلاء النقص علىٰ جملة البشر»[(١)] ، فنسأل الله التوفيق والسداد، والستر والغفران، والحمد لله رب العالمين علىٰ توفيقه وإحسانه.

كتبه/

أ.د. طه عابدين طه حمد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة

أم القرىٰ بمكة المكرمة بلد الله الحرام

في غرة ذي القعدة ١٤٤٠هـ

---

(١) انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي (١/ ٣).



المبحث الأول

الهدايات القرآنية مفهومها وأقسامها وأهميتها

المطلب الأول: مفهوم الهدايات القرآنية وأقسامها.

المطلب الثاني: فروق مهمة تتعلق بتعريف الهدايات القرآنية.

المطلب الثالث: أهمية ومكانة الهدايات القرآنية.





المطلب الأول
مفهوم الهدايات القرآنية وأقسامها

أولًا: مفهومُ الهداياتِ القرآنيةِ:

ينقسمُ مفهوم الهدايات القرآنية في تعريفِهِ عمومًا باعتبارِ متعلقِهِ إلىٰ قسمين:

الأولُ: باعتبارِ موضوعها:

وهذا عُرِفَ في الدراسةِ التأصيليةِ بـ «الدلالةِ المبينة لإرشاداتِ القرآن الكريم التي توصلُ لكلِّ خيرٍ وتمنعُ من كلِّ شر»[(١)]، حيث جعلنا الدِلالاتِ هي التي تسوقُ لبيانِ الهدايات، والهداياتِ لابد أن تحقق الوصولَ إلىٰ الخيرِ أو تمنع من الشر، وهو مصطلحٌ يتجه بالمعاني نحو الغاياتِ التي هي ثمرةُ فهم المعنىٰ، وهو يبدأُ من حيثُ يقفُ علمُ التفسيرِ الذي اقتصر فيه غالبًا في بيانِ المعاني، ولم تكن الكتابةُ في الهداياتِ مقصدًا للمفسرين؛ بل جاءت منثورةً في كتبهم؛ ولكن تلك الجهود المتنوعة هي التي أضاءت لنا الطريقَ في تأصيلِ موضوعِ الهدايات مفهومًا وأهميةً وخصائصَ وأنواعًا ومجالاتٍ، مع بيانِ طرقِ العلماء في الوصولِ إليها، والأساليب القرآنية في عرضها، وبيان المنهج الأمثل في التعامل معها من حيث القواعد والضوابط التي تضبط بها، وبيان سبل تحقيقها في الواقع.

---

(١) الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، أ.د. طه عابدين طه وآخرون (١/ ٤٤).

والثاني: باعتبار صنعتها:

يمكن أن نعرفه هنا بالآتي:

منهجٌ علمي لاستخراجِ الإرشاداتِ القرآنيةِ الظاهرةِ والخفيةِ التي توصلُ لكلِّ خيرٍ وتمنعُ من كلِّ شر.

شرح التعريف:

منهج علمي: ليشمل جميع الطرق والقواعد والضوابط المعتبرة التي سلكها ووضعها العلماء في استخراج الهدايات، ويخرج الطرق المنحرفة لأصحاب الأهواء.

لاستخراج الإرشادات القرآنية: لبيان غاية هذا المنهج وهو الوصول للهدايات المستخرجة بطرق الدلالات المتنوعة.

الظاهرة والخفية: هي وصفٌ لكلِّ إرشادٍ من الإرشاداتِ القرآنية، سواء أكان واضحا أم يحتاجُ إلىٰ إعمالِ فكر.

التي توصل لكل خير وتمنع من كل شر: لبيان مقصد الهدايات التي هي ثمرة فهم المعنىٰ؛ ولنخرج اللطائف والنكت التي لا يترتب عليها عمل، ومن هنا عبر عنها العلماء بما يدل علىٰ هذا الجانب كقولهم تدل هذه الآية علىٰ كذا، وترشد لكذا، وتفيد كذا، وغيرها من ألفاظ[1].

---

(١) انظر: المصدر السابق -(١/ ٥٨-٧٠).

ثانيًا: أقسام الهدايات القرآنية:

تنقسم الهدايات المستخرجة من القرآن الكريم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: الهدايات الجزئية:

هي: الإرشاداتُ المستخرجةُ بطرقٍ علميةٍ من ألفاظِ القرآن الكريم وجملهِ، وأوجهِ قراءته، وأسلوبهِ، وما يتعلقُ به من قرائن.

شرح التعريف:

الإرشادات المستخرجة: ليشمل تلك الظاهرة والخفية المرتبطة بالجوانب العملية دون اللطائف والنكت التي لا يترتب عليها جانب عملي.

بطرقٍ علمية: المبنية علىٰ أساس علمي منهجي، ولتخرج الطرق المنحرفة التي سلكها أصحاب الأهواء.

من خلالِ ألفاظ القرآن الكريم وجمله: ليشمل ذلك المنطوق الذي قد يكون نصًا أو ظاهرًا أو مؤولًا مطابقةً أو تضمنًا، والمفهوم الذي قد يكون دلالة اقتضاءٍ، أو إشارةٍ، أو إيماءٍ، أو تنبيهٍ أو لزوم.

وأوجه قراءته: ليشملَ جميع القراءات الثابتة عن النبيّ ﷺ التي لها تأثيرها في المعنىٰ.

وأسلوبه: ليشمل جميع الأساليب البيانية من توكيد، وتقديم وتأخير، وتكرار، والتفات وغيرها، فكلُّ أسلوبٍ له دلالته وفائدته.

وما يتعلق به من قرائن: ليشمل قرائن السياق، وأحوال النزول، وقراءة النبيّ ﷺ لها أو حثه علىٰ قراءتها في أحوال معينة، وغيرها من قرائن.

والقسم الثاني: وهي الهدايات الكلية:

مفهوم الهدايات الكلية:

الكلية في اللغة:

منسوبة إلىٰ كلمة «كل»، وهو اسم موضوع للإحاطة، أو لضم أجزاء الشيء، أو الشيء الذي يستوعب جزيئات كثيرة[١].

الهدايات الكلية اصطلاحًا:

هي: الإرشادات المستخرجة بطرقٍ علميةٍ من مجموعةِ آيات في سورةٍ واحدةٍ أو أكثر، في معنىٰ يضمها.

شرح التعريف:

الإرشادات المستخرجة: ليشمل جميع الهدايات الكلية الظاهرة والخفية.

بطرقٍ علمية: أي: المبنية علىٰ أساس علمي منهجي، ولتخرج الطرق المنحرفة التي سلكها أصحاب الأهواء.

من مجموعة آيات في سورة واحدة أو أكثر: إشارة إلىٰ الإرشادات التي يتوصل إليها من خلال جمع آيات في موضوع محدد أو معنىٰ مشترك سواء كانت هذه الآيات في سورة واحدة أو في عدة سور، أو في مقاصد السورة، أو العلاقات بين السور، وليشمل ذلك كل أنواع الهدايات الكلية.

في معنىٰ يضمها: لتعين وجود رابط يجمع بينها في أطر كلية.

---

(١) انظر: مجمل اللغة لابن فارس (١/ ١٨٨)، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (ص:٧١٩).

المطلب الثاني
فروق مهمة تتعلق بالهدايات القرآنية

حتىٰ تتضح بعض الجوانب المهمة في موضوع الهدايات حرصنا أن نبين في هذا المطلب بعض الفروق المهمة بين الهدايات الكلية والجزئية، وبين الهدايات الكلية ومقصد السورة والتفسير الموضوعي، فإليك بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الفرق بين الهدايات الجزئية والكلية:

١) الهدايات الجزئية تظهر من خلال الألفاظ والجمل والآيات في سياقها القرآني الموضعي مع العناية بأوجه القراءات، والأساليب، والقرائن من أحوال النزول والسياق وغيرها، والهدايات الكلية تظهر من خلال استقراء تلك الهدايات الجزئية في كلية تجمعها وتؤلف بينها، أو روابط العلاقات الموضوعية بين مجموعة آيات، أو بين السور.

فالأولىٰ كمن يفكر في صناعة خرزات متنوعة في ألوانها وأشكالها وأصنافها، والثانية كمن يسعىٰ ليؤلف بينها في عقد يكامل بين أجزائها في صورة جمالية متناسقة.

٢) الهدايات الجزئية أوزاع من المعاني، والكلية نسق من البناء شامل كامل في مقصده؛ ولذا يراعىٰ فيها الجمع والضم الذي لا يراعىٰ في الهداية الجزئية.

٣) الهدايات الكلية الغالب فيها جوانب المنطوق الظاهر المتكرر، والهداية الجزئية الغالب فيها جوانب المفهوم المستنبط، قال السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] «في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية، حتىٰ إنه تعالىٰ يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب»[١].

٤) الهدايات الكلية نسبة الاتفاق عليها غالبة، لكثرة أدلتها وبراهينها، والهدايات الجزئية أقل نسبة في درجة الاتفاق عليها خاصة ما يستنبط منها بطرق خفية.

ثانيًا: الفرق بين الهدايات الكلية ومقصد السورة:

١) مقصد السورة يتم التوصل إليه باستقراء جميع أجزائها، آياتها وموضوعاتها استقراء تامًا، والهداية الكلية يتم التوصل إليها بجزء من آيات السورة، أو عدد من الآيات في سور متنوعة باستقراء قد يكون ناقصًا.

٢) المقصد يلاحظ فيه التئام موضوعات وآيات السورة حوله، والهدايات الكلية يلاحظ فيها التئام المعنىٰ الذي يربط بين أجزائها فقط.

٣) المقصد الكلي للسورة يصعب الاتفاق عليه غالبًا خاصة إذا تعددت موضوعاتها، والهداية الكلية يسهل الاتفاق عليها.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٤٤٦).

٤) كل مقصد يمكن أن يكون هداية كلية، خاصة في قصار السور، وليس كل هداية كلية تصلح أن تكون مقصدًا للسورة.

ثالثًا: الفرق بين الهدايات الكلية والتفسير الموضوعي:

١) التفسير الموضوعي ينطلق الباحث من فكرة الموضوع، ثم يبحث عن الآيات التي تحدثت عنه في القرآن، فيقوم الباحث بجمعها وتصنيفها، ثم يتم عليها البناء الموضوعي في صورته المتكاملة، والهدايات الكلية ينطلق من الآيات ليصل لمعنىٰ كلي يضمها ويجمع بين أجزائها، قد يكون موضوعًا، أو جزء من موضوع، أو فكرة كلية أو غيرها.

٢) التفسير الموضوعي يقوم علىٰ الاستقراء التام لآيات الموضوع من خلال السورة أو القرآن كاملًا، والهدايات الكلية يمكن الوصول إليها باستقراء ناقص في جزء من الموضوع.

٣) التفسير الموضوعي يقوم علىٰ استثمار معاني الآيات في بناء الموضوع وفق منهجية علمية محددة، والهدايات الكلية تبنىٰ علىٰ استثمار دلالة الآيات في معنىٰ يضمها.

٤) صياغة التفسير الموضوعي تميل إلىٰ البسط والإشباع في تناول الموضوعات، وصياغة الهدايات الكلية تميل إلىٰ الاختصار والايجاز.

المطلب الثالث
أهمية ومكانة الهدايات القرآنية

الهداية القرآنية لها أهمية عالية ومكانة سامية، فليس هنالك علم يدانيها فضلًا عن أن يساويها؛ وذلك لعظيم نفعها وشدة أثرها، فهي هدىٰ العقول من الضلال، ونور البصائر من الانحراف، وشفاء الصدور من الأسقام، وحياة الأنفس بعد موتها بداء الكفر والجهل، فالحياة بدونها مظلمة، والعقول بغيرها حائرة، والسعادة دونها غائبة، ويكفي في بيان فضلها وأهميتها من حيث موضوعها وثمرتها ما يلي:

أولًا: عناية القرآن بالهدى والاهتداء:

من أكثر الموضوعات التي تحدَّث عنها القرآن الكريم موضوع الهدىٰ والهداية، بصورة تحتاج أن تفرد في بحوث ودراسات، مثال ذلك: أن الهدايةَ هي أولُ دعاءٍ وأكثرُ دعاءٍ أُمِرْنا به في القرآنِ الكريم في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]. وهو أولُ وصفٍ وصفَ اللهُ تعالىٰ به كتابَه المبين في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]. وهو أولُ وصفٍ رتّبَ عليه فلاحَ المؤمنين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]. وهو أولُ وصفٍ ترتبَ علىٰ تخلفهِ خسارةُ الكافرين والمنافقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١١]. وهو أولُ فاصلٍ

جعلَه اللهُ تعالىٰ بين سبيلِ الناجين والهالكين: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨، ٣٩]، هذا باختصار عن أوائل الآيات التي وردت في القرآن الكريم، فضلًا عن باقي الآيات والسور، وقد اهتم القرآن به لأنه المقصود الأعظم من إنزال هذا الكتاب المجيد.

ثانيًا: الهدايات القرآنية هدى الله لعباده:

مما يدل علىٰ منزلة ومكانة الهدايات القرآنية أنها مستخرجة من معين الهدىٰ والحق - القرآن الكريم - الذي أنزله الله تعالىٰ لهداية عباده، فلا هدىٰ إلا في هداه، ولا يتحقق الاهتداء به إلا بعد معرفة هداياته، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠]. فالهدىٰ حصر فيه، وما سواه وصفه الله تعالىٰ بالهوىٰ؛ ولذا أمرنا الله تعالىٰ بالاستسلام لما جاء فيه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١]. وبيَّن لنا أن مخالفة هديه هو الهوىٰ والضلال بعينه، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

ثالثًا: الهدايات القرآنية عصمة من الضلال:

ومما يدل علىٰ أهمية الهدايات القرآنية ومنزلتها أن من تعلمها بطريقة سليمة، واتبعها عصمه الله تعالىٰ من الضلال، وثبته علىٰ الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤،١٧٥]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا فوائد الاعتصام بالقرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ «أي: طريقا واضحًا قصدًا قوامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف. وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا علىٰ منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة علىٰ صراط الله المستقيم المفضي إلىٰ روضات الجنات»[(١)]، وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به. أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلىٰ بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالا مبينا، عقوبة لهم علىٰ تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالىٰ العفو والعافية والمعافاة»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٢١٧).

فهي عصمة من الضلال؛ لأنها هي التي تخرج الناس من ظلمة الكفر والمعصية إلىٰ نور الإيمان والطاعة، ومن طرق الضلال إلىٰ الصراط المستقيم. وقد جاء عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاتَّبَعَ مَا فِيهِ هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ فِي الدُّنْيَا، وَوَقَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحِسَابَ» قَالَ: «فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣] »[١]. وعن الشعبي رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «أجار الله تعالىٰ من تبع القرآن، وعمل بما فيه أن يضل أو يشقىٰ، ثم تلا هذه الآية»[٢].

رابعًا: الهدايات القرآنية سبيل المنعم عليهم:

إن السبيل الوحيد للاقتداء بالأنبياء والصالحين والعلماء الربانيين هو تعلّم الوحي واتباعه، قال تعالىٰ بعد أن ذكر خمسة وعشرين نبيًا في القرآن الكريم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩-٩٠]. وقال تعالىٰ عن سيد المنعم عليهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وقال تعالىٰ في وصف العلماء الربانيين: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦]. قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنَّه كلّما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار

---

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٧٩)، وجامع البيان، لابن جرير الطبري (١٨/ ٣٨٩).

(٢) تفسير القرآن، السمعاني (٣/ ٣٦١).

ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة علىٰ ما جاء به الرسول، احتج الله بهم علىٰ المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها»[1].

خامسًا: الهدايات القرآنية علم نافع وعمل صالح:

من أنفع الأمور في حياة الفرد الانشغال بالعلم النافع الذي يورث العمل الصالح، وتلاوة القرآن، والسعي لتعلم هداه وتوثيق الصلة بكتاب الله تعالىٰ علماً وعملاً هو قمَّة العلم النافع والعمل الصالح؛ ولذا وصفهم الله تعالىٰ بالمصطفين من عباده، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٢٩-٣٢].

وكيف لا يكونون ممن اصطفاهم الله تعالىٰ وهم الذين انشغلوا بتدبر كتابه ومدارسته، وجعلوه ذكرهم وفكرهم وعلمهم وهداهم، والقرآن خير ما تنور به العقول والبصائر، وأفضل ما تزكىٰ به القلوب، وتصلح به الجوارح.

سادسًا: الهدايات القرآنية سبيل سعادة الدنيا:

السعادة الحقيقية لا تتحقق لفرد أو جماعة إلا بتعلم القرآن الكريم واتباع هديه، فهو نور وشفاء ورحمة وأمن وسلام، فلا غنىٰ لمسلم عنها في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٦٧٥).

حياته الخاصة والعامة إذا أراد السعادة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٢، ١٢٣]. وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]. قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فرتب علىٰ اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضىٰ، أحدث الحزن، وإن كان منتظرا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدىٰ والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدىٰ، وانتفىٰ عنه كل مكروه من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته»[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]. فالهدايات القرآنية شفاء ورحمة وسبيل عز ونصر وتمكين، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

---

(١) المصدر السابق (ص: ٥٠).

سابعًا: الهدايات القرآنية سبيل دار السلام:

الجنة دار السلام، والأمن من العذاب، فهي مبتغىٰ المؤمنين المتقين، والسبيل إليها هو الاستقامة علىٰ هدي كتابه المجيد؛ ولذا بعد أن تحدث الله تعالىٰ في القرآن الكريم عن المعرضين عنه، تكلم عن جزاء المستقيمين عليه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٢- ١٤]. وكما قال موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يدعو فرعون: ﴿ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه:٤٧، ٤٨].

فلما كانت الهداية بهذه الأهمية والمكانة، وهي الغاية التي من أجلها أنزل الله تعالىٰ كتابه؛ أحببنا أن نعمل من خلال مشروعنا العالمي - الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية - في هذا المقصد الذي من أجله أنزل القرآن، مع البعد عن ما جاء في كتب التفسير من تفريعات صرفت همم الناس عن الوصول لهذه الغاية، بسبب تلك العلوم التي أثقلت بها كتب التفسير من علوم الكلام، وتفريعات علوم البلاغة والنحو وغيرها من المسائل التي سودت بها الصفحات وملئت بها الكتب مما لا فائدة في ذكره لعامة الناس، وقد يكون لها ما يتطلبها في وقتها، قال الشيخ

محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَ مِنْ سُوءِ حَظِّ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا كُتِبَ فِي التَّفْسِيرِ يَشْغَلُ قَارِئَهُ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْعَالِيَةِ، وَالْهِدَايَةِ السَّامِيَةِ، فَمِنْهَا مَا يَشْغَلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِمَبَاحِثِ الْإِعْرَابِ وَقَوَاعِدِ النَّحْوِ، وَنُكَتِ الْمَعَانِي وَمُصْطَلَحَاتِ الْبَيَانِ، وَمِنْهَا مَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ بِجَدَلِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَتَخْرِيجَاتِ الْأُصُولِيِّينَ، وَاسْتِنْبَاطَاتِ الْفُقَهَاءِ الْمُقَلِّدِينَ، وَتَأْوِيلَاتِ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَتَعَصُّبِ الْفِرَقِ وَالْمَذَاهِبِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَبَعْضُهَا يَلْفِتُهُ عَنْهُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَاتِ، وَمَا مُزِجَتْ بِهِ مِنْ خُرَافَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَقَدْ زَادَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ صَارِفًا آخَرَ عَنِ الْقُرْآنِ هُوَ مَا يُورِدُهُ فِي تَفْسِيرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الرِّيَاضِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعُلُومِ الْحَادِثَةِ فِي الْمِلَّةِ عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي عَهْدِهِ، كَالْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَقَلَّدَهُ بَعْضُ الْمُعَاصِرِينَ بِإِيرَادِ مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ هَذَا الْعَصْرِ وَفُنُونِهِ الْكَثِيرَةِ الْوَاسِعَةِ، فَهُوَ يَذْكُرُ فِيمَا يُسَمِّيهِ تَفْسِيرَ الْآيَةِ فُصُولًا طَوِيلَةً بِمُنَاسَبَةِ كَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ كَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ عُلُومِ الْفَلَكِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ، تَصُدُّ قَارِئَهَا عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ لِأَجْلِهِ الْقُرْآنَ»(١).

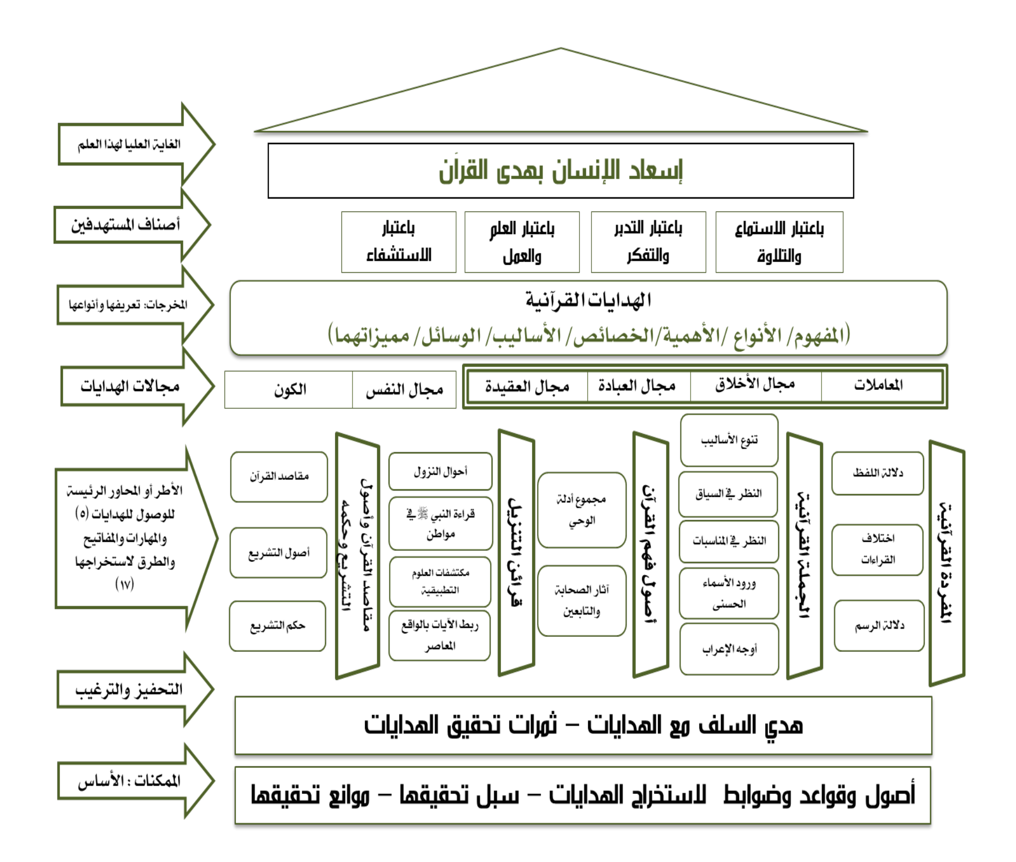
ثامنًا: موقع طرق العلماء من التصور العام لموضوع الهدايات يدل على أهميتها:

قام كرسي الملك عبد الله للقرآن وعلومه بجامعة أم القرىٰ بإعداد دراسة تأصيلية في مجال الهدايات القرآنية(٢)، هي الأولىٰ من نوعها، وقد جاءت

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/ ٨).

(٢) أعدها فريق بحثي يضم الأستاذ الدكتور طه عابدين طه، والشيخ الدكتور ياسين حافظ قاري، والشيخ الدكتور فخر الدين الزبير علي، وعنوان الدراسة: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، جاءت في مجلدين، وهي أول دراسة علمية تأصل لعلم الهدايات، وتجعل من الدراسات النظرية مقدمة لموسوعة عالمية تكتب بواسطة نخب منتقاة من طلاب الدكتوراه في شتىٰ جامعات العالم تحت أشرف كرسي الهدايات بجامعة أم القرىٰ بمكة.

الدراسة في خمسة فصول، وفي سبعة عشر مبحثًا، أسهمت في تأصيل وتحرير جوانب كثيرة تتعلق بموضوع الهدايات، حيث حررت مفهومها، ومجالاتها، والأصول والقواعد والضوابط التي وضعها العلماء، مبينةً أهميتها، وطرق إنزالها في الواقع والثمار المترتبة علىٰ ذلك، وغيرها من موضوعات فصلتها الدراسة، كان من ضمن ما تناولته الحديث عن طرق العلماء في استخراج الهدايات الجزئية، فحتىٰ تتضح الدراسة في جوانبها العلمية المتكاملة، وتظهر أهمية طرق العلماء فيها تم إعداد البناء الهرمي الموضح أدناه، الذي يظهر من خلالها أن فهم طرق العلماء والقدرة علىٰ تطبيقها هو أكبر لبنة تنبي عليها قدرات رواد الهدايات القرآنية.





المبحث الثاني

الإعداد الروحي والفكري لمستخرجي الهدايات

المطلب الأول: الإعداد الروحي لمستخرجي الهدايات.

المطلب الثاني: الإعداد الفكري لمستخرجي الهدايات.





مدخل

الباحث في مجال الهدايات القرآنية يحتاج إلىٰ إعداد خاص حتىٰ يكون متمكنًا متميزًا في مجال تخصصه؛ وهذا الإعداد يتمثل في ثلاثة محاور:

المحور الأول: امتلاك الباحث أدوات المفسر:

من حيث التمكن من القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، واللغة وعلومها، والعقيدة، وأصول الفقه وغيرها مما فصَّله العلماء عن شروط ومواصفات المفسر(١).

المحور الثاني: الإعداد الروحي والفكري:

وهو جانب مهم لا يستغني عنه باحث في مجال الهدايات يريد أن يستبصر بقلبه الطاهر الذي ملأه الإيمان من بصائر هذا الكتاب المجيد، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، فانظر كيف ربط الله تعالىٰ هداه ورحمته هنا بما في القلوب من يقين، إضافة لذلك فهو يحتاج إلىٰ عقل سليم عن صوارف النظر ومقيدات الفكر والتدبر العميق الذي يريده الله تعالىٰ.

(١) يراجع في ذلك: المفسِّر شروطه، آدابه، مصادره دراسة تأصيلية، للشيخ أحمد قشيري سهيل.

المحور الثالث: الإعداد المهاري في طرق العلماء في استخراج الهدايات وصياغتها:

بحيث يكون ملمًا بهذه الطرق، قادرًا علىٰ استخدامها للوصول إلىٰ هدايات جديدة، قادرًا علىٰ حسن صياغتها، وجعلها وصفًا شافيًا وموجهًا لمعالجة مشكلات الواقع، وملبية لتطلعات أهله في العيش الكريم.

فأحببت من خلال هذا المبحث الحديث عن المحور الثاني الذي يخص الإعداد الروحي والفكري لمستخرجي الهدايات، وهو من الأهمية بمكان، وإغفاله يؤدي إلىٰ خلل في بناء المختصين في هذا المجال الذي لا يكفي فيه الأعداد المهاري فقط الذي يتعلق بطرق العلماء، وأدوات التفسير؛ لأن من أعظم حجب الهدايات تغطية القلوب بصدأ المعاصي، أو إغلاق منافذ العقول بموانع التفكر السليم فيه، قال تعالىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالىٰ : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٣، ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

المطلب الأول
الإعداد الروحي للباحثين في مجال الهدايات

الإعداد الروحي، وهو الجانب المعنوي في الإنسان من الأهمية بمكان، وسميناه بالروح لأن الإنسان يعيش بروحين، روح للحياة العامة، وهذه هي التي قال تعالىٰ عنها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، وهذه لحياة الجسد، وروح خاصة وهي لحياة القلوب الحياة التي يريدها الله تعالىٰ، وهي الحياة بروح القرآن؛ ولذا سماه الله روحًا، وجعل الإنسان به حيًا حياة حقيقية، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

ولما نزل القرآن لحياة القلوب جعل الله تعالىٰ قراره ومكمنه في القلوب الطاهرة، ففيه تتجلىٰ أنواره، وتتكشف أسراره وتنعكس آثاره؛ فأنزله أولًا علىٰ أطهر قلب، ثم منه تنقل في القلوب الطاهرة، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧]؛ ولذا كلما كان القلب طاهرًا كان انتفاعه بالقرآن بارزًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٧]، فمن أعظم ما يحتاج إليه الباحث في مجال الهدايات القرآنية الإعداد الروحي المتمثل في طهارة القلب، وتزكية النفس، وهو باب واسع؛ ولكن من أهمها وأعظمها أثرًا في الإعداد الروحي والتهيئة القلبية ثلاثة أمور تتلخص في الآتي:

أولًا: إدراك عظمة المُنزِل للكتاب المجيد:

إن الطريق لإدراك عظمة القرآن وحسن التعامل معه هو استشعار عظمة من تكلم به، فهو العظيم الذي له العظمة المطلقة التي لا يحيط بكنهها الواصفون، الكبير الجليل المتعال، العليم الحكيم، البر الرحيم، السميع العليم، الخالق الباري، الحي القيوم، الواحد الأحد الفرد الصمد، القادر علىٰ ما يشاء، القاهر فوق عباده، سبحانه الذي له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، خضع لعظمته من في السموات والأرض طوعًا وكرها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد:١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨].

فأول طريق في تهيئة القلب لتلقي كلام الرب جل وعلا يكمن في إدراك عظمة المتكلم به؛ ولذا خاطب الله تعالىٰ رسوله والأمة تبعًا له بقوله تعالىٰ:

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ١-٨].

فبقدر معرفة العبيد لعظمة المعبود بحق جل وعلا يعظم كلامه في قلوبهم، ويكونون أكثر استجابة لأمره، قال تعالىٰ عن الجن الذين أحسنوا تلقيه، يوم وقرت عظمته تعالىٰ في قلوبهم: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢]، فهم أدركوا عظمة ما للمُنْزِل من غفران الذنوب، والإجارة من العذاب الأليم، وعواقب من تمرد عن الاستجابة لرب العالمين؛ ولذا فإن القرآن الكريم يربط كثيرًا بين الإيمان بالقرآن مع الحديث عن عظيم صفاته جل وعلا، قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [السجدة: ٢،٣].

والذي يتأمل في القرآن الكريم يجد هذه العظمة للمنزل متجلية من وراء كل جمله وآياته وسوره، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمّل خطاب الْقُرْآن

تَجِد ملكًا لَهُ الْملك كُله، وَله الْحَمد كُله، أزِمَّة الْأُمُور كلهَا بِيَدِهِ، ومصدرها مِنْهُ ومرادها إِلَيْهِ، مستويًا علىٰ سَرِير ملكه، لَا تخفىٰ عَلَيْهِ خافية فِي أقطار مَمْلَكَته، عَالمًا بِمَا فِي نفوس عبيده مطّلعًا علىٰ أسرارهم وعلانيتهم، مُنْفَردًا بتدبير المملكة، يسمع وَيرىٰ وَيُعْطِي وَيمْنَع ويثيب ويعاقب وَيكرم ويهين ويخلق ويرزق وَيُمِيت ويحيي وَيقدر وَيَقْضِي ويدبّر الْأُمُور نازلة من عِنْده دقيقها وجليلها وصاعدة إِلَيْهِ، لَا تتحرك فِي ذرّة إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا تسْقط ورقة إِلَّا بِعِلْمِهِ، فتأمّل كَيفَ تَجدهُ يثني علىٰ نَفسه ويمجّد نَفسه ويحمد نَفسه وَينْصَح عباده ويدلّهم علىٰ مَا فِيهِ سعادتهم وفلاحهم، ويرغّبهم فِيهِ ويحذّرهم مِمَّا فِيهِ هلاكهم، ويتعرّف إِلَيْهِم بأسمائه وَصِفَاته ويتحبب إِلَيْهِم بنعمه وآلائه، فيذكّرهم بنعمه عَلَيْهِم، وَيَأْمُرهُمْ بِمَا يستوجبون بِهِ تَمامهَا، ويحذّرهم من نقمه، ويذكّرهم بِمَا أعد لَهُم من الْكَرَامَة إِن أطاعوه، وَمَا أعد لَهُم من الْعقُوبَة إِن عصوه، ويخبرهم بصنعه فِي أوليائه وأعدائه، وَكَيف كَانَت عَاقِبَة هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاء، ويثني علىٰ أوليائه بِصَالح أَعْمَالهم وَأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيء أَعْمَالهم وقبيح صفاتهم، وَيضْرب الْأَمْثَال وينوّع الأدلّة والبراهين، ويجيب عَن شبه أعدائه أحسن الْأَجْوِبَة وَيصدق الصَّادِق ويكذب الْكَاذِب، وَيَقُول الْحق وَيهْدِي السَّبِيل، وَيَدْعُو إِلَىٰ دَار السَّلَام وَيذكر أوصافها وحسنها وَنَعِيمهَا، ويحذّر من دَار الْبَوَار وَيذكر عَذَابهَا وقبحها وآلامها، وَيذكر عباده فَقرهمْ إِلَيْهِ وشدّة حَاجتهم إِلَيْهِ من كل وَجه، وَأَنَّهُمْ لَا غنىٰ لَهُم عَنهُ طرفَة عين، وَيذكر غناهُ عَنْهُم وَعَن جَمِيع الموجودات، وَأَنه الْغَنِيّ بِنَفسِهِ عَن كل مَا سواهُ، وكل مَا سواهُ فَقير إِلَيْهِ بِنَفسِهِ، وَأَنه لَا ينَال أحد ذرة من الْخَير فَمَا فَوْقهَا إِلَّا بفضله وَرَحمته، وَلَا ذرّة من الشَّرّ فَمَا فَوْقهَا إِلَّا بعدله وحكمته،

وَيشْهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وَأَنه مَعَ ذَلِك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم، والدافع عَنْهُم والمحامي عَنْهُم والناصر لَهُم وَالْكَفِيل بمصالحهم والمنجي لَهُم من كل كرب والموفي لَهُم بوعده، وَأَنه وليّهم الَّذِي لَا ولي لَهُم سواهُ، فَهُوَ مَوْلَاهُم الْحق ونصيرهم علىٰ عدوهم فَنعم الْمولىٰ وَنعم النصير، فَإِذا شهِدت الْقُلُوب من الْقُرْآن ملكًا عَظِيمًا رحِيمًا جوادًا جميلًا هَذَا شَأْنه فَكيف لَا تحبّه وتنافس فِي الْقرب مِنْهُ وتنفق أنفاسها فِي التودد إِلَيْهِ وَيكون أحب إِلَيْهَا من كل مَا سواهُ وَرِضَاهُ آثر عِنْدهَا من رضَا كل مَا سواهُ، وَكَيف لَا تلهج بِذكرِهِ، وَيصير حبه والشوق إِلَيْهِ والأنس بِهِ هُوَ غذاؤها وقوتها ودواؤها بِحَيْثُ إِن فقدت ذَلِك فَسدتْ وَهَلَكت وَلم تَنْفَع بحياتها»[١].

فمن أنفع الأمور في تعلم هدايات القرآن أن تكون عظمة من تكلم به متجلية في قلب متلقيه، فهو خطاب ملك الملوك لعبيده، ورسالة الخالق الموجهة لخلقه ليتلقوها بالإجابة، والسمع والطاعة، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ-: «إن من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»[٢]، فهو كلام الله تعالىٰ المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، فمن أدرك عظمة المتكلم بالقرآن تهيأت نفسه تهيئة عظيمة لتلقي كلامه والانتفاع به.

(١) الفوائد لابن القيم (ص:٢٨، ٢٩).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٩)، والتبيان في آداب حملة القرآن، للنووي (ص:٤٠).

ثانيًا: معرفة منزلة القرآن الكريم:

القرآن الكريم كلام رب العالمين، فهو أعظم كلام أنزله علىٰ خير رسول أرسله، علىٰ خير أمة أخرجت للناس، جعله تعالىٰ فرقانًا بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، وجعله شفاء ورحمة، ونورًا وهدىٰ، وموعظة وذكرىٰ لأولي الألباب، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]. فكل اسم ووصف له شاهد بعظمته، ناطق بفضله، منبه علىٰ منزلته، فهو كتاب: عزيز، ومجيد، وعظيم، وكريم، وحكيم، وروح، وبرهان، وهدىٰ، وحق، وبشير ونذير، وغيرها مما يطول ذكره من أسماء وأوصاف الكمال والجمال التي ذكرها الله تعالىٰ لكتابه.

وهو خير كلام يسمع، وحديث يرتل، وعلم يتبع، وعمل به ينتفع، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

هو حبل الله المتين، ونوره المبين، وصراطه المستقيم، ليس فيه عوج أو ريب أو اختلاف أو خلل، أخباره كلها عن الله ورسله وجنته وعذابه صادقة، وأحكامه وتشريعاته كلها عادلة، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

هو الكتاب الوحيد الذي تولىٰ الله تعالىٰ حفظه ونزَّه جنابه عن الباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤١،٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وخير دليل شاهد علىٰ عظمته عجز الخلق جميعًا أن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣،٢٤]. وخشوع الجبال الصم له، قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

فلابد لمن أراد أن يستخرج هدايات القرآن أن يعلم أنه مقبل علىٰ أعظم نعمة أنعم الله تعالىٰ بها علىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٣١]. وأن يدرك أن عظمته أعظم من أن تحيط به عقول، أو تدوَّن في سطور؛ وإنما أحببنا أن نذكر ببعض هذه المعاني حتىٰ تتلقاه الآذان بالسماع، والقلوب بالوعي، والجوارح بالاستجابة.

ثالثًا: تطهير القلب للقرآن الكريم:

من الأمور المهمة في إعداد الباحثين في مجال الهدايات تطهير القلب لتلقي كلام الله تعالىٰ، قال تعالىٰ مخاطبًا رسوله الكريم في بداية إعداده لتلقي أنوار وحيه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]، «يعني: طهر قلبك بالتوبة عن الذنوب والمعاصي، وهذا قول قتادة ومجاهد ومقاتل، وكانت العرب تقول للرجل إذا أذنب دنس الثياب. وقال مجاهد: وثيابك فطهر يعني: نفسك فطهر، ويقال: عملك فأخلص...»[1]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب فكنَّىٰ عن النفس بالثوب، وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك والشعبي والزهري والمحققين من أهل التفسير»[2]، وطهارة القلب باب واسع؛ ولكن من أعظم ما أكَّد عليه العلماء لطهارته: الإخلاص وخلوص القلب من الرياءِ وحظوظِ النفسِ وشهوتها، والتجرد عن الهوىٰ، والعمل بما أنزله الله تعالىٰ، وهو جانب مهم لمن يتعاملون مع كتاب الله تعالىٰ، وقد سماه بعض العلماء بعلم الموهبة يقول السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عِلْمُ الْمَوْهِبَةِ وَهُوَ عِلْمٌ يُوَرِّثُهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِمَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ... وقال: وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَقُولُ أَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ فَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي»[3]، وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالتَّفَهُّمُ يَكُونُ بِصِدْقِ

(١) بحر العلوم للسمرقندي (٤/ ٣٤٣).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٢).

(٣) جامع البيان للطبري (١٣/ ١١٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٧)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣/ ٥٦٢).

النِّيَّةِ وَتَعْظِيمِ الْحُرْمَةِ، وَطِيبِ الطعمه»(١).

ولكي تتفجر ينابيع القرآن في القلب يحتاج ذلك إلىٰ قلوب طهرت بالإيمان، وتجردت عن الهوىٰ، وخلصت لربها، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤] «ودلت الآية بإشارتها وإيمائها علىٰ أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام علىٰ القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه»(٢)، وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِلنَّاظِرِ فَهْمُ مَعَانِي الْوَحْيِ حَقِيقَةً وَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَسْرَارُ الْعِلْمِ مِنْ غَيْبِ الْمَعْرِفَةِ وَفِي قَلْبِهِ بِدْعَةٌ، أَوْ إِصْرَارٌ عَلَىٰ ذَنْبٍ، أَوْ فِي قَلْبِهِ كِبْرٌ، أَوْ هَوًىٰ أَوْ حُبُّ الدُّنْيَا، أَوْ يَكُونُ غَيْرَ مُتَحَقِّقِ الْإِيمَانِ، أَوْ ضَعِيفَ التَّحْقِيقِ، أَوْ مُعْتَمِدًا عَلَىٰ قَوْلِ مُفَسِّرٍ لَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا عِلْمٌ بِظَاهِرٍ، أَوْ يَكُونُ رَاجِعًا إِلَىٰ مَعْقُولِهِ وَهَذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ وموانع وبعضها آكد من بعض»(٣).وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِذَا كَانَ وَرَقُهُ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فَمَعَانِيهِ لَا يَهْتَدِي بِهَا إلَّا الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ وَإِذَا كَانَ الْمَلَكُ لَا يَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ فَالْمَعَانِي الَّتِي تُحِبُّهَا الْمَلَائِكَةُ لَا تَدْخُلُ قَلْبًا فِيهِ أَخْلَاقُ الْكِلَابِ الْمَذْمُومَةِ»(٤).

فالقرآن يحتاج إلىٰ قلب طاهر حتىٰ تتجلىٰ معانيه فيه قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن الحجب المانعة من تفجر معاني القرآن في القلب: «أن يكون مصرًا علىٰ ذنب، أو متصفًا بكبر، أو مبتلىٰ في الجملة

(١) معالم التنزيل (١/ ٦٩).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٣٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٥١).

بهوىٰ في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث علىٰ المرآة، فيمنع جلية الحق من أن يتجلىٰ فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حجب الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشد تراكمًا كلما كانت معاني الكلام أشد احتجابًا، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنىٰ فيه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءىٰ في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة»[١].

(١) إحياء علوم الدين (٩/ ٢٥).

المطلب الثاني
الإعداد الفكري للباحثين في مجال الهدايات

القرآن الكريم جاء ليحرر العقول من رقة الاستعباد لتبعية الآباء والسادة والكبراء والرهبان والأحبار وغيرهم دون بصيرة ووعي، ليبني من خلال هذا التحرر العقول الواعية المستبصرة طريقها المستقيم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك:٢٢]. فرسم القرآن منهجه الذي ينبغي أن تتربىٰ عليه الأجيال في التعلم بصورة صحيحة، بعيدًا عن التقليد والجمود الذي يجعل الأجيال مأسورة بقيود فكرية، سلبت بها العقول، واستعبدت النفوس، فاصبحوا أممًا تقاد كالأنعام، يتبع جيل جيلًا بلا فكر ولا فهم ولا وعي مما هداهم الله إليه في كتابه العزيز، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٣ - ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولما كان القرآن لقوم يعقلون ويفقهون ويتفكرون، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام:٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ

﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]كان لا بد لمن أراد الانتفاع به أن يأتي إليه بعقل سليم لم تكدره ملوثات الفكر، فهو حِكَم وهدىٰ لأولي الألباب، قال تعالىٰ: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وأولوا الألباب يأخذون من هديه بقدر ما تتهيأ قلوبهم وعقولهم لتلقي أنواره، أما الإحاطة به فذلك دون نجم الثريا؛ لأن القرآن الكريم لا ينتهي عطاؤه، ولا تحيط عقول العلماء بمعانيه وهداياته، قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَعُلُومُ الْقُرْآنِ وَمَا يستنبط مِنْهُ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ »[١]، وقال سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَوْ أُعْطِيَ الْعَبْدُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَلْفَ فَهْمٍ لَمْ يَبْلُغْ نِهَايَةَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، وَكَلَامُهُ صِفَتُهُ، وَكَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ نِهَايَةٌ فَكَذَلِكَ لَا نِهَايَةَ لِفَهْمِ كَلَامِهِ، وإنما يفهم كل بمقدار مَا يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ، وَكَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَا تَبْلُغُ إِلَىٰ نِهَايَةِ فَهْمِهِ فُهُومٌ مُحْدَثَةٌ مَخْلُوقَةٌ »[٢]، وقال الخطيب الإسكافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كلام الله جل ذكره وعلا شأنه وأمره بحر لا تستنفد جواهره، وذو عجائب لا تستدرك بواطنه وظواهره، وذو عمق لا يبلغ آخره، وذو طول وعرض لا يقطعه مزاخره، وهو المغنم الذي من حازه ظفرت يداه، ولم يجزع لفوت ما عداه»[٣].

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٢١٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٩).

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل (١/ ٥).

ولما كان عطاء القرآن لا ينقضي وعلومه لا تنتهي جعل الله تدبره مفتوحًا، كل يأخذ منه بما فتح له علىٰ قدر تدبره وإقباله علىٰ هديه، قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ الْمُدَبِّرِ وَالْمُتَفَكِّرِ فِي التَّأْوِيلِ وَالْمَعَانِي ما لا يفتحه عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي علم عليم، وما توفيقي إلا بالله العزيز الحكيم»[١]، وقال الشنقيطي-رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والناس في فهمه مراتب ودرجات وأن منهم من يفهم في الآية حكمًا أو حكمين. ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك. ومنهم من يقتصر في الفهم علىٰ مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره. وأخص من هذا وألطف ضمه إلىٰ نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا علىٰ ذلك اللفظ بمفرده»[٢].

ومع أن عطاء القرآن بحر لا تنفد درره وكنوزه إلا أن بعض الناس جعلوا بينهم وبينه حجبًا كثيرة، منها القلبية، ومنها النفسية، ومنها الاجتماعية؛ ولكن من أخطر أنواع هذه الحجب، الحجب الفكرية التي حالت بينهم وبين الوصول إلىٰ هداياته بصورة مثلىٰ، والاستنارة بأنواره في حياتهم كما ينبغي، وهي كثيرة؛ ولكن من أبرزها في التأثير علىٰ المؤمنين به ما يلي:

أولًا: الانشغال بالحروف عن المعاني:

تعلم القرآن الكريم يبدأ بتعلم حروفه، وينتهي بإقامة حدوده، فبعض الناس ظن أنه بإقامة حروفه قام بما أوجبه الله عليه في حق كتابه، فظلوا لا يعرفون من القرآن غير حروفه، ولا يبذلون الجهد إلا في التلاوة والحفظ،

---

(١) معالم التنزيل (١/ ٦٩).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٢٩٠).

وأصبحوا يبالغون في تحقيق المخارج والصفات، وجمع المتواتر والشاذ من القراءات، لا يتجاوز فكرهم ذلك، ومع أن تعلم حروفه وبذل الجهد في تلاوته وحفظه مطلوب، وثوابه عظيم إلا أن هؤلاء حين اقتصروا علىٰ ذلك حرموا أنفسهم من التدبر والتفكر في معانيه، والعمل بهديه، وهذا أضر كثيرًا بكثير من أبناء الأمة، وبه لبَّس الشيطان عليهم، وقد تحدث ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تلبيس إبليس علىٰ بعض القراء وكيف صدهم بالانشغال بحروفه عن فقه معانيه فقال:«فربما رأيت إمام مسجد يتصدىٰ للإقراء ولا يعرف مَا يفسد الصلاة، وربما حمله حب التصدر حتىٰ لا يرىٰ بعين الجهل عَلَىٰ أن يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم العمل به، ثم الإقبال عَلَىٰ مَا يصلح النفس ويطهر أخلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع، ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم»[(١)].

كما ينبغي أن نعلم أن التلاوة والحفظ، والاستماع للقرآن مع ما جاء من ترغيب فيه وأجر عظيم عليه لا تؤتي ثمارها الحقيقية، ولا يتحقق فضلها الكامل إلا إذا اتجهنا بها نحو غاياتها وهي فهم المعنىٰ، والوصول للهداية، وترجمناها عملًا وتطبيقًا في حياتنا، قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جدا ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتىٰ يفهم معانيه؛ فإن ذلك هو الثمرة من قراءة القرآن »[(٢)]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ١٠١).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية (١/ ١٣).

الْعَادَةَ الْمُطَّرِدَةَ الَّتِي جَبَلَ اللهُ عَلَيْهَا بَنِي آدَمَ تُوجِبُ اعْتِنَاءَهُمْ بِالْقُرْآنِ - الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِمْ - لَفْظًا وَمَعْنًى؛ بَلْ أَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُمْ بِالْمَعْنَىٰ أَوْكَدَ فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ كِتَابًا فِي الطِّبِّ أَوْ الْحِسَابِ أَوْ النَّحْوِ أَوْ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ فَكَيْفَ بِمَنْ قَرَءُوا كِتَابَ اللهِ تَعَالَىٰ الْمُنَزَّلَ إلَيْهِمْ الَّذِي بِهِ هَدَاهُمْ اللهُ وَبِهِ عَرَّفَهُمْ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالْهُدَىٰ وَالضَّلَالَ وَالرَّشَادَ وَالْغَيَّ. فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَتَهُمْ فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ أَعْظَمُ الرَّغَبَاتِ؛ بَلْ إذَا سَمِعَ الْمُتَعَلِّمُ مِنْ الْعَالِمِ حَدِيثًا فَإِنَّهُ يَرْغَبُ فِي فَهْمِهِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ مِنْ الْمُبَلِّغِ عَنْهُ؛ بَلْ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ حُرُوفَهُ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْحُرُوفِ بِدُونِ الْمَعَانِي لَا تُحَصِّلُ الْمَقْصُودَ إذَا اللَّفْظُ إنَّمَا يُرَادُ لِلْمَعْنَىٰ»[١].

وقد ذم الله تعالىٰ في كتابه من اكتفوا بتلاوة الحروف دون تدبر المعاني في القرآن الكريم قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة علىٰ ما أصّله هو من البدع الباطلة، وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه»[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٥٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٤٨).

[الجمعة:٥]. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا تنبيه من الله تعالىٰ لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»(١).

فينبغي لكل مقبل علىٰ القرآن أن يكون حريصًا علىٰ تعلم المعنىٰ للوصول إلىٰ الثمرة وهي الهداية؛ لأن هذا هو الذي يؤهلنا للانتفاع الحقيقي بالقرآن الكريم، والحياة الحقيقية به؛ حياة الصلاح والفلاح، حياة النور والهدىٰ والسعادة، قال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٩].

ثانيًا: الاكتفاء بالظاهر من هداياته:

الله تعالىٰ أمرنا بتلاوة كتابه حق تلاوته، وبتدبره تدبرًا كاملًا يوصلنا إلىٰ دقيق المعنىٰ وروعة الهداية؛ لأننا متعبدون إلىٰ الله تعالىٰ بما دلَّت عليه أدلة القرآن والسنة بمنطوقها ومفهومها، وبقرائن الأدلة، والقرآن الكريم عميق في أغواره، بعيد في مراميه ودلالاته، كلمات قليلة منه تشرح في أسطر كثيرة، وتستنبط منها هدايات عديدة، مما يتطلب دراسته وأخذه علىٰ مكث وأناة، فهو يحتاج إلىٰ نظر ثاقب وفكر عميق؛ وهذا صفة العلماء التي جاءت في كتاب الله تعالىٰ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [النساء:٨٣]، والعقول التي تكتفي بالظاهر من دلالته لا يمكن أن تستنبط الدقيق من هداياته فإن «وجمود الطبع علىٰ الظاهر دائما مانع من التوصل للغور»(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٩٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٣٠) بتصرف.

فبعض الناس أرادوا المعاني والهدايات؛ ولكنهم اكتفوا بالقليل الظاهر من هدايته، فلم يتعبوا أنفسهم يومًا في تدبر آية، ولا كرروا ألفاظها بهدف أن تجري معانيها علىٰ قلوبهم؛ فحرموا من الانتفاع بمكنونه؛ لأنهم اكتفوا بما وجدوه في شواطئ بحره الزاخر، فلم يطيلوا النظر في دلالات ألفاظه وجمله وآياته وسوره؛ حتىٰ تتفجر لهم أنوار هداياته، فإن الكثير من الهدايات لا يصل إليها أحد إلا بعد تدبر واجتهاد، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عظمة هذا الكتاب، وكيف تتفجر حِكمه لمن يطيل فيه نظره: هو «الذِّكْرُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَالنُّزُلُ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، لَا تَفْنَىٰ عَجَائِبُهُ، وَلَا تُقْلِعُ سَحَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِي آيَاتُهُ، وَلَا تَخْتَلِفُ دِلَالَاتُهُ، **كُلَّمَا ازْدَادَتِ الْبَصَائِرُ فِيهِ تَأَمُّلًا وَتَفْكِيرًا، زَادَهَا هِدَايَةً وَتَبْصِيرًا، وَكُلَّمَا بَجَسَتْ مَعِينُهُ فَجَّرَ لَهَا يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ تَفْجِيرًا**، فَهُوَ نُورُ الْبَصَائِرِ مِنْ عَمَاهَا، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ مِنْ أَدْوَائِهَا وَجَوَاهَا، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَلَذَّةُ النُّفُوسِ، وَرِيَاضُ الْقُلُوبِ، وَحَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَىٰ بِلَادِ الْأَفْرَاحِ، وَالْمُنَادِي بِالْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ: يَا أَهْلَ الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ»[١].

فلوا عكف العلماء اليوم علىٰ كتاب الله تلاوة وتدبرًا، وعقدوا لذلك المجالس الطوال، وأعطوا الأمة من بحور كنوزه، وانشغلوا به عن غيره لتغير حال البلاد والعباد؛ لأنهم سيجدون كل ما تنشده الإنسانية لرقيها وتطورها، فإن الزهد في التعمق في هدايات هذا الكتاب فوّت علىٰ الأمة فرصًا لا تعوض من الانتفاع بنوره وهديه في حياتهم، والأوائل ما سادوا إلا يوم أن أسهروا ليلهم في تلاوته وتدبره، وجعلوا نهارهم في تطبيق أحكامه وهديه، قال تعالىٰ:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٧).

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٥-١٧]؛ بل كان الواحد يكرر الآية ليلة كاملة يتدبر في معانيها وهداياتها.

ثالثًا: الانشغال بالوسائل عن المقاصد:

لقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بتدبر كتابه، والسعي لفهم معانيه، قال تعالىٰ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، فكل العلوم التي تعين علىٰ تحقيق هذا المقصد حث العلماء علىٰ تعلمها، كعلوم القرآن والتفسير والحديث واللغة العربية وأصول الفقه وغيرها، بهدف أن تكون معينة لفهم كلام الله تعالىٰ، وتفتح العقول لمزيد من الأخذ منه؛ لأن العلماء في فهمه يتفاوتون، فقد جاء عن الشَّعْبِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا جُحَيْفَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عَلِيًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِمَّا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ؟ وَقَالَ مَرَّةً مَا لَيْسَ عِنْدَ النَّاسِ فَقَالَ: (وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا عِنْدَنَا إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ؛ إِلَّا فَهْمًا يُعْطَىٰ رَجُلٌ فِي كِتَابِهِ...)(١).

فبعض الناس جعلوا تلك الوسائل غايات، فانشغلوا بها، وأفنوا أعمارهم في تحصيلها وغفلوا عن هدف ما وضعت له، وإذا جاءوا إلىٰ القرآن شغلوا بها الناس عن الهدايات بما دونه من تفريعات كثيرة في كتب التفسير والمعاني من علوم الآلة، وما صحب ذلك من أقوال شاذة، واختلافات غير محررة وليست

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: العاقلة، ح رقم ٦٩٠٣.

نافعة في غالبها صرفت العقول عن متعة التدبر في كلام الله، وصعَّبت طريق الوصول إلىٰ الهداية الذي يسره الله تعالىٰ لعباده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧]، قال الأستاذ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ التفسير ينقسم إلىٰ قسمين: «(أَحَدُهُمَا): جَافٌّ مُبْعِدٌ عَنِ اللهِ وَعَنْ كِتَابِهِ ، وَهُوَ مَا يُقْصَدُ بِهِ حَلُّ الْأَلْفَاظِ وَإِعْرَابُ الْجُمَلِ وَبَيَانُ مَا تَرْمِي إِلَيْهِ تِلْكَ الْعِبَارَاتُ وَالْإِشَارَاتُ مِنَ النُّكَتِ الْفَنِّيَّةِ ، وَهَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّىٰ تَفْسِيرًا ، وَإِنَّمَا هُوَ ضَرْبٌ مِنَ التَّمْرِينِ فِي الْفُنُونِ كَالنَّحْوِ وَالْمَعَانِي وَغَيْرِهِمَا.

(ثَانِيهُمَا): وَهُوَ التَّفْسِيرُ الَّذِي قُلْنَا: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ النَّاسِ - عَلَىٰ أَنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ - هُوَ الَّذِي يَسْتَجْمِعُ تِلْكَ الشُّرُوطَ لِأَجْلِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ لِغَايَتِهَا ، وَهُوَ ذَهَابُ الْمُفَسِّرِ إِلَىٰ فَهْمِ الْمُرَادِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَحِكْمَةِ التَّشْرِيعِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَجْذِبُ الْأَرْوَاحَ ، وَيَسُوقُهَا إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالْهِدَايَةِ الْمُودَعَةِ فِي الْكَلَامِ ، لِيَتَحَقَّقَ فِيهِ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: (هُدًىٰ وَرَحْمَةً) وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْأَوْصَافِ . فَالْمَقْصِدُ الْحَقِيقِيُّ وَرَاءَ كُلِّ تِلْكَ الشُّرُوطِ وَالْفُنُونِ هُوَ الِاهْتِدَاءُ بِالْقُرْآنِ»[1].

رابعًا: حصر فهم القرآن على رأي شيخ أو مذهب:

فإن بعض الناس حرموا من الانتفاع بهدايات القرآن؛ لأنهم حصروا فهم القرآن وهداياته علىٰ رأي مفسر بعينه أو مذهب إمام أو فكر طائفته، فأصبح لهم بذلك تعصب وجمود، جاهلين أن القرآن أوسع من أن يحصر في رأي مفسر أو عالم معين، أو مذهب محدد؛ لأن القرآن أعظم من أن تحيط به

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/ ٢٢).

عقول الخلق، ومن ظن أن عالمًا قد أحاط بما في الكتاب، وعصمت أقواله من الخطأ والانحراف فقد وقع في الضلال، والمطلع في كتب التفسير اليوم يعرف أنه لا يغني تفسير عن تفسير، خاصة وكل مفسر برع في إبراز ما برع فيه، وأن جهودهم جاءت متنوعة، ومحكومة بظروف كل مؤلف وغرض تأليفه، فكان منها المختصر ومنها المطول، ومنها الذي إكتفىٰ فيها صاحبها بالأثر، ومنهم من أطال في جوانب التدبر والنظر، وكل تأثر بعصره وتخصصه ونوع ميوله واهتمامه وله فتوحات قد خصَّه الله تعالىٰ بها، كما تكمن خطورة هذا الفكر في أنَّهم يريدون أن يعطِّلوا عطاء القرآن الذي ما له من نفاد؛ ولذا من أراد الانتفاع بالقرآن الكريم فعليه أن يجعل العلماء هم الواسطة المعينة له، فما دونه في كتبهم أو قدموه لنا في دروسهم ومحاضراتهم هو بالسنة لنا كمن يأخذ من نهر عذب دلو ماء فيعطينا لنشرب منه، فليس كل ما في الدلو هو ماء النهر، كما ليس كل ما في كتاب الشيخ أو حتىٰ عقله هو ما في القرآن الكريم كما قال الخضر لموسىٰ عليهما السلام عند ما وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي البَحْرِ: (مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْقَارَهُ)[١].

والأسوأ حالًا في هؤلاء الذين يكون لهم «ميل إلىٰ نزعة أو مذهب أو نحلة فيتأول القرآن علىٰ وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه علىٰ تحميله ما لا يساعد عليه المعنىٰ المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه ويمنعه

(١) صحيح البخاري كتاب: تفسير القرآن، باب: فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣]، ح رقم ٤٧٢٧.

عن فهم القرآن حق فهمه ما قيد عقله من التعصب، عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه حتىٰ إن لمع له بارق حق وبدا له معنىٰ يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقدك»[(١)].

خامسًا: الظن أن الهداية المستخرجة لابد فيها من سلف:

بعض الناس حرموا من الانتفاع بالقرآن الكريم بصورة كبيرة بسبب ظنهم أن الهداية المستنبطة أو القول في القرآن لابد له من سلف، وإلا كان من التفسير بالرأي المذموم؛ قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَمَّا الَّذِينَ جَمُدُوا عَلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ يَجِبُ أَنْ لَا يَعْدُوَ مَا هُوَ مَأْثُورٌ فَهُمْ رَمَوْا هَذِهِ الْكَلِمَةَ عَلَىٰ عَوَاهِنِهَا وَلَمْ يَضْبُطُوا مُرَادَهُمْ مِنَ الْمَأْثُورِ عَمَّنْ يُؤْثَرُ، فَإِنْ أَرَادُوا بِهِ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَفْسِيرِ بَعْضِ آيَاتٍ إِنْ كَانَ مَرْوِيًّا بِسَنَدٍ مَقْبُولٍ مِنْ صَحِيحٍ أَوْ حَسَنٍ، فَإِذَا الْتَزَمُوا هَذَا الظَّنَّ بِهِمْ فَقَدْ ضَيَّقُوا سَعَةَ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَيَنَابِيعَ مَا يُسْتَنْبَطُ مِنْ عُلُومِهِ، وَنَاقَضُوا أَنْفُسَهُمْ فِيمَا دَوَّنُوهُ مِنَ التَّفَاسِيرِ، وَغَلَّطُوا سَلَفَهُمْ فِيمَا تَأَوَّلُوهُ، إِذْ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ مِنَ الِاعْتِرَافِ بِأَنَّ أَئِمَّةَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَقْصِرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَرْوُوا مَا بَلَغَهُمْ مِنْ تَفْسِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...وَإِنْ أَرَادُوا بِالْمَأْثُورِ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ وَعَنِ الصَّحَابَةِ خَاصَّةً وَهُوَ مَا يَظْهَرُ مِنْ صَنِيعِ السُّيُوطِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ «الدُّرِّ الْمَنْثُورِ»، لَمْ يَتَّسِعْ ذَلِكَ الْمُضَيَّقُ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَمْ يُغْنِ عَنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ فَتِيلًا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الصَّحَابَةِ لَا يُؤْثَرُ عَنْهُمْ فِي التَّفْسِيرِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ سِوَىٰ مَا يُرْوَىٰ عَنْ عَلِيِّ بْنِ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٠).

أَبِي طَالِبٍ عَلَىٰ مَا فِيهِ مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ وَمَوْضُوعٍ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا عِنْدِي مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ شَيْءٌ إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللهُ. وَمَا يُرْوَىٰ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَنَسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ. وَأَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ فَكَانَ أَكْثَرُ مَا يُرْوَىٰ عَنْهُ قَوْلًا بِرَأْيِهِ عَلَىٰ تَفَاوُتٍ بَيْنَ رُوَاتِهِ...»[١].

فليس من شروط التفسير الصحيح أن يكون للقول سلف؛ بل كل قول قامت عليه دلائل اللغة، وتوافق مع دلائل السياق، وقرائن الوحي، وانضبط بأصول وقواعد الشرع فهو قول معتبر، قال شَرَفُ الدِّينِ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: - فِي «شَرْحِ الْكَشَّافِ» فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: «شَرْطُ التَّفْسِيرِ الصَّحِيحِ أَنْ يَكُونَ مُطَابِقًا لِلَّفْظِ مِنْ حَيْثُ الِاسْتِعْمَالُ، سَلِيمًا مِنَ التَّكَلُّفِ عَرِيًّا مِنَ التَّعَسُّفِ»[٢]. ومن هنا ظلَّ العلماء في كل قرن يستنبطون فوائد وهدايات جديدة، كما جاء عن سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٢] «هِيَ تَسْلِيَةٌ لِلْمَظْلُومِ وَتَهْدِيدٌ لِلظَّالِمِ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ قَالَ هَذَا؟ فَغَضِبَ، وَقَالَ: إِنَّمَا قَالَهُ مَنْ عَلِمَهُ. يُرِيدُ نَفْسَهُ»[٣].

فكان هذا التصور الفكري الخاطئ سببًا لحرمان أنفسهم من هدايات كثيرة كان من الممكن أن ينتفعوا بها في حياتهم ويصلوا إليها من خلال تدبرهم؛ لأن القرآن من خلال تدبره قد يفتح الله فيه لعالم ما لم يفتحه علىٰ آخر، وأن اجتهادات الأوائل ليست سدًا مانعًا للأواخر، وإنما هي بناء ممتد،

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٢).

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي علىٰ الكشاف) (٨/ ٦٢٧)، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٦٣).

(٣) المصادر السابقة.

يضع فيه كل جيل بصمته، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ ثَبَتَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ إِذَا ذَكَرُوا وَجْهًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنِ اسْتِخْرَاجِ وَجْهٍ آخَرَ فِي تَفْسِيرِهَا، وَلَوْلَا جَوَازُ ذَلِكَ وَإِلَّا لَصَارَتِ الدَّقَائِقُ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا الْمُتَأَخِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ اللهِ مَرْدُودَةً بَاطِلَةً، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَقُولُهُ إِلَّا مُقَلِّدٌ خَلْفٍ»[١].

سادسًا: قصر هدايات القرآن في أبواب محددة:

بعض الناس حرموا من الانتفاع الكامل؛ لأنها ظنوا أن الهداية في أبواب محددة لا تتجاوز جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق، تاركين الجوانب التربوية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدعوية وغيرها، فالقرآن جاء ليهدي في سائر مناحي الحياة للتي هي أقوم، لم يحدد الله تعالىٰ هداياته في أبواب معينة؛ بل أطلق وصف الهداية لكتابه، فالهدايات القرآنية لها أفانين متعددة، ومرامٍ متنوعةٍ، لا تكون في مجالٍ واحدٍ، فعلىٰ الباحث في الهداياتِ أن يستصحبَ ذلك، ويبعد عن عقلهِ عقليةِ التبويبِ والتصنيفِ وهو يبحثُ في الهداياتِ الجزئية؛ بل عليه أن يثبتها بِغَضِّ النظرِ في أي بابٍ تصنف، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ منبِّها علىٰ هذا: «إِنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَمَقَاصِدَهُ ذَاتُ أَفَانِينَ كَثِيرَةٍ بَعِيدَةِ الْمَدَىٰ مُتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ مُوَزَّعَةٍ عَلَىٰ آيَاتِهِ فَالْأَحْكَامُ مُبَيَّنَةٌ فِي آيَاتِ الْأَحْكَامِ، وَالْآدَابُ فِي آيَاتِهَا، وَالْقِصَصُ فِي مَوَاقِعِهَا، وَرُبَّمَا اشْتَمَلَتِ الْآيَةُ الْوَاحِدَةُ عَلَىٰ فَنَّيْنِ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ»[٢]. تأمل معي في ذلك قوله

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨).

تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. فانظر كيف بدأ بنكاح النساء وهو من متع الحياة الدنيا، وانتهت بالدعوة للتقديم للآخرة والاستعداد لملاقاة الله تعالىٰ، وجمعت بين الترهيب والترغيب.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣]، نجد الشيخ مصطفىٰ المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتحدث فيها عن هدايات اجتماعية فيقول: «وفى الآية إيماء إلىٰ أمور اجتماعية هامة:

(١) أنه لا مانع من الإباحة بالأسرار إلىٰ من تركن إليه من زوجة أو صديق.

(٢) أنه يجب علىٰ من استكتم الحديث أن يكتمه.

(٣) أنه يحسن التلطّف مع الزوجات في العتب والإعراض عن الاستقصاء في الذنب»[1].

سابعًا: سوء الفهم لمدرسة الأثر والرأي:

قام التفسير علىٰ مدرستين؛ الأولىٰ: مدرسة الأثر فهؤلاء نقلوا ما جاء عن الصحابة والتابعين وتابعيهم، منهم من اكتفىٰ بذلك تمييزًا لفضلهم، وليس منعًا لغيرهم، وبين المدرسة الثانية : الذين نقلوا أقوالهم، وساروا

---

(١) تفسير المراغي (٢٨/ ١٥٨).

علىٰ أصولهم وقواعدهم، وزادوا معها اجتهاداتهم وإضافاتهم، وهؤلاء هم غالب من كتبوا في التفسير، وهم من أصَّلوا للتفسير بالرأي المحمود ووضعوا قواعده وضوابطه، ثم جاءت مدارس من أصحاب الرأي المذموم الذين قام فكرهم علىٰ جهل وهوىٰ ظانين أنَّهم في غنىٰ عن سلفهم وأصولهم وقواعدهم ففتحوا الباب للتأويلات الباطلة والأقوال المنحرفة، فأصبح بعض الناس بسبب هذه الاختلافات في التعامل مع الهدايات بين غال وجاف ومعتدل علىٰ سبيل نجاة، بين قوم جمدوا علىٰ ما جاءَ ونقلَ عن السلفِ، وقوم ساروا في الاستنباط رافضين ما خطَّه سلفُ الأمة، وبين قوم بنوا خطاهم علىٰ خطىٰ سلفهم، وترسموا طريقَ دربِهم، ثم أعملوا بعد ذلك عقولَهم، وأنا أقول هنا بما قاله ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَىٰ الْحَدِيثِ الْمُعَادِ؛ تَعْطِيلٌ لِفَيْضِ الْقُرْآن الَّذِي مَا له مِنْ نَفَادٍ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّاسَ حَوْلَ كَلَامِ الْأَقْدَمِينَ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ معتكف فِيمَا أشاده الْأَقْدَمُونَ، وَآخَرُ آخِذٌ بِمِعْوَلِهِ فِي هَدْمِ مَا مَضَتْ عَلَيْهِ الْقُرُونُ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ ضرّ كثير، وَهنالك حَالَةٌ أُخْرَىٰ يَنْجَبِرُ بِهَا الْجَنَاحُ الْكَسِيرُ، وَهِيَ أَنْ نَعْمِدَ إِلَىٰ مَا شاده الْأَقْدَمُونَ فَنُهَذِّبَهُ وَنَزِيدَهُ، وَحَاشَا أَنْ نَنْقُضَهُ أَوْ نُبِيدَهُ، عَالِمًا بِأَنَّ غَمْضَ فَضْلِهِمْ كُفْرَانٌ لِلنِّعْمَةِ، وَجَحْدَ مَزَايَا سَلَفِهَا لَيْسَ مِنْ حَمِيدِ خِصَالِ الْأُمَّةِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ الْأَمَلَ، وَيَسَّرَ إِلَىٰ هَذَا الْخَيْرِ وَدَلَّ»[١].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).

ثامنًا: الفهم الخاطئ لبعض الأدلة وآثار السلف:

قد جاءت أدلة كثيرة تحذر من القول على الله تعالى بغير علم أو بهوى في الكتاب والسنة، وأن ذلك من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]. كما نقلت آثار عن حال بعض السلف في تورعهم عن الخوض في الكلام تفسير القرآن الكريم، فحملوا تلك الأدلة على منع القول في القرآن، مثل ما جاء عن حماد بْنُ زَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: «لَقَدْ أَدْرَكْتُ فُقَهَاءَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُمْ لَيُعَظِّمُونَ الْقَوْلَ فِي التَّفْسِيرِ، مِنْهُمْ سَالم بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، وَنَافِعٌ»، وما جاء عن مَالِك بْنُ أَنَسٍ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا، يَسْأَلُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «لَا أَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا»، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: أَنَا لَا أَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا » وغيرها كثير[(١)].

فبعض الناس فهم من هذه الأدلة والآثار أن الأسلم للعبد البعد عن القول في كلام الله تعالى وعدم الانشغال بتدبر واستنباط هدايات ومعان جديدة، واكتفوا في تعليم العلوم الشرعية بربط الناس ببعض ما كتبه أهل العلم، حتى زادت حواشي بعض كتب التفسير عن مائة حاشية، وشرحت

(١) انظر: جامع البيان للطبري (١/ ٧٩) فقد ذكر جميع هذه الآثار بأسانيدها.

بعض متون الفقه عشرات الشروحات، وأفنوا أعمارهم وأعمار طلابهم في ذلك، تاركين كل الأدلة التي جاءت تحث علىٰ فهم القرآن وتدبره، واستنباط هداياته واتباع ما جاء فيه الذي هو دون الفهم غير متحقق، تاركين لفقه العلماء في التعامل مع هذه الأدلة والآثار، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن روىٰ هذه الآثار: «فَهَذِهِ الْآثَارُ الصَّحِيحَةُ وَمَا شَاكَلَهَا عَنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ مَحْمُولَةٌ عَلَىٰ تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ؛ فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لُغَةً وَشَرْعًا، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَلَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا عَلِمُوهُ، وَسَكَتُوا عَمَّا جَهِلُوهُ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ؛ فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ له به، فكذلك يجب القول فيما سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٨٧]، وَلِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ)[(١)] »[(٢)].

تاسعًا: الجهل بمراتب أدلة الأحكام:

الهداية المستفادة من أدلة الكتاب والسنة من حيث الدلالة؛ منها ما هو قطعي الدلالة، جاءت الآيات المحكمات واضحة في بيانها، لا مجال فيها للتشكيك كأصول المعتقد من قضايا التوحيد وإثبات البعث والجزاء، وصدق النبوة، وأن القرآن كلام الله، وأركان العبادات من صلاة وزكاة وصيام

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ح رقم ٧٥٦١، وأبو داود في سننه ح رقم ٣٦٦٠، وابن ماجة ح رقم ١٦٤، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ١٧٤٣، والحاكم في المستدرك ح رقم٣٤٤، وقال: هذا الإسناد صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٣).

وحج، وكحرمة القتل والزنا والسرقة وغيرها، «فهذه لا تقبل الاختلاف وتعدد وجهات النظر ما بين مثبت وناف. بل جاء الشرع بقول واحد فيها مجمع عليه بين الأمة علىٰ اختلاف مذاهبها. فلا تجد مسلمًا عالمًا أم جاهلًا لا يؤمن بوحدانية الله، أو ينكر نبوة محمد رسول الله، أو لا يقر بالصلاة والزكاة، أو يُحل القتل ويستحل الزنا. والسبب في هذا الإجماع علىٰ القول الواحد قطعية النصوص الدالة علىٰ هذه الأمور الأساسية، وعدم قبولها للاحتمال وتعدد الآراء. ولولا ذلك لحصل الخلل والفساد في الدين والدنيا. وعلىٰ هذا الأساس يكون من أنكر واحدًا منها كافرًا خارجًا من الملة»[(١)].

فهذا هو الشأن في كل قضايا أصول الدين وأساسياته، فهي قطعية لا تقبل التشابه كما قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموافقات: «التشابه لا يقع في القواعد الكلية، وإنما يقع في الفروع الجزئية، والدليل علىٰ ذلك من وجهين: أحدهما الاستقراء أن الأمر كذلك، والثاني أن الأصول لو دخلها التشابه لكان أكثر الشريعة متشابها. وهذا باطل»[(٢)].

ومنها ما هو ظني الدلالة، وهو الذي يقبل تنوع الآراء وتعدد الأقوال، وهو غالب القضايا الفرعية التابعة للقضايا الكلية، من القضايا الفقهية العملية أو الاعتقادية «وهذه تجد الأدلة عليها في الغالب ظنية، محتملة لأكثر من وجه؛ ولذلك تعددت بشأنها آراء الفقهاء. كمسافة السفر الذي تقصر فيه الصلاة ويفطر الصائم، والمسح علىٰ الجورب، والوضوء من لمس المرأة، ومئات -بل آلاف- المسائل الفقهية.

---

(١) المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل، طه حامد الدليمي (١/ ٥٣).

(٢) الموافقات (٣/ ٦٥).

وإذا أخذنا فروع العقيدة كمثال، نذكر مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر، وخلق العرش والقلم، وأيهما أقدم، وأشراط الساعة. إن هذه الأمور يسوغ فيها الاختلاف وتعدد وجهات النظر. لعدم لزومه الفساد والخلل في الدين أو الدنيا. إلا ما جاء النص فيه قطعيًا في ثبوته ودلالته -كصريح الآيات- إذ يصبح تكذيبه تكذيبًا للنص نفسه. وهو كفر.

ولقد منع العلماء من التقليد في الأصول. وأجازوه في الفروع. لأن عامة أدلة الفروع ظنية، محتملة لوجوه من المعاني يصعب علىٰ العوام عادة تحديد المطلوب منها شرعا، أو فهمها علىٰ وجه الدقة دون الرجوع إلىٰ العلماء»(١).

فهذه الأمور الظنية هي الغالبة في هذه الفرعيات التابعة لتلك الأصول، والاجتهاد في استخراج الهدايات فيها، هي مدعم للكليات، وستظل موضع نظر العلماء واجتهاداتهم؛ بل بها يتميزون؛ لأن الكلام في القطعيات لا يخفىٰ علىٰ غالب أفراد الأمة، ولو جاءت جميع الأمور قطعية الدلالة لجمدت حركة النظر والاجتهاد، ولضاعت كثير من الفوائد والهدايات التي استخرجها العلماء باجتهاداتهم، ولو أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يجعل وحيه كله قطعي الدلالة لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا لفعل، وهو علىٰ كل شيء قدير؛ ولكن من رحمة الله جل وعلا بالناس أن جعل أدلة الوحي تقبل أوجهًا متعددة في مثل هذه الأمور، لتبقىٰ الشريعة المحمدية متناسبة مع امتداد الزمان وتنوع المكان واختلاف الحالات، ويبقىٰ القرآن هو محل نظر العلماء واجتهادهم حسب تغيرات الأجيال؛ لأن الأحكام القطعية لا مجال فيها للاجتهاد، أما

(١) المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل (١/ ٥٤).

الأدلة الظنية من حيث الثبوت أو الدلالة فإن الاجتهاد فيها يظل مفتوحًا علىٰ امتداد تاريخ الأمة الطويل بما جعل الفقه يستوعب تطورات الحياة ومصالح العباد، ولما كان كثير مما يستنبطه العلماء - خاصة التي تؤخذ من دلالات الألفاظ أو الأسلوب والسياق والمناسبات وغيرها - ظنية كان ذلك سببًا مانعًا للبعض من القول في كلام الله تعالىٰ؛ ظانين أن العمل بالظن لا يجوز، «وَالْحَقُّ أَنَّ اللهَ مَا كَلَّفَنَا فِي غَيْرِ أُصُولِ الِاعْتِقَادِ بِأَكْثَرَ مِنْ حُصُولِ الظَّنِّ الْمُسْتَنِدِ إِلَىٰ الْأَدِلَّةِ، وَالْأَدِلَّةُ مُتَنَوِّعَةٌ عَلَىٰ حَسَبِ أَنْوَاعِ الْمُسْتَنَدِ فِيهِ»(١). والعمل بما دلَّ عليه الظن مما أجمعت عليه الأمة، قال ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ الأمّة أجمعت علىٰ وجوب الرّجوع إلىٰ الأدلّة الظّنية من المعاني القرآنية، والأخبار الآحادية، وإنّما لم يؤثّموا المجتهدين إذا خالفوا شيئًا من الأدلّة الظّنيّة؛ لأنّهم اتّبعوا ما ظنّوا صحّته»(٢). فمثلًا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة:٢٢٨]، فبسبب دلالة اللفظة في اللغة التي تحتمل الطهر والحيض اختلف العلماء في عدة المطلقة هل تحسب بعدد الأطهار أم الحيضات، واستخدم كل فريق مرجحات ظنية أخرىٰ، فكل يعمل بما ترجح عنده بغالب الظن، ولا يعتبر ذلك من القول علىٰ الله تعالىٰ بغير علم مع أن المسألة تتعلق بقضية خطيرة يترتب عليها استحلال الفروج.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).

(٢) الروض البسام لابن الوزير (٢/ ١٤٥).

عاشرًا: دراسة الأحكام بعيدًا عمَّا صحبها من هدايات:

هدي القرآن الكريم في بيان الأحكام التكليفية العملية أنه يتحدث عنها مرتبطة بما يكملها من جوانب الإيمان والأخلاق وغيرها، وقد درج بعض الفقهاء في تقرير بعض الأحكام الاستدلال بجزء من الآية، بالموضع الذي ينص علىٰ الحكم فقط، تاركين جوانب الهدايات الإيمانية والعملية والتربوية وغيرها التي تتعلق بهدايات الآية وهي تقرر الحكم في الآية، مما أدىٰ ذلك الترك إلىٰ إضعاف أثر القرآن في نفوس أبناء الأمة، وأفقد كثيرًا من العبادات روحها ومقاصدها التي من أجلها شرعها الله؛ فالقرآن لا يعلمك الصلاة أو الصيام أو الطلاق أو النكاح أو الميراث بعيدًا عن العقيدة أو الأخلاق ومكملات ذلك من جوانب تربوية واجتماعية ونفسية وغيرها؛ بل يجمع بينهما جمعًا ويمزجهما مزجًا بصورة لا ينبغي أن تهمل في تعلم الحكم أو العمل به حتىٰ تتحقق الصورة المثلىٰ من الهداية التي وردت في جوانب الأحكام؛ بل ينبغي أخذها مجتمعة في العلم والعمل بكلياتها التي عرضها القرآن الكريم، ومن أراد تصور ذلك فليتأمل معي الأمثلة الآتية:

المثال الأول: في حديث القرآن عن حكم عدة المطلقة:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٨)، فهي مع تقرير الحكم راعت جوانب نفسية تتعلق بالمرأة وهي قوة الداعي للزواج؛ في قوله تعالىٰ: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾؛

فكأن النفس تحثها علىٰ أن تنهي علاقتها بالأول، وتتزوج؛ فقيل: «تربصي بنفسك» أي انتظري حتىٰ إكمال العدة، وعدم متابعة النفس المائلة للشهوة، وكذلك هي تعلمها وتهديها إلىٰ أخلاقية مهمة في الحياة عمومًا وفي الزوجية خصوصًا مع تعلم الحكم، وهو الصدق في الكلام في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾، وهي أيضًا تذكرها بجوانب إيمانية مهمة هي الباعث والمحرك الحقيقي لالتزام أحكام الشرع، وهو الحارس من التفريط ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، وكذلك فهي متضمنة لجانب تربوي مهم وهو تعزيز خلق الأمانة في النفوس والمراقبة الذاتية والتقوىٰ، كما أنها تبني جانبًا اجتماعيًا آخرًا مهمًا بالترغيب بالحفاظ علىٰ العلاقة بين الزوجين، واستخدام كل الوسائل لتدوم العشرة بينهما في قوله تعالىٰ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾، كما هي تبرز وجهًا اجتماعيًا آخرًا مهمًا تقوم عليه الحياة الزوجية، وهو مراعاة كل واحد منهما حقوق الآخر، ثم بينت أن حق الرجل أكثر بما يفرض القوامة التي لابد منها لاستمرارية الحياة فقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، ثم ختمت الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وذلك أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما فضَّل الرجال علىٰ النساء درجة، ولما كان في ذلك التفضيل عزة للرجال، وصف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه بـ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في إشارة إلىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ أعزهم عليهن بعزته وحكمته، وفي هذا تسلية للنساء وتنبيه علىٰ أنه ما أعطىٰ الرجال هذه الدرجة إلا لحكمة بالغة، قد تظهر لهن وقد لا تظهر، ولهذا فإن عليهن الرضا بذلك الحكم بما يعالج ما يقع في نفوس كلا الطرفين بهذا المعنىٰ الإيمان، ويسكت الدعوات الضالة التي يصدرها الجهلة ممن

يريدون مساواة المرأة بالرجل في كل شيء، حيث جهلوا حكمة الله تعالىٰ في ذلك، فانظر كيف جمعت الآية بين حكم العدة للمطلقات، وما يكمل ذلك من جوانب إيمانية، وأخلاقية، وتربوية واجتماعية ونفسية.

المثال الثاني: في حديث القرآن عن حكم الوطء في زمن الحيض:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(البقرة:٢٢٢)، جاء الحكم في أسلوب بديع ينبغي الوقوف معه وهو أسلوب السؤال والجواب الذي يشوق إلىٰ معرفة الحكم وتلقيه بالقبول، وقبل الحديث عن الحكم نفَّرتْ عنه بما يدل علىٰ خبثه ونجاسته ويجعل العقل السليم يجتنبه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ حيث بدأ ببيان الحكمة في المنع تهيئة للنفوس لتقبل الحكم وتطمئن إليه؛ بل تشعر من خلاله بمنَّة الله تعالىٰ عليه في اعتزالهن في المحيض؛ لأنه أذىٰ مضر بالمرأة، ومضر بالرجل، ثم جاء النهي في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾، ثم تضمنت جوانب تربوية مهمة وهي تتحدث عن الحكم من خلال ألفاظها وتعبيرها عن الجماع بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾، ثم زادت في الجانب التربوي وهي تعلم الفرد من خلال هذا الحكم عدم تعدي حدود الله، لا زمانًا ولا مكانًا فيما أباحه الله من إتيان أهله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾، ولما كانت هذه الأمور مظنة التفريط جاء الترغيب في التوبة والطهر في أعلىٰ أسلوب يرغِّب في ذلك فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فالحديث عن الحكم بعيدًا

عن هذه المعاني والهدايات يؤدي إلىٰ خلل كبير في البناء الإيماني والأخلاقي والتربوي لدىٰ المسلم.

المثال الثالث: في حديث القرآن عن وجوب إقامة الصلاة:

قال تعالىٰ: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥)، فانظر كيف تحدثت عن الأمر بإقامة الصلاة الذي يستلزم إقامتها «ظاهرًا، بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها، وإقامتها باطنًا، بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها»(١)، وبيَّنت مقصودين عظيمين من إقامتها لا ينبغي إغفالهما عند تعليم حكم الصلاة؛ وهما: **الأول**: وهو مقصود أخلاقي اجتماعي ينبغي أن يسعىٰ لتحقيقه من خلال إقامتها وهو ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، لأن بها تتزكىٰ الجوارح من أدران المعاصي، ويقرب العبد من ربه زلفىٰ، فإن من يقف بين يدي ربه خمس مرات في اليوم والليلة يتلو كتابه، ويعظمه بذكره، ويرجو رحمته بدعائه فإنه يستحيي بعد ذلك من فعل الفحشاءِ والمنكر.

والمقصود الثاني: وهو أكبر من الأول؛ لأنه يتعلق بالجانب الإيماني في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾، وهو أعظم الطاعات، والصلاة كلها هي لتحقيق ذكر الله الذي به تطمئن النفوس، وتخنس الشياطين، ويكون القلب أكثر خشوعًا ويقظة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان شيخ الإسلام

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤١).

أبو العباس قدس الله روحه يقول: الصحيح أن معنىٰ الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة علىٰ ذكر الله تعالىٰ، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر»[١]، ثم ختمت الآية بمعنىٰ مهم استحضاره في الصلاة وفي خارجها، وهو أعظم مقوم للأعمال والسلوك فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾. قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «ووجه كون الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوىٰ رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها علىٰ هذا الوجه، تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالىٰ إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديَّات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾»[٢].

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٧٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٣٢)، وانظر لمزيد من المعاني: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٠/ ٤٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٤/ ١٩٦)، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٣٦٠).

الموانع الفكرية عن هدايات القرآن الكريم:

- الانشغال بالحروف عن المعاني.
- الاكتفاء بالظاهر من هداياته.
- الانشغال بالوسائل عن المقاصد
- الحصر فهم القرآن على رأي شيخ أو مذهب.
- الظن بأن الهداية لابد فيه من سلف.
- قصر الهداية في أبواب محددة.
- سوء الفهم لمدرسة الأثر والرأي.
- الفهم الخاطئ لبعض الأدلة والآثار.
- الجهل بمراتب أدلة الأحكام
- دراسة الأحكام بعيداً عمَّا صحبها من هدايات





المبحث الثالث

طرق العلماء في استخراج الهدايات أهمية معرفتها وفوائدها وأنواع الطرق الجزئية منها

المطلب الأول: أهمية معرفة طرق العلماء في استخراج الهدايات.

المطلب الثاني: أنواع طرق العلماء الجزئية في استخراج الهدايات.

المطلب الثالث: فوائد استخراج الهدايات وفق طرق العلماء.





المطلب الأول
أهمية معرفة طرق العلماء في استخراج الهدايات

العلماء لهم مكانة ومنزلة خاصة في الدين، فهم ورثة الأنبياء، وحملة الشريعة وحماتها ودعاة الخير والصلاح، الذين يحيون بكتاب الله الموتىٰ، ويبصرون به أهل العمىٰ، فهم نجوم الأرض التي يهتدىٰ بها؛ وبفقدهم تضل أمم وتشقىٰ، فقد جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)[(١)]؛ ولذا قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «موت الْعَالم مُصِيبَة لا تجبر، وثلمة لَا تسد، وَنجم طمس، وَمَوْت قَبيلَة أيسر من موت عَالم، لما كَانَ صَلَاح الْوُجُود بالعلماء، ولولاهم كَانَ النَّاس كَالْبَهَائِمِ؛ بل أَسْوَأ حَالًا كَانَ موت الْعَالم مُصِيبَة لَا يجبرها إلا خلف غَيره لَهُ، وأيضا فَإِن الْعلمَاء هم الَّذين يسوسون الْعباد والبلاد والممالك، فموتهم فَسَاد لنظام الْعَالم؛ وَلِهَذَا لَا يزَال الله يغْرس فِي هَذَا الدّين مِنْهُم خالفًا عَن سالف يحفظ بهم دينه وَكتابه وعباده، وَتَأمل إذا كَانَ فِي الْوُجُود رجل قد فاق الْعَالم فِي الْغنىٰ وَالْكَرم وحاجتهم إلىٰ مَا عِنْده شَدِيدَة، وَهُوَ محسن إليهم بِكُل مُمكن ثمَّ مَاتَ وانقطعت عَنْهُم تِلْكَ الْمَادَّة، فموت الْعَالم أعظم مُصِيبَة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضل العلم، باب: كيف يقيض العلم ح رقم١٠٠.

من موت مثل هَذَا بِكَثِير، وَمثل هَذَا يَمُوت بِمَوْتِهِ أُمَم وخلائق»[1].

ولمكانتهم وفضلهم أثنىٰ الله عليهم في كتابه كثيرًا، ورفع قدرهم وأعلىٰ شأنهم، وجعلهم من أولي الأمر الذين أُمرنا بالرجوع إليهم، لمعرفة ما جهلنا، وتذكر ما غفلنا عنه ونسينا، خاصة علماء الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

فالعلماء هم أفهم الناس لغريب القرآن، وأعرفهم بأصول فهم القرآن وقواعده، وكيف يدفع ما ظاهره التناقض والتعارض والاختلاف، وترد المتشابهات للمحكمات، وكيف يحمل عامه علىٰ خاصه، ومطلقه علىٰ مقيده، وناسخه علىٰ منسوخه، وكيف تستخرج المعاني من دلالة التضمن واللزوم، وكيف يتعامل مع المعاني المحتملة والأقوال المتنوعة التي قيلت في تأويله، وغيرها من جوانب كثيرة لا يفهمها ويحسنها غيرهم؛ ولذا هم أقدر الناس علىٰ فهم كتابه واستنباط دقائق معانيه وهداياته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء:٨٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٦٨).

وقد بذل العلماء عبر التاريخ جهودًا طويلة في تدبر كلام الله تعالىٰ، ومحاولة فهمه، والوصول إلىٰ هداياته، فمن خلال التتبع والاستقراء وجدنا أن هنالك طرقًا محددة سلكها العلماء في استخراج الهدايات، كل طريق لهم فيه تأصيل وتفصيل يطول، وهي طرق من الأهمية بمكان معرفتها، وتنمية الملكة في تطبيقها، لأنها طرق لا يستغني عنها عالم ولا متعلم يريد أن يصل إلىٰ هدىٰ هذا الكتاب المجيد، وتبرز أهمية دراسة طرق العلماء في جوانب متعددة لا نريد أن نطيل فيها؛ ولكن يمكن أن نختصر الكلام عن أبرزها، وهي:

١- العصمة من الضلال عن سواء السبيل:

إنَّ لفهمِ القرآنِ الكريم أصولاً وضوابط وقواعد وطرقًا قعَّدها علماء هذه الأمة يجب معرفتها والتزامها خاصة التي جاءت عن الصحابة والتابعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ لِمَنْ تَدَبَّرَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ: أَنَّ خَيْرَ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ - فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالِاعْتِقَادِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ أَنَّ خَيْرَهَا-: الْقَرْنُ الْأَوَّلُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ الْخَلَفِ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ: مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ وَإِيمَانٍ وَعَقْلٍ وَدِينٍ وَبَيَانٍ وَعِبَادَةٍ، وَأَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِالْبَيَانِ لِكُلِّ مُشْكِلٍ. هَذَا لَا يَدْفَعُهُ إلَّا مَنْ كَابَرَ الْمَعْلُومَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ؛ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ. فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ:

أَبَرُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفًا قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ»[1])[2]، وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم: «هُمْ فَوْقَنَا فِي كُلِّ عِلْمٍ وَعَقْلٍ وَدِينٍ وَفَضْلٍ وَكُلِّ سَبَبٍ يُنَالُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ يُدْرَكُ بِهِ هُدًىٰ وَرَأْيُهُمْ لَنَا خَيْرٌ مِنْ رَأْيِنَا لِأَنْفُسِنَا»[3].

فمعرفة طرقهم تعصم من الضلالة، والرأي المذموم، والأقوال الشاذة والمنحرفة.

٢- بناء القدرات العلمية وتكوين الملكة العملية:

فإن معرفة طرق العلماء تكسب الباحث قوة علمية وخبرة عملية في استنتاج واستنباط الهدايات، فعلىٰ قدرِ إلمامِ الباحثِ بجميعِ الطرقِ التي سلكها علماءُ التفسيرِ بصورةٍ خاصةٍ في استخراجِ الهداياتِ تقوىٰ ملكته وتستحكم قدراته في استخراجِ الهداياتِ في الدراساتِ التطبيقية واستنباطها، قال ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن تعليم العلم من جملة الصنائع، وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف علىٰ مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلًا، وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن

---

(١) ينظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول للجزري (١/ ٢٩٢) ح رقم ٨٠، وذكره البغوي في معالم التنزيل (٤/ ٢٨٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٧).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (١/ ١٢).

الواحد ووعيها مشتركًا بين من شدًا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه وبين العامي الذي لم يعرف علمًا وبين العالم النحرير، والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما فدل علىٰ أن هذه الملكة غير الفهم والوعي))[1]. وهي تجعل الدراسة والمتدبر للقرآن من خلال طرق العلماء أكثر إفادة من غيره.

٣- اكتساب الرؤى المتنوعة والاتجاهات المتعددة لمتدبر القرآن:

كذلك من فوائد معرفة طرق العلماء اكتساب الرؤىٰ المتنوعة والاتجاهات المتعددة لمتدبر للقرآن في استخراج الفوائد، لأنه سيقف علىٰ جهود العلماء المتنوعة عبر التاريخ في كيفية محاولاتهم لفهم واستيعاب دلالات وهدايات القرآن، وكيف تطورت تلك الجهود وتكاملت وأدَّت إلىٰ نضوج كبير في آليات الفهم والتدبر، وهذه واحدة من نعم الله تعالىٰ علىٰ المتأخرين التي ينبغي أن يستفيدوا منها للوصول لفهم أعمق ومتجدد للقرآن الكريم الذي كلما أطال العبد فيه التدبر وجد فيه ما يزيده هدىٰ وشفاء ورحمة، فمعرفة هذه الطرق والتزامها في استخراج الهدايات أصل مهم في هذا الباب، واستخدام طرقهم المتنوعة تكسب الباحث قدرات عالية في استنباط هدايات متنوعة في اتجاهات متعددة من خلال النظر في الآية من زوايا متعددة واتجاهات متنوعة، مع استثمار تراث الأمة في بيان الهداية، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولىٰ، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ وعام

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص: ٢٤٦).

وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين وأحوال الرجال، من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم. فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين. وجميع الأحاديث الواردة عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف. فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جدا علىٰ كل من رزقه الله فهما وعلما»[١]، كما أن جميع الطرق التي سلكوها قد بانت وحصرت وأصلت ولله الحمد والمنة.

أهمية دراسة طرق العلماء:

العصمة من الضلال عن سواء السبيل

↓

بناء القدرات العلمية وتكوين الملكة العملية

↓

اكتساب الرؤى المتنوعة والاتجاهات المتعددة للمتدبر للقرآن

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٦٢).

المطلب الثاني
فوائد استخراج الهدايات وفق طرق العلماء

لاستخراج الهدايات القرآنية وفق طرق العلماء فوائد كثيرة من ذلك:

أولاً: تيسير الأخذ من هدىٰ القرآن للناس وجعله منهجاً لحياتهم، ومحوراً لتفكيرهم، خاصة بعد بناء مشروع الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية من خلال الجهد الجماعي العالمي الذي بني علىٰ خطة علمية واحدة؛ وفق منهجية دقيقة، مع إشراف محكم قَلَّ له نظير، وتيسير فهم القرآن للناس هو واحد من المقاصد الكبرىٰ التي ينبغي للعلماء بذل جهدهم فيه لتحقيقه في كل زمان ومكان، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر:١٧]، فهو ميسر، وينبغي للعلماء السعي لتيسيره بصورة أكبر - خاصة في هذا العصر الذي بعد فيه الناس عن العربية الفصحىٰ واحتاجوا إلىٰ توضيح ما صعب أو غمض عليهم فهمه - قال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [مريم:٩٧]، وفعل ذلك من أعظ الواجبات، وأكبر القربات.

ثانياً: تجديد الاجتهاد في تدبر القرآن الذي أمرنا بتدبره آناء الليل وأطراف النهار لاستنباط فوائد وثمرات جديدة، مع الترغيب في فهمه، والاستفادة من دلالات خطابه في جوانب الحياة المتنوعة؛ ليكون أثره في الحياة أعظم فإنَّ «تأثير القرآن في نفوس المؤمنين بمعانيه لا بأنغامه، وبمن يتلوه من العاملين به لا بمن يجوِّده من المحترفين به، ولقد زلزل المؤمنون بالقرآن الأرض يوم

زلزلت معانيه نفوسهم، وفتحوا به الدنيا يوم فتحت حقائقه عقولهم، وسيطروا به علىٰ العالم يوم سيطرت مبادئه علىٰ أخلاقهم ورغباتهم، وبهذا يعيد التاريخ سيرته الأولىٰ»[(١)].

ثالثاً: فتح آفاق جديدة للبحث في مجال الهدايات القرآنية من خلال المعارف والعلوم الأخرىٰ بما يقوي تلك العلوم ويجعلها تقترب من نور الهداية الربانية، خاصة العلوم التي تتحدث عن بناء الإنسان في روحه وفكره وعقيدته وأخلاقه؛ بما يجعل الإنسانية تدرك أن القيم الحضارية المثلىٰ التي تنشدها لسعادتها لا توجد بصورة عميقة متكاملة إلا في القرآن الكريم كلام رب العالمين، النور والهدىٰ والشفاء والرحمة.

رابعاً: إظهار إعجاز القرآن الكريم وأسراره البلاغية والتشريعية والعلمية وغيرها، مع تنبيه الأمة إلىٰ عظمة محتوىٰ الخطاب القرآني وما فيه من الفوائد والإرشادات التي لم ينته فيها نظر العلماء عبر التاريخ؛ بل معرفة جهودهم وخلاصة ما دونوه ينبه إلىٰ تفكير أعمق للاستفادة من هدايات القرآن في شتىٰ مجالات الحياة.

خامساً: استثمار كلام العلماء خاصة ما كتبه علماء التفسير من معاني، وكتابته بطريقة الهدايات التي تسهِّل فهمه وتطبيقه؛ بصورة لم تحدث من قبل، فهي تسهم في قراءة عميقة جديدة لأقوالهم؛ فضلاً عن جمع ما كتبوه من هدايات وصياغتها بأسلوب جديد سهل ميسر يتناسب مع إنسان اليوم وطرق مخاطبته.

---

(١) هكذا علمتني الحياة (١/ ٩٨).

سادساً: الوقوف علىٰ تطور فكرة بعض الهدايات المستخرجة عبر تاريخ الأمة الممتد، كيف استخرجت أولاً ثم تطورت حتىٰ صارت تصوراً شاملاً يمكن أن تبنىٰ عليها مشروعات نهضوية، بما يجعل تطوير فكرة الهدايات القرآنية نامياً في عقول أبناء الأمة.

سابعاً: صياغة رؤىٰ ومبادرات علمية عملية ذات أبعاد إيمانية وتربوية ودعوية واجتماعية وغيرها تسهم في صناعة حلول قرآنية لكثير من مشكلات الواقع، فهي فرصة للبحث عن حلول قرآنية لما تعانيه الأمة من أزمات.

ثامناً: بناء تخصص جديد في مجال الدراسات القرآنية، متكامل الرؤىٰ في تحرير مصطلحه، وبيان فضله وفائدته، والأصول والقواعد التي يقوم عليها، وكل ما يحتاجه العلم الجديد من رؤىٰ وتطبيقات.

تاسعاً: تمليك الأدوات التي استخدمها العلماء، والتدرب عليها من خلال تطبيقها وممارستها حتىٰ تكون مهارة بين أيدي طلاب العلم، فهذه واحدة من الفوائد العظيمة لمعرفة طرق العلماء وتطبيقها بصورة متكررة.

عاشراً: تمكين الإنسانية من معرفة عظمة الهدىٰ القرآني الذي يقودهم للإيمان به، واتباع هديه لتتحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة التي لن تتحقق لهم بدونه، فعلىٰ قدر عناية الأمة بإبراز هدىٰ القرآن للناس بما يتحقق للإنسانية الانتفاع به، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فوائد استخرج الهدايات وفق طرق العلماء

- تيسير الأخذ من هدى القرآن للناس
- تجديد الاجتهاد في تدبر القرآن
- فتح آفاق جديدة للبحث
- إظهار إعجاز القرآن الكريم
- استثمار كلام العلماء
- الوقوف على تطور فكرة بعض الهدايات
- صياغة رؤى ومبادرات علمية
- بناء تخصص جديد في مجال الدراسات القرآنية
- تمليك الأدوات التي استخدمها العلماء
- معرفة عظمة الهدى القرآني

المطلب الثالث
أنواع طرق العلماء الجزئية في استخراج الهدايات

هنالك طرق محددة سلكها العلماء في استخراج الهدايات توصلنا من خلالِ الاستقراءِ إلىٰ سبع عشرة طريقةً من طرقِ العلماءِ في استخراج الهدايات، وهي تتلخص في الآتي:

أولًا: النظرُ في دلالاتِ الألفاظ.

ثانيًا: النظرُ في اختلافِ القراءات.

ثالثًا: النظرُ في رسم المصحف.

رابعًا: النظرُ في تنوعِ الأساليب.

خامسًا: النظر في سياقِ الكلام.

سادسًا: النظر في المناسبات.

سابعًا: التدبُّر في ورود أسماءِ الله الحسنىٰ.

ثامنًا: النظر في أوجهِ الإعراب المحتملة.

تاسعًا: التدبُّر في مجموعِ أدلةِ الوحي.

عاشرًا: النظرُ في آثارِ الصحابة والتابعين.

الحادي عشر: النظرُ في أحوالِ النزول.

الثاني عشر: التدبُّر في قراءةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للآياتِ والسور.

الثالث عشر: التدبُّر من خلالِ مكتشفاتِ العلوم التطبيقية.

الرابع عشر: النظرُ للآياتِ في ظل متطلباتِ الواقع.

الخامس عشر: النظر من خلال مقاصد القرآن الكريم وسوره.

السادس عشر: التدبُّر من خلال أصولِ الشريعة.

السابع عشر: النظر في حكمِ التشريعِ وأسراره.

وهي من حيثُ الإجمالُ تتلخصُ في خمسِ دوائر:

الأولىٰ: المفردة: (دلالات اللفظ، اختلاف القراءات، رسم المصحف للمفردة).

الثانية: الجملة: (تنوع الأساليب، السياق، المناسبات، وورود أسماء الله الحسنىٰ، وأوجه الإعراب المحتملة).

الثالثة: أصول فهم الوحي: (مجموع أدلة الوحي، وآثار الصحابة والتابعين).

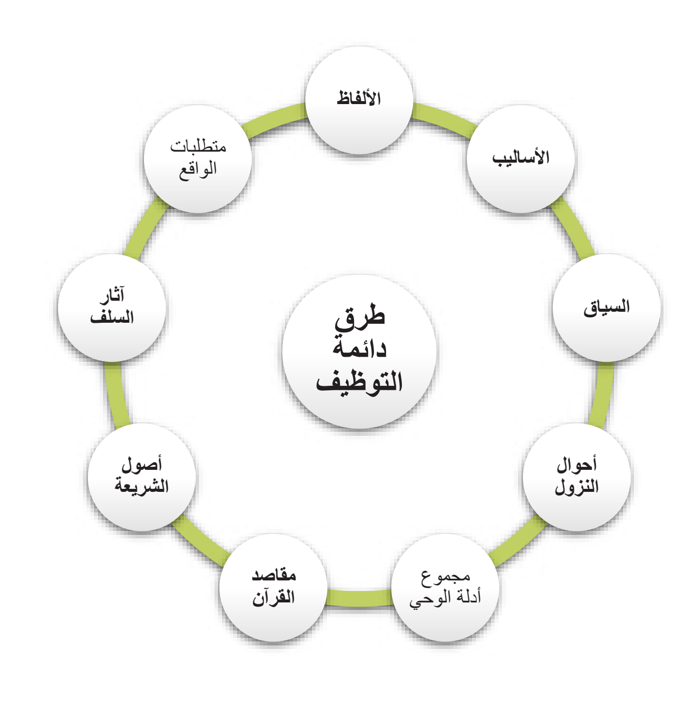
الرابعة: قرائن الوحي:(أحوال النزول، وقراءة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للآيات والسور، ومكتشفاتِ العلوم التطبيقية، الواقع).

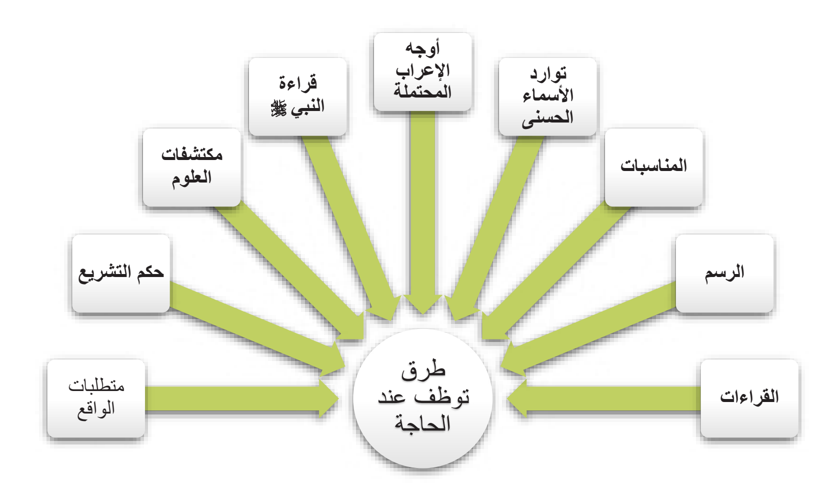
الخامسة: مقاصد القرآن وسوره وأصول الشريعة وحكم التشريع وأسراره.



ويمكن تقسيمها من حيث التوظيف إلىٰ قسمين: طرق دائمة التوظيف، وطرق تستدعىٰ عند الحاجة، والجدول والأشكال أدناه توضح ذلك:

م	طرق دائمة التوظيف	طرق توظف عند الحاجة
١	الألفاظ	القراءات
٢	الأساليب	الرسم
٣	السياق	المناسبات
٤	أحوال النزول	توارد الأسماء الحسنى
٥	مجموع أدلة الوحي	أوجه الإعراب المحتملة
٦	آثار السلف	قراءة النبي ﷺ
٧	مقاصد القرآن	مكتشفات العلوم
٨	أصول الشريعة	حكم التشريع
٩		معرفة الواقع


طرق دائمة التوظيف
الألفاظ
الأساليب
السياق
أحوال النزول
مجموع أدلة الوحي
مقاصد القرآن
أصول الشريعة
آثار السلف
متطلبات الواقع


طرق توظف عند الحاجة
القراءات
الرسم
المناسبات
توارد الأسماء الحسنى
أوجه الإعراب المحتملة
قراءة النبي ﷺ
مكتشفات العلوم
حكم التشريع
متطلبات الواقع



المبحث الرابع

طرق العلماء في استخراج الهدايات الجزئية تأصيلًا وتطبيقًا

المطلب الأول: الطرق المتعلقة بالمفردة القرآنية.

المطلب الثاني: الطرق المتعلقة بالجملة القرآنية.

المطلب الثالث: الطرق المتعلقة بأصول فهم الوحي.

المطلب الرابع: الطرق المتعلقة بقرائن الوحي..

المطلب الخامس: الطرق المتعلقة بمقاصد القرآن وأصول التشريع وحكمه.





المطلب الأول
الطرق المتعلقة بالمفردة القرآنية

تنقسم الطرق المتعلقة بالمفردة القرآنية إلى ثلاثة أنواع، وهي:

النوع لأول: دراسة اللفظة من حيث اللغة والمعنىٰ القرآني.

والثاني: دراسة أوجه القراءات المتعددة التي وردت فيها.

والثالث: دراسة الكيفية التي رسمت بها في المصاحف العثمانية.



وإليك تفصيل كل نوع من هذه الأنواع.

أولًا: النظر في دلالات الألفاظ:

١- أهمية دلالات الألفاظ:

فهمُ دلالةِ الألفاظِ القرآنية هو المفتاحُ لفهمِ الآيةِ واستخراجِ هداياتها، والجهل به جهل لما بعده، وهو أولُ ما ينظر فيه مستنبطُ الهدايات، وبقدر استيعابِ معاني الألفاظِ ودلالاتها تستطيعُ الوصولَ لأغوارِ هداياتِها، قال الراغبُ الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ أولَ ما يحتاجُ أن يشتغلَ به من علومِ القرآن؛ العلومِ اللفظية، ومن العلومِ اللفظيةِ تحقيقُ الألفاظِ المفردة، فتحصيلُ معاني مفرداتِ ألفاظِ القرآن في كونهِ من أوائلِ المعاون لمن يريدُ أن يدرَك معانيه، كتحصيلِ اللَبِن في كونهِ من أولِ المعاون في بناءِ ما يريدُ أن يبنيَه»[1].

وهذا الباب لأهميته أفرده عدد كبير من العلماء بالكتابة والتأليف تحت مسمىٰ: غريب القرآن أو مفردات القرآن، ومعاني القرآن، وجعله علماء التفسير في سلم أولوياتهم في فهم المعنىٰ واستثمار هداياته، قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة تفسيره: «ترتيبي في هذا الكتاب أني أبتدئ أولًا بالكلام علىٰ مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لأنظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه»[2].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص:٦).

(٢) البحر المحيط في التفسير (١/ ١٠٣).

ولأهمية هذا العلم جعله العلماء من العلوم الضرورية للمفسر، قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمَعْرِفَةُ هَذَا الْفَنِّ لِلْمُفَسِّرِ ضَرُورِيٌّ، وَإِلَّا فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْإِقْدَامُ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ نَضْلَةَ الْمَدِينِيُّ سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ يَقُولُ: «لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللهِ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا»[1]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي كِتَابِ اللهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِلُغَاتِ الْعَرَبِ»[2]، وَرَوَىٰ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُونِي عَنْ غَرِيبِ اللُّغَةِ فَالْتَمِسُوهُ فِي الشِّعْرِ فَإِنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ الْعَرَبِ»[3] »[4].

وهذا يتطلبُ إعطاءَ الألفاظِ حقَّها من الدراسةِ، وتوفيتها ما لَهَا من المعاني، سواء كان ذلك في الأسماءِ، أم الأفعالِ، أم حروفِ المعاني بأنواعِها، حتىٰ يصل المتدبِّر إلىٰ المعنىٰ العميق في الهداية؛ ولذا كان السلف يهتمون بفهم المفردة في عمق دلالاتها حتىٰ يصلوا لفهم المعنىٰ الدقيق الذي يوصلهم للهداية، فقد جاء عَنْ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيِّ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] بِنَصْبِ الرَّاءِ. قَالَ: وَقَرَأَ بَعْضُ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (ضَيِّقًا حَرِجًا). قَالَ صَفْوَانُ: فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ابْغُونِي رَجُلًا

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٢٨٧.

(٢) تفسير مجاهد لأبي الحجاج المخزومي (١/ ٢٥).

(٣) تفسير القرآن، للسمعاني (٥/ ٢٥١).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٩٢).

مِنْ كِنَانَةَ وَاجْعَلُوهُ رَاعِيًا، وَلْيَكُنْ مُدْلَجِيًّا[١]، قَالَ: فَأَتَوْهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا فَتَىٰ، مَا الْحَرَجَةُ؟ قال: الْحَرَجَةُ فِينَا: الشَّجَرَةُ تَكُونُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ الَّتِي لَا تَصِلُ إِلَيْهَا رَاعِيَةٌ وَلَا وَحْشِيَّةٌ وَلَا شَيْءٌ. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: كَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ»[٢]. فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يعرف المعنىٰ، ولم يكن يخفىٰ عليه ما في الآية من ضيق يحصل في الصدر؛ ولكنه أراد أن يعلم الصحابة طريقة فهم المفردة من مصدرها الصحيح لكي ينبني عليها استخراج الهداية، ومما يدل أنه كان يعرف المعنىٰ أنه طلب راعيـًا من مدلج من كنانة الذي استطاع أن يصور ذلك المعنىٰ بصورة دقيقة من خلال بيئته، لتكتمل عندهم تصور دلالة المعنىٰ التي توصل للهداية التي عبَّر عنها بقوله: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

٢- خصائص اللفظة القرآنية:

الألفاظُ القرآنية لها تميزُها الفريد في نفسِها، وفي سياقِها الذي وضعت فيه، وفي المقصد الذي اختيرت له[٣]، قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «فألفاظُ

---

(١) قبيلة من بني مرة بن عبد مناة بن كنانة، ويدل هذا الخبر علىٰ أن أرض مرعاهم كانت كثيرة الشجر. انظر: جامع البيان (١٢/ ١٠٤).

(٢) جامع البيان (٩/ ٥٤٤).

(٣) مثلاً لما كان مقصد القرآن تربية العفة والحياء في الناس جاء الكلام عن الجماع بألفاظ تدل علىٰ ذلك وتشير إليه من اللمس، والقربان، والمباشرة وغيرها، وقد جاء عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ب: الدُّخُولُ، وَالتَّغَشِّي وَالإِفْضَاءُ، وَالْمُبَاشَرَةُ، وَالرَّفَثُ، وَاللَّمْسُ هُوَ: الْجِمَاعُ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَكْنِي بِمَا يَشَاءُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ «أخرجه عبد الرزاق في تفسيره برقم ١٠٨٢٦، كما أخرجه ابن المنذر والبيهقي في سننه. انظر: فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٨٦).

القرآن هي لبُّ كلامِ العرب وزبدتُه، وواسطتُه وكرائمُه، وعليها اعتمادُ الفقهاءِ والحكماءِ في أحكامِهم وحكمِهم، وإليها مفزعُ حذاقِ الشعراء والبلغاءِ في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظِ المتفرعاتِ عنها، والمشتقاتِ منها هو بالإضافةِ إليها كالقشورِ والنوىٰ بالإضافةِ إلىٰ أطايب الثمرة، وكالحثالةِ والتبن بالإضافةِ إلىٰ لبوب الحنطة»[1].

ويقول ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن فخامةِ الكلام وجلالةِ المتكلمِ به أن يُدخلَ في اللفظةِ الواحدةِ جميع ما يصلحُ له، فيدلُّ باللفظِ القصيرِ علىٰ المعاني الكثيرةِ العظيمة، فتجمعُ العمومَ والإيجازَ والاختصارَ والبيانَ وحسنَ الدلالة، فتأتي بالمعنىٰ طبقَ اللفظِ لا يقصرُ عنه ولا يوهم غيرَه، ومن علمَ هذا وتدبَّرَ القرآنَ وصرفَ إليه فكرَه علمَ أنه لم يقرعْ الأسماعَ قط كلامٌ أوجزٌ ولا أفصحُ ولا أشدُّ مطابقةً بين معانيهِ وألفاظهِ منه، وليس يوجدُ في الكتبِ المنزَّلةِ من عندِ اللهِ كتابٌ جمعت ألفاظُه من الإيجازِ والاختصارِ والإحاطةِ بالمعاني الجليلةِ والجزالةِ والعذوبةِ وحسنِ الموقع من الأسماعِ والقلوبِ ما تضمنته ألفاظ القرآن، وقد شهد له بذلك أعداؤه، وسمع بعضُ الأعرابِ قارئا يقرأ ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر٩٤] فسجد، فقيل له: ليست بآيةِ سجود فقال: سجدت لفصاحةِ هذا الكلام»[2].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص:٦).

(٢) الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة (٢/ ٧١٠).

٣- طرق دراسة اللفظة القرآنية:

والألفاظُ القرآنيةُ لقوةِ بلاغتِها، وعمقِ دلالتها؛ تحتاجُ إلىٰ سبرِ أغوارِها لاستخراجِ لآلئها، ولا يكون ذلك إلا بمعرفةِ دلالاتِ الألفاظِ علىٰ وفقِ قواعدِ اللغةِ والسياقِ القرآني، وقد أعتنىٰ العلماءُ بهذا الموضوعَ عنايةً فائقة؛ من دراسةِ المفردةِ في أصلِها من حيث اللغة، وفي استخدامِ القرآن لها حيث أعطاها معانيَ زائدةً لا يستطيعُ أحدٌ أن يعبِّرَ عنها إلا بجملٍ من الكلام، قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْبَدَاءَةُ بِالْعُلُومِ اللَّفْظِيَّةِ، وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ الْبَدَاءَةُ بِهِ مِنْهَا تَحْقِيقُ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ فَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ، ثُمَّ التَّصْرِيفِ، ثُمَّ الِاشْتِقَاقِ، ثُمَّ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا بِحَسَبِ التَّرْكِيبِ، يَبْدَأُ بِالْإِعْرَابِ، ثُمَّ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعَانِي، ثُمَّ الْبَيَانِ، ثُمَّ الْبَدِيعِ، ثُمَّ يُبَيِّنُ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادَ ثُمَّ الاستنباط ثم الإشارات»[(١)].

وفهمُ معاني الألفاظِ وفقِ دلالاتها في اللغةِ، ثم ضبطُ ذلك بمراعاةِ دلالاتِها في السياقِ الذي وردت فيه؛ هو الطريقُ الأولُ الذي سلكَه العلماءُ في استخراجِ الهدايات، والكلمةُ القرآنيةُ لها إشراقاتُها التي يقفُ العقلُ عندهاحائرًا مرتين مرةً عند تأملِها في نفسِها، ومرةً عند النظرِ إليها في دلالاتِها في السياقِ الذي وردت فيه، وصدق الحقُّ إذ يقول: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

وكلما كانت اللفظة أكثر غرابة كانت أكثر عطاء في باب الهدايات[(٢)]،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧٣)، وانظر: الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٢٢٨).

(٢) كالتعبير عن قضاء الحاجة بالغائط (أو جاء أحد منكم من الغائط) الذي هو اسم للمكان المنخفض من الأرض، قال الزركشي: «اسْمٌ لِلْمَكَانِ الْمُنْخَفِضِ مِنَ الْأَرْضِ وَكَانُوا إِذَا =

وكلما استطاع الباحث أن يميِّز بين فروق الألفاظ بانت عنده الهدايات أكثر، فمثلًا متىٰ يعبِّر القرآن بالصراط، ومتىٰ يعبر بالسبيل أو الطريقة، وما الفروق الدلالية بين هذه الألفاظ؛ ولذا الباحث في الهداية لا يكتفي بجزء المعنىٰ، وهو يهتم دائمًا بالفروق اللفظية لما لها من أثر كبير في الهداية المستنبطة.

وكلما تأمل الكلمة في سياقها الموضعي ظهرت له دلالات تختلف عند تدبرها في سياقها القرآني العام عند ما تجمع مع نظيراتها، وكلما نظر الإنسان إلىٰ اللفظة في سياقها الدلالي من خلال الأسلوب الذي رُكبِّت فيه تفجَّرت عنده فيوض الهدايات، مثال ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣] فوصف المرأة بالحرث أعطاها سعة دلالية كبيرة، فالحرث من زينة الحياة الدنيا، وله متعته وجماله ومحبته ومكانته في قلب الإنسان، والمرأة كذلك، وفي جعلها ﴿حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ تأتي معاني الولاية والرعاية والحفظ والحرص عليها لما في الحرث من منافع تترتب عليه، والمرأة كذلك فيها منافع كثيرة للرجل.

وهذا موضوع يطول وتقصر دونه العقول، فاللفظة القرآنية كما هي تتفجَّر بالدلالات، وتتميز كذلك «بإخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنىٰ الذهني المجرد إلىٰ الصورة المحسوسة والمتخيلة: فهو يعبِّر عن المعنىٰ الذهني

= أَرَادُوا قَضَاءَ حَاجَتِهِمْ أَبْعَدُوا عَنِ الْعُيُونِ إِلَىٰ مُنْخَفَضٍ مِنَ الْأَرْضِ» البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٠٤)، فهي اللفظة الغريبة في الاستعمال تعطي دلالات واسعة في باب الهدايات: من آداب قضاء الحاجة الذي ينبغي أن يراعىٰ في الابتعاد والاستتار عن أعين الناس بما يحجب سماع أو شم أو رؤية ما يؤذي، ومراعاة ما يحفظ صحة الإنسان، مع ما فيه من تربية الحياء والعفة في اللفظ والفعل.

بالصورة المحسوسة المتخيلة، فيكون الخطاب أوقع في النفس، وأقوىٰ في التأثير، وأدعىٰ إلىٰ القبول؛ إذ يجعل الحس يتأثر عن طريق الخيال بالصورة ما شاء له التأثر؛ فيستقر المعنىٰ في النهاية في أعماق النفس»[١]، مثال ذلك؛ ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف:١١٧]، فلفظ «تلقف» مع ما فيه من معنىٰ الالتقام والبلع، يصوِّر لك السرعة والشدة والقوة التي انتهىٰ بها هذا المشهد المهيب، فليس بوسع لفظة أخرىٰ أن تقوم في مقامها، لتعطي هذه الصورة المحسوسة، وهي معانٍ مهمة في فهم الهداية وتأثيرها في النفس، قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«أي تلتقم التقامًا حقيقيًا شديدًا سريعًا جدًا بما دل عليه حذف التاء، ودل علىٰ كثرة ما صنعوا»[٢].

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٨]، فلفظ التنفُّس مع الصبح يجعل منه كائنًا حيًّا يتنفس «فتتنفس معه الحياة، وتشرق بإشراقة من ثغره، ويدب النشاط في الأحياء علىٰ وجه الأرض والسماء»[٣].

بل تجتمع دلالات ألفاظ متنوعة لتعطي مع دلالاتها في المعنىٰ صورة مؤثِّرة في النفس فوق ما يتصوره العقل، انظر مثال ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٠]، فهي تريد أن تبيِّن استحالة قبول هؤلاء المستكبرين المعرضين، فجاءت ألفاظ متنوعة ترسم في الذهن صورة محسوسة مؤثِّرة في محاولة ولوج الجمل في سمِّ الخياط.

(١) الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧٠).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ١٢٧).

(٣) الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧١).

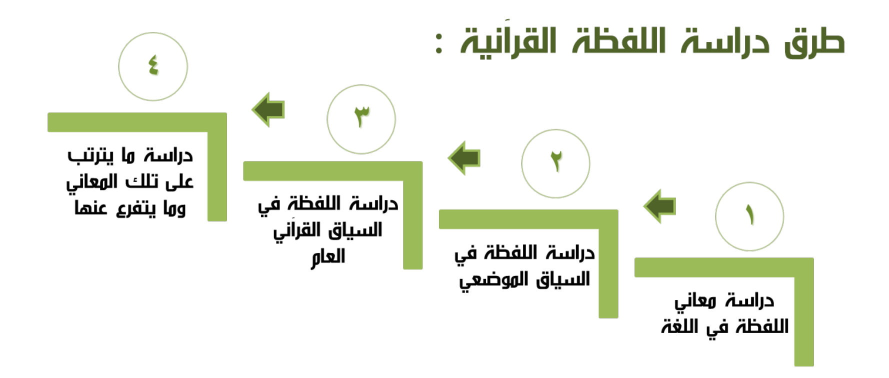
والمفردة القرآنية حتىٰ تأخذ حظَّها في الدراسة والنظر، ينبغي أن تدرس في الخطوات الثلاث الآتية:

الأولىٰ: دراسة أصل الكلمة ومعانيها في اللغة.

والثاني: دراسة معناها في سياق الآية.

والثالثة: دراسة معناها في السياق القرآني العام.

كما ينبغي عند دراسة المفردة القرآنية تذكر القاعدة التي قالها العلماء «المعهود أن ألفاظ القرآن كلها أنَّها تكون دالَّة علىٰ جملة معانٍ»[(١)] ، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر عشرات الأمثلة من القرآن لهذه القاعدة: «فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي يحتوي علىٰ معان كثيرة »[(٢)]. وقال في تفسيره: «إنَّه تعالىٰ يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس»[(٣)].



(١) جلاء الأفهام (١/ ٩٣ - ١٠٠).

(٢) القواعد الحسان (ص:١١٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٦١).

٤) نماذج من دلالة الألفاظ على الهدايات:

١- ألفينا: من قولهِ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة:١٧٠].

فهي لا تدلُّ علىٰ معنىٰ «وجدنا» فحسب؛ بل تدلُّ مع ذلك علىٰ معنىٰ المعايشةِ، وحبِّ التقليد دونَ وعي؛ الذي هو من لوازم الإلفة، مما تنبه في جوانب الهداية أن هؤلاء منعهم من اتباع الحق ما ألفوا عليه آبائهم دون علم وعي وتفكير، مما يتطلب خطابهم خطاباً عقلي يعيد أليهم وعيهم. قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا دلالة علىٰ ذم التقليد، وهو قبول الشيء بلا دليل ولا حجة»[(١)].

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذمهم الله بأنهم أبطلوا ما خص الله به الإنسان من الفكر والروية وركزه فيه من المعارف، وذلك أن الله تعالىٰ ميز الإنسان بالفكر ليعرف به الخير من الشر في الاعتقاد، والصدق من الكذب في المقال، والجميل من القبيح في الفعال، لم يتحر الحق والصدق الجميل، ويتجنب أضدادها، وجعل له من نور العقل ما يستغنىٰ به فيدله علىٰ معرفة مطلوبه، فلما حث الناس علىٰ تناول الحلال الطيب، ونهاهم من متابعة الشيطان بين حال الكفار في تركهم الرشاد واتباعهم الآباء والأجداد، ليحذر من الاقتداء بهم تاركين استعمال الفكر الذي هو صورة الإنسان وحقيقته»[(٢)].

٢- حصحص: من قولهِ تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٢/ ١٠٣).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٦٧).

فلا تفيدُ معنىٰ وضحَ وبانَ فحسب؛ بل تشيرُ إلىٰ ظهورٍ حدثَ علىٰ مضضٍ من بعد حصحصة وعنادٍ وتحدٍّ ممن أخفاه. قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حصحص الحق أي وضح وذلك بانكشاف ما يقهره»[1].

مما يدل أن الحق يظهره الله تعالىٰ مما حاول أهل الباطل إخفاءه، فيطمأن صاحب الحق وليصبر علىٰ ذلك.

٣- مثبورًا: من قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

فقد وردت مرةً واحدةً، وهي لا تدلُّ علىٰ معنىٰ الهلاك فحسب؛ بل فسرت: «بهالكٍ، وملعون، وناقصِ العقلِ، وممنوع»[2]، فهي تفيد نقصان عقل فرعون الذي قاده إلىٰ الهلاك، فتكون كلمة (مثبورا) متضمنةً الدلالةَ علىٰ الغرورِ والغفلةِ وعمىٰ القلب الذي كان عليه فرعون، وهذه صفة متكررة في من يحاربون الله ودينه.

٤- رِكزا: من قوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ [مريم: ٩٨].

وهي وردت مرةً واحدةً في القرآنِ الكريم، فلا تفيدُ معنىٰ الصوتِ فحسب، بل تشمل الصوت الخفي، ولو زفيرًا من نفسٍ بما يقطعُ الطمع في السماعِ، وأن الذين ذهبوا إلىٰ الآخرة انقطعت علاقتهم بالدنيا تماما، فهم كما

(١) مفردات ألفظ القرآن للأصفهاني (١/ ١٢٠).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/ ٣٣٧).

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر»[١]، قال السمين الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرِّكْزُ الصوت الخفي دونَ نطقٍ بحروفٍ ولا فمٍ، ومنه «رَكَزَ الرمحَ»، أي: غَيَّبَ طَرَفَه في الأرضِ وأَخفاه، ومنه الرِّكازُ، وهو المال المدفونُ لخفائِه واستتارِه»[٢].

٥- سلقوكم: من قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب:١٩].

وقد وردت مرةً واحدةً، فلا تفيدُ معنىٰ الأذىٰ فحسب علىٰ من فسَّر السلق بالأذىٰ؛ بل تدلُّ مع الإيذاءِ البالغ بالكلامِ شدة ما يلحقهم من حرارةِ هذا الأذىٰ مبلغـًا عظيما، مأخوذٌ من السلقِ بالماءِ الحار، فكأنَّ كلماتِهم نارٌ تسلقُ المؤمنين، فتعطي من الدلالةِ ما لا تعطيه غيرُها، بحيث تفيد شدة الأذىٰ الذي يلحق المؤمنين دائما من المنافقين، وأن هذه خصة متكررة فيهم. قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السلق بسط بقهر إما باليد أو باللسان، يقال سلق امرأته إذا بسطها فجامعها، والسليقة خبز مرقق وجمعها سلائق، والسليقة أيضا الطبيعة المتباينة، والسلق المطمئن من الارض»[٣].

٦- رهوا: في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ [الدخان:٢٤].

فهي لا تدلُّ علىٰ السكونِ، وعدمِ الاضطرابِ فحسب؛ بل تدلُّ علىٰ

(١) تفسير القرآن للسمعاني (٢/ ٢٨).

(٢) الدر المصون في علم الكتاب المكنون (١٢/ ١١٠).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٤٩٢).

سعةِ ذلك الانفراجِ وغيرِه؛ لأن للعلماءِ أقوالًا كثيرةً في معنىٰ هذه الكلمة، كلُّ قولٍ له دلالاتُه في الهدايةِ؛ من ذلك: ساكنًا غيرُ مضطرب، وقيل: الرهو: الفرجةُ الواسعة، أي: اتركه مفتوحًا علىٰ حاله منفرجًا يبسًا، وقيل: الرهو والرهوة: المكانُ المرتفع، والمنخفضُ أيضا يجتمعُ فيه الماء، وقال ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: الرهو أن يتركَه كما كان[1]، فهي تدلّ علىٰ معانٍ لا يدل عليها غيرها بما تفيد مدىٰ العناية الربانية لموسىٰ ومن معه كيف عبروا ذلك البحر العميق في سكون وسعة ليس فيه ما يقلقهم ويكر صفوهم مع أن المخاطر كانت تحيط بهم.

٧- **المقوين**: في قولهِ تعالىٰ: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧٣].

فهي لا تدلُّ علىٰ المسافرين فحسب، بل تشملهم وغيرهم، وقد وردت للمفسرين أقولاً هي من باب التفسير بالمثال فلا مانع من توظيفها مجتمعة في الهداية ما دام المعنىٰ اللغوي يحتملها، قال الماوردي رَحِمَهُٱللَّهُ: «فيه خمسةُ أقاويل: أحدُها: منفعةٌ للمسافرين قاله الضحاك... الثاني: المستمتعين من حاضرٍ ومسافر، قاله مجاهد. الثالث: للجائعين في إصلاحِ طعامهم، قاله ابن زيد. الرابع: الضعفاءُ والمساكين، مأخوذٌ من قولِهم قد أقوت الدارُ إذا خلت من أهلها، حكاه ابن عيسىٰ. الخامس: أن المقوي الكثيرُ المال، مأخوذٌ من القوة فيستمتع بها الغني والفقير»[2]، فكل معنىٰ في الكلمة له وجهه في الهداية، فهي تفيد عظمة منافع النار للمسافر والمقيم والفقير والغني المترفه وغيرهم.

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري (٢٢/ ٢٨)، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (١٠/ ٦٧٣٤).

(٢) النكت والعيون (٥/ ٤٦١).

٨- حرد: في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم:٢٥].

فهي لا تدلُّ علىٰ القصد التام فقط، وإنما يطلق الحردُ علىٰ القصدِ القوي، والغضبِ، والمنعِ. أي غدوا بسرعةٍ ونشاط، وعلىٰ غضبٍ أي علىٰ الفقراء، من حرِدَ الرجلُ يحْرِدُ حردًا إذا غضب[1]، وعلىٰ المنع من قولهم: حاردت الشاة: إذا منعت لبنَها. وفي دراسةِ الهدايات ينبغي إعمالُ اللفظِ بكلِّ ما يحتمله من معانٍ عند عدمِ التعارض، وعدم منافاة السياق للمعنىٰ وغيرها من الأمور المعتبرة عند العلماء في قبول دلالة المعنىٰ، فهم قد جاءوا بقوة وسرعة، وفي غضبٍ علىٰ الفقراء، مع تصميمِهم علىٰ منعِهم، مما يدل علىٰ جهلهم وحقدهم وسوء نيتهم.

٩-١٠- تفتأ، وحرضا: في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥]. وردتا (تفتأ) مرة واحدة هنا، وهي من أغرب صيغ الأفعال التي تفيد الاستمرار من أخوات (كان)، وهي لا تدل علىٰ الاستمرارية فحسب بل كما قال: «لا تزال تذكره ولا تفتر من محبته»[2]، وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وهو يدلُّ علىٰ معرفتهم الدقيقة بالفوارق اللفظية.

ولفظ (حرضًا) من أغرب ألفاظ الهلاك.. ويعقوب وصل إلىٰ أغرب حالة في الإشفاق عليه، فنحن هنا لا نفسرها بالهلاك ونمضي، وإنما تفسر بغيرها؛ لأن الهلاك ذكر بعد ذلك؛ والتأسيس أولىٰ من التأكيد؛ ولذا قال:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ٢٤٣)، والتحرير والتنوير (٢٩/ ٨٥).

(٢) انظر: الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٥/ ٣٦١٩)، ومفاتيح الغيب (١٨/ ٤٩٩).

«ابن عباس يعني دنفًا، وقال مجاهد الحرض ما دون الموت يعني قريبًا من الموت، وقال ابن إسحاق: يعني فاسدًا لا عقل له، والحرض الذي فسد جسمه وعقله، وقيل ذائبًا من الهم، وأصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهم، ومعنىٰ الآية حتىٰ تكون دنف الجسم مخبول العقل يعني لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والأسف، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ يعني من الأموات»[(١)] فاللفظة جاءت لتبيِّن أنَّه صار قريبًا من الهلاك، ولما كانت تلك الحالة غريبة عبر عنها بلفظة غريبة تجمع كل هذه الحالة الغريبة التي وصل إليها. فهي ألفاظ جاءت لتوصل معانٍ محددة لها دورها في الهداية لا يمكن أن يسدَّ غيرها مسدها؛ ولهذا قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَكِتَابُ اللهِ سبحانه لو نزعت منه لفظة ثم أدير لِسَانُ الْعَرَبِ عَلَىٰ لَفْظَةٍ أَحْسَنَ مِنْهَا لَمْ تُوجَدْ وَنَحْنُ تَتَبَيَّنُ لَنَا الْبَرَاعَةُ فِي أَكْثَرِهِ ويخفي وَجْهُهَا فِي مَوَاضِعَ لِقُصُورِنَا عَنْ مَرْتَبَةِ الْعَرَبِ يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة»[(٢)].

ومن هنا جعل بعضُ العلماءِ البحثَ عن دلالاتِ الألفاظ، هو لبّ علمِ التفسير، قال ابنُ عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالتَّفْسِيرُ فِي الِاصْطِلَاحِ نَقُولُ: هُوَ اسْمٌ لِلْعِلْمِ الْبَاحِثِ عَنْ بَيَانِ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا بِاخْتِصَارٍ أَوْ تَوَسُّعٍ»[(٣)].

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (١٦/ ٢٢٣)، وتفسير القرآن للسمعاني (٣/ ٥٨)، ومعالم التنزيل للبغوي (٢/ ٥٠٩)، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٢/ ٥٥٠).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١١).

ثانيًا: النظرُ في اختلافِ القراءات:

١) أهميةُ القراءاتِ القرآنيةِ:

هي واحدةٌ من إعجازِ هذا الكتابِ المجيد، فهي مع تعددِّها وتنوعِّها يصدّقُ بعضُها بعضًا، ويبيِّن بعضُها بعضًا، ويشهدُ بعضُها لبعضٍ، ليس فيها اختلافُ تضادٍ وتناقض؛ إنما هو اختلاف تنوع وتغاير، تكتنزُ في تنوعها الكثير من المعاني والهدايات؛ ولذا أوجب العلماء قبولها مجتمعة والعمل بها، قال ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل ما صح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك فقد وجب قبوله، ولم يسع أحداً من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وأن كله منزل من عند الله، إذ كل قراءة منها مع الأخرىٰ بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنىٰ علماً وعملاً، ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرىٰ ظناً أن ذلك تعارض»(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمِنْ الْقِرَاءَاتِ مَا يَكُونُ الْمَعْنَىٰ فِيهَا مُتَّفِقًا مِنْ وَجْهٍ، مُتَبَايِنًا مِنْ وَجْهٍ كَقَوْلِهِ : يَخْدَعُونَ وَيُخَادِعُونَ، وَيَكْذِبُونَ وَيُكَذِّبُونَ، وَلَمَسْتُمْ وَلَامَسْتُمْ، وَحَتَّىٰ يَطْهُرْنَ وَيَطَّهَّرْنَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ الَّتِي يَتَغَايَرُ فِيهَا الْمَعْنَىٰ كُلُّهَا حَقٌّ، وَكُلُّ قِرَاءَةٍ مِنْهَا مَعَ الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ بِمَنْزِلَةِ الْآيَةِ مَعَ الْآيَةِ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا كُلِّهَا، وَاتِّبَاعُ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ الْمَعْنَىٰ عِلْمًا وَعَمَلًا، لَا يَجُوزُ تَرْكُ مُوجِبِ إحْدَاهُمَا لِأَجْلِ الْأُخْرَىٰ، ظَنًّا أَنَّ ذَلِكَ تَعَارُضٌ؛ بَلْ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ»(٢)، وقال الزرقاني

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٦٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ٦٨).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«إنَّ تنوعَ القراءاتِ يقومُ مقامَ تعددِ الآياتِ، وذلك ضربٌ من ضروبِ البلاغةِ، يبتدئُ من جمالِ هذا الإيجاز، وينتهي إلىٰ كمالِ الإعجاز. أضف إلىٰ ذلك ما في تنوعِ القراءات من البراهين الساطعة، والأدلةِ القاطعة علىٰ أن القرآنَ كلامُ الله، وعلىٰ صدقِ من جاء به، وهو رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن هذه الاختلافاتِ في القراءةِ علىٰ كثرتِها لا تؤدي إلىٰ تناقضٍ في المقروءِ وتضاد، ولا إلىٰ تهافتٍ وتخاذل؛ بل القرآنُ كلُّه علىٰ تنوعِ قراءاته يصدقُ بعضُه بعضا، ويبين بعضه بعضا، ويشهد بعضُه لبعض علىٰ نمطٍ واحد في علُوِّ الأسلوبِ والتعبير، وهدفٍ واحد من سموِّ الهداية والتعليم»[(١)]، ومن هنا كان لابد للباحثِ في الهداياتِ أن يكونَ ملِمًّا بأوجهِ القراءاتِ المتنوعة في الآية، ويسعىٰ لتوظيفِ ذلك في استخراجِ هدايات الآية، فهو علمٌ لا يجوز الجهل به عند من يريد بيان المعاني والهدايات من الآية؛ لأن الهداية المرادة لا تكتمل إلا بمعرفتها. قال الدمياطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«ولم تزل العلماء تستنبط من كل حرف يقرأ به قاريء معنىٰ لا يوجد في قراءة الآخر والقراءة حجة الفقهاء في الاستنباط ومحجتهم في الاهتداء مع ما فيه من التسهيل علىٰ الأمة»[(٢)].

٢) أقسام القراءات:

وهي تنقسمُ إلىٰ نوعين:

القسمُ الأول: اختلافٌ في الأداءِ الصوتي: كالاختلافِ في الإمالاتِ وتسهيلِ الهمزات أو تحقيقِها أو الإدغامِ ونحو ذلك، وهذا لا أثرَ له في

(١) مناهل العرفان (١/ ١٢٧).

(٢) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٣).

الدلالاتِ علىٰ المعاني والهداياتِ غالبًا، فإن كل ما كان من قبيل اختلاف الأصول فليس فيه تعدد المعاني.

والقسمُ الثاني: اختلافٌ له أثرُه في دلالة المعاني والهدايات: وهو ما كان من قبيل فرش الحروف، وهو الذي يكون فيه الهداية، وهو باتفاقِ العلماء أحدُ طرقِ استخراج الهداياتِ، وكلُّ قراءةٍ منها تحملُ هدايةً جديدةً لا تتناقضُ مع القراءةِ الأخرىٰ؛ ولذلك قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَرَىٰ أَنَّ لِلْقِرَاءَاتِ حالتين إِحْدَاهما لَا تَعَلُّقَ لَهَا بِالتَّفْسِيرِ بِحَالٍ، وَالثَّانِيَةُ لَهَا تَعَلُّقٌ بِهِ مِنْ جِهَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ.

أَمَّا الْحَالَةُ الْأُولَىٰ: فَهِيَ اخْتِلَافُ الْقُرَّاءِ فِي وُجُوهِ النُّطْقِ بِالْحُرُوفِ وَالْحَرَكَاتِ كَمَقَادِيرِ الْمَدِّ وَالإِمَالَاتِ وَالتَّخْفِيفِ وَالتَّسْهِيلِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْجَهْرِ وَالْهَمْسِ وَالْغُنَّةِ...

وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ اخْتِلَافُ الْقُرَّاءِ فِي حُرُوفِ الْكَلِمَاتِ مِثْلَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الْفَاتِحَة:٤] و﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، و﴿نُنشِزُهَا﴾ و﴿نُنْشِرُها﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٩]، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [يُوسُف:١١٠] بِتَخْفِيفِ الذَّالِ أَوْ بتشْدِيدِه (قد كذّبوا).

وَكَذَلِكَ اخْتِلَافُ الْحَرَكَاتِ الَّذِي يَخْتَلِفُ مَعَهُ مَعْنَىٰ الْفِعْلِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]، قَرَأَ نَافِعٌ بِضَمِّ الصَّادِ وَقَرَأَ حَمْزَةُ بِكَسْرِ الصَّادِ، فَالْأُولَىٰ بِمَعْنَىٰ يَصُدُّونَ غَيْرَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنَىٰ صُدُودِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ حَاصِلٌ مِنْهُمْ.

وَهِيَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَهَا مَزِيدُ تَعَلُّقٍ بِالتَّفْسِيرِ لِأَنَّ ثُبُوتَ أَحَدِ اللَّفْظَيْنِ فِي قِرَاءَةٍ قَدْ يُبَيِّنُ الْمُرَادَ مِنْ نَظِيرِهِ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ، أَوْ يُثِيرُ مَعْنًىٰ غَيْرَهُ،

وَلِأَنَّ اخْتِلَافَ الْقِرَاءَاتِ فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ يُكْثِرُ الْمَعَانِيَ فِي الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ نَحْوَ: ﴿حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾ [الْبَقَرَة:٢٢٢] بِفَتْحِ الطَّاءِ الْمُشَدَّدَةِ وَالْهَاءِ الْمُشَدَّدَةِ، وَبِسُكُونِ الطَّاءِ وَضَمِّ الْهَاءِ مُخَفَّفَةً، وَنَحْوَ ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النِّسَاء: ٤٣] و(لمستم النساء)، وَقِرَاءَةِ (وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثًا) مَعَ قِرَاءَةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وَالظَّنُّ أَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ بِالْوَجْهَيْنِ وَأَكْثَرَ، تَكْثِيرًا لِلْمَعَانِي إِذَا جَزَمْنَا بِأَنَّ جَمِيعَ الْوُجُوهِ فِي الْقِرَاءَاتِ الْمَشْهُورَةِ هِيَ مَأْثُورَةٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَىٰ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَجِيءُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَا يَحْتَمِلُ تِلْكَ الْوُجُوهِ مُرَادًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ لِيَقْرَأَ الْقُرَّاءُ بِوُجُوهٍ فَتَكْثُرَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ الْمَعَانِي، فَيَكُونُ وُجُودُ الْوَجْهَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي مُخْتَلِفِ الْقِرَاءَاتِ مُجْزِئًا عَنْ آيَتَيْنِ فَأَكْثَرَ، وَهَذَا نَظِيرُ التَّضْمِينِ فِي اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ، وَنَظِيرُ التَّوْرِيَةِ وَالتَّوْجِيهِ فِي الْبَدِيعِ، وَنَظِيرُ مُسْتَتْبَعَاتِ التَّرَاكِيبِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي، وَهُوَ من زِيَادَة ملاءمة بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، وَلِذَلِكَ كَانَ اخْتِلَافُ الْقُرَّاءِ فِي اللَّفْظِ الْوَاحِدِ مِنَ الْقُرْآنِ، قَدْ يَكُونُ مَعَهُ اخْتِلَافُ الْمَعْنَىٰ، وَلَمْ يَكُنْ حَمْلُ أَحَدِ الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ مُتَعَيِّنًا وَلَا مُرَجَّحًا... وقال: «وَأَنَا أَرَىٰ أَنَّ عَلَىٰ الْمُفَسِّرِ أَنْ يُبَيِّنَ اخْتِلَافَ الْقِرَاءَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ؛ لِأَنَّ فِي اخْتِلَافِهَا تَوْفِيرًا لِمَعَانِي الْآيَةِ غَالِبًا فَيَقُومُ تَعَدُّدُ الْقِرَاءَاتِ مَقَامَ تَعَدُّدِ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ»[1].

٣) نماذج من دلالة القراءات على الهدايات:

القراءات القرآنية التي لها أثر في دلالة المعنىٰ تتباين وتختلف فيما بينها في عدة أوجه من ذلك:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٦).

المثال الأول: الاختلاف في حروف الكلمة:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]، قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر وخلف العاشر ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ورويس، ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء[(١)].

فالآية جاءت في الدفاع عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان مكانته، فقراءة الضاد ﴿بِضَنِينٍ﴾: نفت عنه تهمة البخل بما يأتيه من قبل ربه، اسم فاعل من ضن بخل، أي معناها: ما هو علىٰ الغيب ببخيل، «يقول لا يبخل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما آتاه الله من العلم والقرآن؛ ولكن يرشد ويعلم ويؤدي عن الله جل وعز»[(٢)].

أما القراءة بالظاء (بِظَنِينٍ): فمن الظِّنَّة، وهي التهمة، يقال: ظَنَنْتُهُ أي أتّهمته، أي: ما هو علىٰ الغيب بمتهم؛ بل هو الثقة فيما يخبر به عن الله[(٣)]. قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن قرأ (بِظَنِينٍ) فمعناه: ما هو علىٰ الغيب بمتهم، وهو الثقة فيما أدّاه عن الله جل وعز، يقال: ظننت زيدًا، في معنىٰ اتهمت زيدًا، ومن قرأ ﴿بِضَنِينٍ﴾ فمعناه: ما هو علىٰ الغيب ببخيل، أي: هو يؤدي عن الله ويُعَلِّمُ كتاب الله»[(٤)].

ومثله في اختلاف الحروف: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة:٢٥٩].

---

(١) التيسير في القراءات السبع لأبي عمر الداني (ص:١٧١)، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/ ٢٩٩)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص:٧٦٨).

(٢) حجة القراءات لعبدالرحمن بن زنجلة(ص:٧٥٢).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦١-١٦٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٥/ ٢٩٣).

«قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالزاي المنقوطة (نُنْشِزُها) من النشز، وهو الارتفاع، أي يرتفع بعضها علىٰ بعض للتركيب، وافقهم الأعمش، والباقون بالراء المهملة (نُنْشِرُها) من أنشر الله الموتىٰ أحياهم ومنه إذا شاء أنشره»(١).

ولما كانت الآية في بيان الاعتبار واليقين بقدرة الله تعالىٰ جاءت أوجه القراءات لتبين كيف رفع الله تلك العظام وركَّبها وألفها علىٰ بعضها وهو ينظر إليها، في قراءة ننشزها بالزاي أي نرفعها، ثم كيف كساها لحما، ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ وإلىٰ هنا فهي غير حية، ثم إضافة القراءة الأخرىٰ كيف نفخ فيها الروح علىٰ قراءة ننشرها لتعود حيَّة(٢) حتىٰ يحصل له البيان الكامل، والاعتبار التام عن قدرة الله تعالىٰ، ولهذا ختمت الآية بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

المثال الثاني: الاختلاف في حركة إعراب الكلمة:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء:١٠٢].

قرأ الكسائي (لقد علمتُ)، بضم التاء، والباقون بفتحها (عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(٣).

---

(١) التيسير في القراءات السبع لأبي عمر الداني (ص:٦٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ١٧٥)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٢٠٨).

(٢) انظر: حجة القراءات لعبدالرحمن بن زنجلة (ص: ١٤٤).

(٣) التيسير في القراءات السبع (ص: ٩٨).

وقد علم موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وعلم فرعون اللعين، فقد كان الأمران جميعًا، فجمع الله تعالىٰ بين الأمرين جميعًا في آية واحدة[1]. فهي تفيد علم فرعون بالحق ولكنه كفر كفر جحود كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

ومثله: ما جاء في قوله تعالىٰ في سورة البروج ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾. «قرأ حمزة والكسائي، وخلف العاشر (ذو العرش المجيدِ) بخفض الدال، علىٰ أنه صفةٌ للعرش، والباقون برفعها ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ علىٰ أنه صفةٌ لذو العرش»[2].

فقراءة الخفض تفيد إثباتَ العرشِ لله تعالىٰ مع بيانِ عظمتهِ، وقد وصفَ اللهُ عرشَه في كتابهِ بالعظمةِ، فقال: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] الذي من عظمتهِ أنَّه وسعَ السماواتِ والأرضَ والكرسي، فالسماواتُ السبعُ والأرضون السبع في الكرسي الذي بين يديهِ كحلقةٍ ملقاةٍ في أرضِ فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقةِ في الفلاة.

وعلىٰ قراءة الضم التي هي صفة للرب تفيد عظمة الرحمنِ صاحبِ العرشِ العظيمِ العالي علىٰ جميعِ خلقه لأن المجيدَ يكون نعتًا لله، وهو حقٌّ ذو المجد لما له من صفاتِ التعالي والجلالِ وكمالِ القدرةِ والحكمةِ والعلم، فالمجيدُ متضمنٌ لكثرةِ صفاتِ كمالهِ وسعتِها وعدمِ إحصاءِ الخلق لها، وسعةِ أفعالهِ وكثرةِ خيره ودوامه، فالمجدُ في لغةِ العربِ كثرةُ أوصافِ

(١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (١٠/ ٨٣).

(٢) التيسير في القراءات السبع (ص:١٣٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٥٧٨)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٣٨١).

الكمالِ، وكثرةُ أفعالِ الخير[١]، فهو المجيدُ العظيمُ الواسعُ القادرُ الغني ذو الجلالِ والإكرام. قال ابن جرير: «اختلفت القرّاء في قراءة قوله: (الْمَجِيدُ) فقرأته عامة قرّاء المدينة ومكة والبصرة وبعض الكوفيين رفعًا، ردًّا علىٰ قوله: (ذُو الْعَرْشِ) علىٰ أنه من صفة الله تعالىٰ ذكره. وقرأ ذلك عامه قرّاء الكوفة خفضًا، علىٰ أنه من صفة العرش» [٢]، وقال السعدي: «﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلىٰ العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالىٰ، وهذا علىٰ قراءة الجر، يكون ﴿المجيد﴾ نعتا للعرش، وأما علىٰ قراءة الرفع، فإن المجيد نعت لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها»[٣].

المثال الثالث: الاختلاف في تصريف الكلمة:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ:١٩].

«قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بنصب (ربنا) علىٰ النداء، و(بعِّد) بكسر العين المشددة بلا ألف، وعليه صريح الرسم فعل طلب اجتراء منهم وبطرًا، وافقهم ابن محيصن واليزيدي، وقرأ يعقوب (ربُّنا) بضم الباء علىٰ الابتداء و(باعَدَ) بالألف وفتح العين والدال، خبر علىٰ أنه شكوىٰ منهم لبعد سفرهم إفراطًا في الترفُّه وعدم الاعتداد بما أنعم الله به عليهم، والباقون (ربنا) بالنصب (باعِدْ) بالألف وكسر العين وسكون الدال، وعلىٰ هذه كالأولىٰ فبين

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٦٨٢)، و﴿تفسير أسماء الله الحُسْنَىٰ﴾ للزجَّاج (ص:٥٣).

(٢) جامع البيان (٢٤/ ٣٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩١٩).

مفعول به لأنهما فعلان متعديان وليس ظرفًا»[١].

فعلىٰ قراءة عامة قرَّاء المدينة والكوفة، دعاء منهم، ويفيد أنهم بطروا النعمة وملوا منها، وجهلوا مقدارها، وتَمَنَّوْا طُولَ الْأَسْفَارِ وَالْكَدْحَ فِي الْمَعِيشَةِ، فالإنسان إذا بطر النعمة، ودعا علىٰ نفسه بالشر قد يكون ذلك من أسباب تعجيل العقوبة. ومثله قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (بَعِّدْ) بتشديد العين علىٰ الدعاء والسؤال أيضًا من (التبعيد) قال النَّحَّاسُ: وَبَاعِدْ وَبَعِّدْ وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَىٰ، كَمَا تَقُولُ: قَارِبْ وقرب، وهي رواية هشام عن قرّاء الشام.

وعلىٰ قراءة يعقوب: رَبُّنا- برفع الباء- باعَدَ- بفتح الباء والعين والدال- علىٰ الخبر أن الله فعل بهم ذلك، وعجل لهم ربهم الإجابة[٢].

وقد كان الأمران جميعًا قد وقعا (الدعاء والإخبار) فجاءت القراءات لتوضِّح كل ذلك، فلا ينبغي الاكتفاء بقراءة دون أخرىٰ.

ومثله: قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قرأ ابن كثير وأبو جعفر، ويعقوب، ونافع، وأبو عمر (تَعْلَمُون)، بفتح التاء واللام مخففة وإسكان العين، وقرأ باقي العشرة(تُعَلِّمُون)، بضم التاء

---

(١) انظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٢)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٦٤٠).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٠/ ٣٨٩)، والكشف والبيان عن تفسير القرآن (٨/ ٨٥)، ومفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٠٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٩٠).

وفتح العين وكسر اللام مشددة(١).

فأفاده القراءة الأولىٰ علمهم بما جاء في الكتاب، والقراءة الثانية أن من صفات الربانيين كذلك تعليمهم للكتاب. فهي كما تفيد أن من صفات العالم الرباني العلم بما أنزله تعالىٰ، وبه يتميز العالم، وبه يكون العالم ربانيًا، فكذلك تحث علىٰ التعليم وأن من صفات العالم الرباني أن يدعو الخلق إلىٰ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ بالقول والفعل ويعلمهم الكتاب المنزل من عند الله.

ومثله: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، «قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ بِضَمِّ الْقَافِ وكسر التاء من غير الف (قُتِل)، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بالألف وفتح القاف والتاء «قَاتَلَ»»(٢).

فلمَّا كان مقصد الآية تشجيع المؤمنين بالاقتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء، تنوعت القراءة هنا، وهذا التنوع شمل جميع الأوجه المحتملة، وهي:

الأول: تشجيع المؤمنين حالة قتل نبيهم علىٰ الثبات وعدم الارتداد، والوقف هنا يكون علىٰ قتل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) التيسير في القراءات السبع ٠ص: ٦٧)، والنشر في القراءات العشر(٢/ ٢٤٠).

(٢) التيسير في القراءات السبع (ص:٧٠)، ومعالم التنزيل، البغوي (٢/ ١١٦).

والثاني: تشجيع لمن بقي من المؤمنين بعد قتل نبيهم وبعض من كان معه من المؤمنين حتىٰ لا يصيبهم الوهن والضعف، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه وجهان: «أحدهما: أن يكون «قتل» واقعًا علىٰ النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله «قتل» ويكون في الكلام إضمار، أي: ومعه ربيون كثير ... الوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون وجه الكلام قتل بعض من كان معه ويكون قوله «فما وهنوا» راجعًا إلىٰ من بقي منهم»(١).

والثالث: وهو تشجيع للمؤمنين عند قتالهم مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قراءة الكوفيين وابن عامر» قاتل».

المثال الرابع: الاختلاف في الكلمات:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة:٢١٩].

فقرأ حمزة والكسائي: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالثاء المثلثة، وقرأ الباقون بالباء الموحدة: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالباء(٢).

فمعنىٰ قراءة: (إِثْمٌ كَثِيرٌ): من الكثرة، وذلك لأن شرب الخمر يحدث معه آثام كثيرة، من لغط، وتخليط، وسب، وأيمان، وعداوة، وخيانة، وتفريط في الفرائض، وغير ذلك، فوصف بالكثرة. يقول أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووصف الإثم بالكثرة، إما باعتبار الآثمين، فكأنه قيل: فيه للناس آثام، أي: لكل

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ٢٢٩).

(٢) التيسير في القراءات السبع، لأبي عمر الداني(ص:٨٠)، والنشر في القراءات العشر(٢/ ١٧١).

واحد من متعاطيها إثم، أو باعتبار ما يترتب علىٰ شربها، من توالي العقاب، وتضعيفه، فناسب أن ينعت بالكثرة، أو باعتبار ما يترتب علىٰ شربها، مما يصدر من شاربها من الأفعال والأقوال المحرمة، أو باعتبار من زاولها من لدن كانت إلىٰ أن بيعت وشُرِبَتْ، فقد لعن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخمر، ولعن معها عشرة: بائعها، ومبتاعها، والمشتراة له، وعاصرها، ومعتصرها، والمعصورة له، وساقيها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة له، وآكل ثمنها، فناسب وصف الإثم بالكثرة بهذا الاعتبار»[١].

أما معنىٰ قراءة: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾: فهو من الكبر والعظم، أي: فيها إثم عظيم؛ لأنَّ شرب الخمر والميسر من الكبائر. وفي هذا يقول الزجَّاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما الإثم الكبير الذي في الخمر فبين، لأنها توقع العداوة والبغضاء، وتحول بين المرء وعقله الذي يميز به، ويعرف ما يجب لخالقه»[٢].

المثال الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، «قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر: «فَيَقْتَلُونَ» بتقديم المفعول علىٰ الفاعل، وقرأ الباقون بتقديم الفاعل علىٰ المفعول»[٣]، قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان أثر ذلك في دلالة المعنىٰ: «وقوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٢/ ٤٠٥).

(٢) معاني القرآن (١/ ٢٩٢).

(٣) انظر: التيسير في القراءات السبع لأبو عمرو الداني (ص:٧١)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٣٣٠).

تفريع علىٰ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾؛ لأنَّ حال المقاتل لا تخلو من أحد هذين الأمرين . وقرأ الجمهور ﴿فَيَقۡتُلُونَ﴾ بصيغة المبني للفاعل وما بعده بصيغة المبني للمفعول . وقرأ حمزة والكسائي بالعكس. وفي قراءة الجمهور اهتمام بجهادهم بقتل العدو، وفي القراءة الأخرىٰ اهتمام بسبب الشهادة التي هي أدخل في استحقاق الجنة»(١).

المثال الساس: الاختلاف بالزيادة والنقص:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، «قرأ ابن كثير بمن الجارة وخفض (تحتها) لها كسائر المواضع، وافقه ابن محيصن والباقون بحذف من وفتح تحتها علىٰ المفعولية فيه»(٢). فمن قرأ تجري تحتها الأنهار تدلُّ علىٰ أن نبع الماء يأتي من بعيد ويمر من تحتها، وهذه لها صورة جمالية خلابَّة علىٰ النفس، ومن قرأ ﴿تَجۡرِي تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فيها مزيد اطمئنان علىٰ النفس أن منبعه لن يحجزه أحد «فكأنَّ الأنهار تنبع تحتها.. حتىٰ لا يخاف إنسان من أنَّ الماء الذي يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف.. وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أنَّ نعيم الجنة باق وخالد»(٣)، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يحتمل أن يكون صلة معناه تجري تحتها الأنهار ، ويحتمل أن يكون

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٩).

(٢) التيسير في القراءات للسبع(ص:٩٠)،وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص: ٣٠٦).

(٣) تفسير الشعراوي (ص: ٢٩٤).

المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر ، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال من عين كذا من تحت جبل كذا»[١] ، وقال الشربيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هي كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ماء يجري منه نهر»[٢]، وغيرها من نماذج كثيرة موجودة في كتب القراءات وتوجيهها.

المثال السابع: الاختلاف في الأفراد والجمع:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤].

قرأ نافع وابن ذكوان وابن عامر (مساكين) بالجمع، وقرأ الباقون بالإفراد[٣].

قال العلماء قراءة الإفراد افادة الحكم في اليوم، وافادة بالجمع قال أن علىٰ كل واحد طعام مسكين[٤] ، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أبو عبيد : فبينت أن لكل يوم إطعام واحد ، فالواحد مترجم عن الجميع ، وليس الجميع بمترجم عن واحد. وجمع المساكين لا يدري كم منهم في اليوم إلا من غير الآية. وتخرج قراءة الجمع في «مساكين» لما كان الذين يطيقونه جمع وكل واحد منهم يلزمه مسكين فجمع لفظه ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور : ٤] أي اجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة ، فليست الثمانون متفرقة في جميعهم، بل لكل واحد ثمانون، قال معناه أبو عليّ. واختار قراءة الجمع النحاس قال:

(١) مفاتيح الغيب (١٤/ ٩١).
(٢) السراج المنير لمحمد الشربيني (١/ ٥٠٩).
(٣) التيسير في القراءات السبع (ص:٦٠)، النشر في القراءات العشر(٢/ .
(٤) انظر: زاد المسير في علم التفسير لعبدالرحمن الجوزي (١/ ١٨٦).

وما اختاره أبو عبيد مردود ، لأن هذا إنما يعرف بالدلالة ، فقد علم أن معنىٰ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أن لكل يوم مسكينا ، فاختيار هذه القراءة لترد جمعا علىٰ جمع»[1] .

ومثله: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧، ٨].

قرأ حمزة والكسائي وخلف بنون الجمع (نَأكل منها)، وقرأ الباقون بالياء (يأكل منها)[2].

فقراءة الجمع تبين أنهم يريدون هم كذلك أن يأكلوا منها، بما يفيد عقليتهم المادية المسيطرة علىٰ تفكيرهم المانعة لهم عن الإيمان.

أهمية القراءات القرآنية.

↓

أقسام القراءات.

↓

نماذج من دلالة الاختلاف في القراءات.

حروف الكلمة	حركة الإعراب	تصريف الكلمة	اختلاف الكلمات	التقديم والتأخير	الزيادة والنقص	الإفراد والجمع

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٨٧).

(٢) التيسير في القراءات السبع (ص:١٢٥)، والنشر في القراءات العشر(٢/ ٢٥٠).

ثالثًا: النظر في رسم المصحف:

١) رسم المصحف توقيفي:

رسمُ المصحف هو: الرسمُ المخصوصُ الذي كتبت به حروفُ القرآنِ وكلماتُه أثناءَ كتابةِ القرآنِ الكريم بين يدي النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن خلالِ الجمعِ الذي تمَّ له في عهدِ أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صحائفٍ، والنسخِ الذي تمَّ في عهدِ عثمانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في المصاحفِ(١).

فالذي يراجع تاريخ المصحف يجد أن أصل كتابة القرآن تمت في عهد النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث اتخذ عدداً من كتاب الوحي لتدوين ما يتنزل عليه من القرآن الكريم بين يديه وبأمره وإملائه، محدداً لهم موضع الآيات في سورها؛ كما جاء في الحديث (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ تَنزِلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْض مَنْ كَانَ يَكْتُبُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَؤُلاءِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا . وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَيَقُولُ : ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا)(٢)، وكان اهتمام النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتابة الآيات بارزاً فور نزولها كما جاء عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَال: (لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٥]، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :(ادْعُ لِي زَيْدًا وَلْيَجِئْ بِاللَّوْحِ وَالدَّوَاةِ وَالْكَتِفِ أَوْ الْكَتِفِ وَالدَّوَاةِ ثُمَّ قَالَ : اكْتُبْ نَزَلَتْ

---

(١) مجلة البحوث والدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف، العدد الثاني، السنة الأولىٰ رجب ١٤٢٧هـ، بحث: مزايا الرسم العثماني وفوائده، للدكتور طه عابدين طه.

(٢) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٠١١ ، وقال حديث حسن صحيح ، وأحمد في المسند ح رقم ٣٧٦.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ وَخَلْفَ ظَهْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْرُو بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَىٰ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا تَأْمُرُنِي فَإِنِّي رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ فَنَزَلَتْ مَكَانَهَا: نَزَلَتْ ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾)[١].

وقد توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن كله كتب بكل دقة وضبط بين يديه ؛ لأن كتاب الوحي كانوا يعرضون ما يكتبونه علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقرهم عليه ، فقد روىٰ عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قوله : كنت أكتب الوحي عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُملي عليّ ،فإذا فرغت قال:(اقرأ، فأقرأه، فإذا كان فيه سقطٌ أقامه ثم أخرج به إلي الناس)[٢]، ولو كان في المكتوب أدنىٰ ملاحظة لأخبر الله عزوجل نبيه الكريم بذلك ، وهذا لا يمنع من وجود رسم آخر لم يكتب بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن تعلموا وكتبوا بين يديه، ولذا لم يعتمد زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جمعه إلا علىٰ عين ما كتب بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وفي تأكيد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكتابة القرآن بين يديه مزيد حفظ وعناية لأصل الرسالة علىٰ أدق وأكمل وجه إذ الكتابة لا يتطرق إليها الشك والنسيان؛

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب كاتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ح رقم ٤٦٠٦ ، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين ح رقم ٣٥١٦.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير(٥/ ١٤٢)، ح رقم ٤٨٨٨، وفي المعجم الأوسط(٢/ ٥٧) ح رقم ١٩١٣، بسند رجاله موثوقون، وقد عنىٰ بتصحيحه عدد من أهل العلم منهم محمد بهجت الأثري، والسيد محمود شكري الألوسي، انظر: وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله إلىٰ أمته للأستاذ الدكتور محمد حسن حسن جبل (ص: ١٦٩) ، ود . غانم قدوري الحمد ذكره بسنده في كتابه رسم المصاحف(ص: ٨٠).

ولأنَّ زيادة حرف أو نقصانه قد يغير المعنىٰ تماماً؛ كما في ذلك إظهار لسنية الكتابة في المحافظة علىٰ القرآن الكريم، ويظهر لي كذلك ليكتب بصورة تحمل الكثير من أوجه الإعجاز وتتحمل أوجه القراءات؛ وهي خاصية لا تتوفر في أي طريقة أخرىٰ إذا كتب بها ، وليبقىٰ ما رسم بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرجعاً للأمة لا تختلف بعده في رسم القرآن الذي أحكم بهذا العمل رسماً ولفظاً. والله أعلم.

والجمع الذي تم في عهد أبي الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن سوىٰ جمع ذلك المكتوب في صحائف في مكان واحد لعين ما كتب بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك النسخ الذي تم في عهد عثمان هو عين ما تم في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونسبَ لعثمانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس لابتكاره إيَّاه، أو لمخالفته الرسم الذي تم بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنَّما يرجع سبب هذه النسبة للآتي:

أ/ أنَّ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي نقل هذا الرسم ونسخه في المصاحف التي أمر بنسخها من الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهي عين ما كتب بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعممها علىٰ الناس في الأمصار وألزمهم بها، وأمرهم أن يحرقوا ما سواها ، فعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي عمم هذا الرسم النبوي وألزم الناس به، وأزال كل رسم يخالفه.

ب/ أنَّ الطريقة التي كتبت بها المصاحف العثمانية لكي تكون شاملة لكل ما ثبت رسمه بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحمل جميع القراءات الثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءت مبتكرة؛ إذ كتبت عدة مصاحف ووزع رسم بعض الكلمات القرآنية التي تحتمل أكثر من قراءة عليها، فالمراد بالرسم

العثماني بصورة دقيقة: طريقة توزيع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسم النبوي على المصاحف بحيث تتحمل كل القراءات القرآنية المتواترة، فهذه الطريقة التي تخالفت بها المصاحف العثمانية في بعض رسومها لكي تشمل الرسم النبوي بأوجه قراءاته المتواترة هي التي من وضع عثمان وابتكاره(١).

ج/ أنَّ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما هو مذهب جمهور العلماء من السلف والخلف جمع الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، وهو قراءة العامة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد نزل عليه عامة القرآن، ودون به، فألزمهم عثمان بالرسم الذي كتب به عامة القرآن في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترك لهم رخصة القراءة بغيره بما يوافق الرسم، ومن هنا تعددت أوجه القراءات و أصبح من الصعب نسبة قراءة واحدة للغة من لغات العرب ، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلما رأى الصحابة أنَّ الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد، اجتمعوا على ذلك اجتماعًا سائغًا، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن في ذلك ترك واجب ولا فعل محظور »(٢)، وقد أبقى لهم القراءة ببقية الأحرف السبعة بما يتوافق مع الرسم، قال مكي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمصحف كتب على حرف واحد وخطه محتمل لأكثر من حرف؛ إذ لم يكن منقوطًا ولا مضبوطًا؛ فذلك الاحتمال الذي احتمل الخط هو من الستة الأحرف الباقية»(٣).

---

(١) انظر: رسم المصحف ونقطه ، للدكتور: عبد الحي حسين الفرماوي (ص: ١١٥– ١٢٠)، والجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم ، للدكتور : لبيب السعيد (ص:٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيميّة (١٣ / ٣٦٧ ٣٩٧).

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٩/ ٢٤ ، ٢٥).

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المصحف الذي استقر عليه الأمر هو آخر العرضات علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأمر عثمان بنسخه في المصاحف، وجمع الناس عليه، وأذهب ما سوىٰ ذلك قطعًا لمادة الخلاف، وصار ما يخالف خط المصحف في حكم المنسوخ والمرفوع كسائر ما نسخ ورفع، فليس لأحد أن يعدو في اللفظ ما هو خارج عن الرسم »[(١)]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد رأيه بل القراءة سنة متبعة » ، ثم قال : «وسبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه ذلك لهم ؛ إذ مرجع ذلك إلىٰ السنة والاتباع لا إلىٰ الرأي والابتداع »[(٢)].

٢) مزايا رسمِ المصحف:

وللرسمِ مزايا كثيرةٌ تشهدُ بسنيَّتِهِ التقريرية، وتدعو للتمسكِ به؛ من ذلك: الدلالةُ علىٰ أوجهِ القراءاتِ المتعددة؛ وذلك لأنَّ رسم المصحف روعي فيه تحمله لأوجه القراءات المتعددة، وإثباتِ اتصالِ سندِ القرآنِ خطًّا ونطقًا بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدلالةِ علىٰ بعضِ لغاتِ العرب التي نزلَ عليها القرآن، وعلىٰ أصلِ الحركة، وأصلِ الحرف، والدلالةِ علىٰ بعضِ المعاني والهداياتِ الدقيقة، وتوحيدِ الأمةِ علىٰ طريقةٍ واحدةٍ في رسمِ القرآن، مع إدراكِ سعةِ علمِ الصحابة، وفوق ذلك إدراكُ عظمةِ هذا الكتاب وعمقِ أسراره[(٣)].

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي(٤/ ٢٢٥ ، ٢٢٦)، وانظر: فتح الباري(٩/ ٣٩)، والمرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي (ص:١٤٤،١٤٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ(١٣/ ٣٩٩).

(٣) نظر: بحثي المنشور في مجلة البحوث والدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة

ومن هنا كانت مخالفةُ بعضِه للكتابةِ الإملائيةِ أمرًا مقصودًا وعلمًا راسخًا محققًا، يحوي الكثيرَ من الحكمِ الدقيقة، والعللِ اللطيفة؛ ولكن هذه الحكمُ لم ينص عليها؛ ومن هنا اجتهدَ العلماءُ في بيانِها، وحاولوا الكشفَ عن أسرارِها؛ فمنها ما غابَ عن العلماءِ سببُه وقصرُ دونه علمهم، ومنها ما فتحَ اللهُ عليهم ببعضِهِ؛ وكشفوا من خلالهِ عن أسرارِ هذا الرسمِ وخفاياه، وظلَّ بعضُها غامضًا في أذهانِ الكثيرين من طلبةِ العلمِ فضلًا عن غيرِهم، ومن هنا حاولَ بعضُ العلماءِ أن يستنبطوا جملًا من الهداياتِ من خلالِ التأملِ في دلائلِ رسمِ القرآنِ الكريم، سواءً في كتابةِ بعضِ الكلمات، أو الكلمةِ الواحدةِ التي اختلفَ رسمُها من موضعٍ لآخر، وجعلوه ضمنَ الطرقِ التي توصلُ إلي هداياتِ بعضِ الآيات. كما نقلَ ابنَ المباركِ عن شيخهِ عبد العزيزِ الدباغ - رحمهما الله - أنَّه قال له عن هذا الرسمِ بأنه: «من النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وهو الذي أمرَهم أن يكتبوه علىٰ الهيئةِ المعروفةِ بزيادةِ الألفِ أو نقصانِها؛ لأسرارٍ لا تهتدي إليها العقول، وهو سرٌّ من أسرارِ هذا الكتابِ العزيزِ دون سائرِ الكتبِ السماوية، وكما أنَّ نظمَ القرآنِ معجزٌ، فرسمُه أيضًا معجز. فكيف تهتدي العقولُ إلىٰ سرِّ زيادةِ الألف في ﴿مِاْئَةَ﴾ دون ﴿فِئَةَ﴾؟ أم كيف تتوصلُ إلىٰ زيادةِ الألفِ في (سعوا) في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الحج:٥١]، وعدم زيادتِها في قولهِ تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [سبأ:٥]، وأخذَ يعدِّد في ذكرِ الأمثلةِ إلىٰ أن قالَ: وللقرآنِ أسرارٌ لا تستفادُ إلا بهذا الرسم، فمن

المصحف، العدد الثاني، السنة الأولىٰ رجب ١٤٢٧هـ، بعنوان مزايا الرسم العثماني وفوائده، للدكتور طه عابدين طه(ص: ٣٩) فقد فصلت في هذه المزايا.

كتبَه بالرسمِ التوقيفي فقد أدَّاه بجميعِ أسراره، ومن كتبَه بغيرِ ذلك فقد أدَّاه ناقصًا، ويكون ما كَتبَه إنَّما هو من عند نفسهِ لا من الله»[١].

٣) نماذج من دلالة رسم المصحف على الهدايات:

من مميزات هذا الرسم دلالته علىٰ معان خفية دقيقة، لا تدرك إلا لمن فتح الله عليه من أسرار كتابه؛ وذلك بعد أن يرزقه الله قوة في العلم، ودقة في النظر من ذلك:

المثال الأول: زيادة الياء في كتابة كلمة «أيد» من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذريات:٤٧]، إذ كتبت بياءين وذلك للإيماء إلىٰ تعظيم قوة الله تعالىٰ التي بنىٰ بها السماء، وأنها لا تشبهها قوة؛ وذلك لأنَّ زيادة المبنىٰ تدل علىٰ زيادة المعنىٰ[٢].

المثال الثاني: زيادة الألف في قوله تعالىٰ: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر:٦٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] فإنَّ كلمة (جيء) رسمت في الموضعين بزيادة ألف بين الجيم والياء[٣]؛ وهذه الزيادة تومئ إلىٰ التهويل والتفخيم والوعيد والتهديد وأنه مجيء ليس علىٰ ما يعهد البشر، فجاء الرسم لذلك غير ما يعهدون[٤].

---

(١) نقلاً من كتاب المدخل لدراسة القرآن د. محمد أو شهبة (ص:٣٢٠-٣٢١)، ومنهج الفرقان في علوم القرآن للشيخ محمد علي سلامة (ص: ١٤٦).

(٢) مناهل العرفان للزرقاني (١/ ٣٦٧).

(٣) انظر: إتحاف فضلاء البشر، للدمياطي(ص:٤٦٢-٥٤١).

(٤) بحوث قرآنية (ص: ١٦١).

المثال الثالث: كتابة الأفعال الأربعة بغير واو، مع أنَّ القاعدة النحوية واللغوية علىٰ غير هذا؛ وهي:

١/ (يدعو) في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾ [الإسراء:١١].

٢/ و(يمحو) في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورىٰ:٢٤].

٣/ و(يدعو) في قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ [القمر:٦].

٤/ و(سندعو) في قوله تعالىٰ: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٨]. فإنهَّا كتبت في المصاحف العثمانية بغير واو[1] لسر دقيق لمن أنعم النظر فيه كما ذكر ذلك أبو العباس المراكشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «للتنبيه علىٰ سرعة وقوع الفعل، وسهولته علىٰ الفاعل، وشدة المنفعل المتأثر به في الوجود، أما الحذف في الأولىٰ فللإشارة إلىٰ أن الإنسان يسارع إلىٰ الدعاء بالشر كما يسارع إلىٰ الخير... وأما السر في حذفها في الثانية فللإشارة إلىٰ سرعة ذهاب الباطل واضمحلاله، وأما السر في حذفها في الثالثة فللإشارة إلىٰ سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين حينما يطلب منهم، كما أن السر في حذفها في الآية الرابعة للإشارة إلىٰ سرعة الفعل وإجابة الزبانية، وفيه أيضًا التطابق في اللفظ بين المتجاورين فقبلها ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾، وكذلك الإشارة إلىٰ أن استجابة الزبانية أسرع من استجابة ناديه»[2]، وعلل الشيخ المراكشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: زيادة

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص: ٣٤٦، ٤٧٢، ٤٩٨، ٥٤٥).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٨٧)، وبحوث قرآنية (ص:٦٢)، ورسم المصحف ونقطه (ص: ٤٢٨).

الواو في قوله تعالىٰ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥]، وقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧] للدلالة علىٰ ظهور معنىٰ الكلمة في الوجود في أعظم رتبة للعيان(١).

المثال الرابع: زيادة الألف بعد الفعل المعتل الآخر في قوله تعالىٰ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، فقد زيدت الألف بعد الفعل ﴿وَيَعْفُواْ﴾ للإشارة إلىٰ كثرة عفو الله تعالىٰ واستمراره.

المثال الخامس: كذلك زيادةُ حرفٍ في الرسمِ، كالواو، والألفِ، والياءِ، إنما يكون لفائدة في المعنىٰ، كما قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في فائدةِ زيادةِ الألفِ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]: «وزيادة الألف في قراءة من أثبتها في الحالين، وهم: المدنيان، وابن عامر، وشعبة: إشارةٌ إلىٰ اتساعِ هذه الأفكار، وتشعبِ تلك الخواطر، وعند من أثبتها في الوقف دون الوصل، وهم: ابن كثير، والكسائي، وحفص: إشارةٌ إلىٰ اختلافِ الحالِ تارةً بالقوةِ، وتارةً بالضعف»(٢).

فهذه - وغيرُها كثير - جملةٌ من الهداياتِ الدقيقةِ المعاني والبديعة الأسرار التي نبَّه عليها بعض العلماء واستفيدت من رسم المصحف، وقد ذكروا بعضها ليفتحوا المجال أمام الباحثين واسعًا ليدققوا النظر في البحث عن أسرار ودلالة هذا الرسم، وهي لا تخضع لأسسٍ علمية واضحةٍ، وإنما

---

(١) انظر: بحوث قرآنية (ص:٦٢)، ومناهل العرفان للزرقاني (١/ ٣٧٤).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٣).

هي اجتهاداتٌ وفتوحاتٌ. والله أعلم، ويخشىٰ الباحث من الخوض فيها من الوقوع في التكلف المنهي عنه؛ لأنه لا توجد معايير علمية واضحة تحكم مثل هذه الاستنباطات، ولو لا أن العلماء تحدثوا عن ذلك، وجعلوه ضمن مرجحات المعنىٰ الذي يترتب عليه فهم الهدايات ما ذكرتها هنا في طرق العلماء، مثال ذلك: قول ابن جرير في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٣]«وإذا هم كالوا للناس أو وزنوا لهم. ومن لغة أهل الحجاز أن يقولوا: وزنتك حقك، وكلتك طعامك، بمعنىٰ: وزنت لك وكلت لك. ومن وجَّه الكلام إلىٰ هذا المعنىٰ جعل الوقف علىٰ «هم»، وجعل «هم» في موضع نصب. وكان عيسىٰ بن عمر فيما ذُكر عنه يجعلهما حرفين، ويقف علىٰ كالوا، وعلىٰ وزنوا، ثم يبتدئ هم يخسرون. فمن وجَّه الكلام إلىٰ هذا المعنىٰ جعل «هم» في موضع رفع، وجعل كالوا ووزنوا مكتفيين بأنفسهما.

والصواب في ذلك عندي الوقف علىٰ «هم»، لأن كالوا ووزنوا لو كانا مكتفيين، وكانت هم كلاما مستأنفا، كانت كتابة كالوا ووزنوا بألف فاصلة بينها وبين هم مع كل واحد منهما، إذ كان بذلك جرىٰ الكتاب في نظائر ذلك إذا لم يكن متصلا به شيء من كنايات المفعول، فكتابهم ذلك في هذا الموضع بغير ألف أوضح الدليل علىٰ أن قوله: (هُمْ) إنما هو كناية أسماء المفعول بهم. فتأويل الكلام إذ كان الأمر علىٰ ما وصفنا علىٰ ما بيَّنا»(١).

ومن أمثلة ذلك كذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ:٦]، قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله تعالىٰ: «وقد حقق الله لرسوله

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٢٧٨).

وعده بقوله: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾؛ وهو خبر، وليس بأمر معنوي لثبوت الياء في الخط إجماعًا، وليس ينبغي بعد هذا تأويل؛ لأنه لا يحتاج إليه»[1]، وهي بهذا الاختيار تحمل بشرىٰ عظيمة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتزيد من ثقة الأمة في كتاب ربها، وتلغي عنه تبعات ما يلزم من القول بالوجه الثاني بأن لا ناهية وليست نافية.

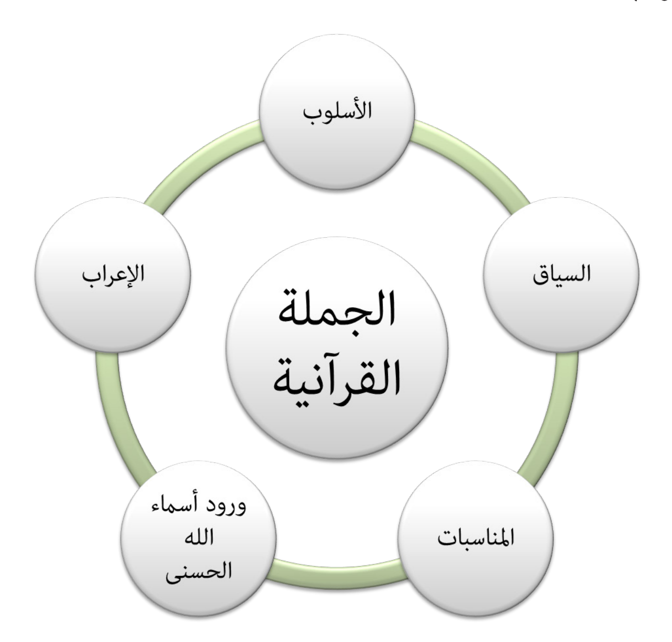
جدول لإجراء تمارين تطبيقية في دراسة المفردة والقراءات والرسم:

م	العملية	الإجراءات	النتاج	المعيار
١	المفردة	■ أصل الكلمة ومعانيها. ■ دلالتها في السياق الموضعي. ■ دلالتها في السياق القرآني	الهداية	وجه الدلالة والاستدلال
٢	القراءات	■ الاختلاف المؤثر في المعنى. ■ توجيه اختلاف القراءات	الهداية	وجه الدلالة والاستدلال
٣	الرسم	■ اختلافه عن الكتابة الإملائية. ■ اختلافه في المواضع الأخرى	الهداية	وجه الدلالة والاستدلال

(١) أحكام القرآن (٧/ ٤٩٢).

المطلب الثاني
الطرق المتعلقة بالجملة القرآنية

الطرق المتعلقة بالجملة القرآنية تنقسم إلىٰ خمسة أنواع، وهي: دراسة تنوع الأساليب، ودلالة السياق، والمناسبات، وورود أسماء الله الحسنىٰ، وأوجه الإعراب المحتملة.



إليك تفاصيل كل نوع من هذه الأنواع:

أولًا: تنوع الأساليب:

١) معنى أسلوب القرآن:

أسلوب القرآن الكريم هو: «طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكلِّ كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم؛ بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها»(١).

والقرآن وإن تألف من كلام العرب، لكنه له أسلوبه الفريد الذي لا يدانيه كلام مخلوق من البشر، يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعًا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعًا يطمع أن يحوم حول حماه؛ بل يدع الأعناق تشرئب إليه ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور»(٢)، وقال عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أسلوب القرآن هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية على تباعد ما بين أطرافها»(٣).

ومن الجوانب المهمة في دراسة الجملة محاور ثلاثة تلخصت في الآتي:

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٠٣).

(٢) النبأ العظيم (ص: ١٢٩).

(٣) المصدر السابق (ص: ١٤٣).

مهارة التعامل مع الجملة :



٢) أهميةُ معرفةِ أساليب القرآن الكريم:

من أعظمِ ما يميزُ القرآنَ الكريم طريقته التي انفرد بها في اختيار ألفاظهِ، وفي تأليفِ كلامه، حيث جاء مستوفيًا لكلِّ أغراضِ البيانِ، ومقتضياتِ الهداية، مع توافقٍ عجيب لحالِ المخاطب، فكلُّ أسلوبٍ عند تأملهِ في موضعهِ له غرضُه البلاغي، وتأثيرُه العجيبُ في قلبِ وعقلِ مستمعه، وعلىٰ قدرِ إدراكِ الباحثِ لأساليبِ القرآنِ يكون تمكنُه في استخراجِ الهدايات، وهو من أوسع الأبواب وأدقِّها للباحثين في الهدايات، قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعْلَمْ أَنَّ هَذَا عِلْمٌ شَرِيفُ الْمَحَلِّ، عَظِيمُ الْمَكَانِ، قَلِيلُ الطُّلَّابِ، ضَعِيفُ الْأَصْحَابِ، لَيْسَتْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَحْمِيهِ، وَلَا ذَوُو بَصِيرَةٍ تَسْتَقْصِيهِ، وَهُوَ أَرَقُّ مِنَ الشِّعْرِ، وَأَهْوَلُ مِنَ الْبَحْرِ، وَأَعْجَبُ مِنَ السِّحْرِ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ وَهُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَىٰ أَسْرَارِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الْكَافِلُ بِإِبْرَازِ إِعْجَازِ النَّظْمِ الْمُبِينِ، مَا أُودِعَ مِنْ حُسْنِ التَّأْلِيفِ، وَبَرَاعَةِ التَّرْكِيبِ، وَمَا تَضَمَّنَهُ فِي الْحَلَاوَةِ، وَجَلَّلَهُ فِي رَوْنَقِ الطَّلَاوَةِ،

مَعَ سُهُولَةِ كَلِمِهِ وَجَزَالَتِهَا وَعُذُوبَتِهَا وَسَلَاسَتِهَا»[(١)].

وقال السَّكَّاكِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا أَعْلَمُ فِي بَابِ التَّفْسِيرِ بَعْدَ عِلْمِ الْأُصُولِ أَقْرَأَ عَلَىٰ الْمَرْءِ لِمُرَادِ اللهِ مِنْ كَلَامِهِ مِنْ عِلْمَي الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، وَلَا أَعْوَنَ عَلَىٰ تَعَاطِي تَأْوِيلِ مُتَشَابِهَاتِهِ، وَلَا أَنْفَعَ فِي دَرْكِ لَطَائِفِ نُكَتِهِ وَأَسْرَارِهِ، وَلَا أَكْشَفَ لِلْقِنَاعِ عَنْ وَجْهِ إِعْجَازِهِ، وَلَكَمْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَرَاهَا قَدْ ضِيمَتْ حَقَّهَا وَاسْتُلِبَتْ مَاءَهَا وَرَوْنَقَهَا أَنْ وَقَعَتْ إِلَىٰ مَنْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ، فَأَخَذُوا بِهَا فِي مَآخِذَ مَرْدُودَةٍ، وَحَمَلُوهَا عَلَىٰ مَحَامِلَ غَيْرِ مَقْصُودَةٍ إِلَخْ »[(٢)].

قال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم، والقاموس المحيط الأعظم، فإنه أظهر وجوه الإعجاز اللفظية، وذلك أن يمزج فنون الكلام. وينظم مقاصد الهداية والإرشاد علىٰ اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها مزجا متلائما، ونظما متناسبا متناسقا، موافقا للذوق السليم، مطابقا لنكت البلاغة. فالعقائد الإلهية والدلائل العلمية والعقلية، والأخبار الغيبية، والسنن الكونية والاجتماعية، والمواعظ الأخلاقية والأدبية، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية، وقصص الأنبياء، ووصف الأرض والسماء، وما فيهما من جمادات وأحياء، وما بينهما من هواء وهباء، تراه كله في السورة الواحدة، وترىٰ الكثير منه في آية واحدة، بعبارة بديعة مؤثرة، ينتقل فيها العقل من فائدة إلىٰ فائدة ويتقلب فيها القلب من موعظة إلىٰ موعظة، مع منتهىٰ الإحكام والمناسبة، بحيث لا تمل

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٢)، وجزء من هذا الكلام للباقلاني في كتابه إعجاز القرآن (ص:١٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٠).

تلاوته، ولا تفتأ تتجدد هدايته»(١).

٣) أنواعُ الأساليبِ القرآنية:

أساليبُ القرآنِ في تركيبِ كلامهِ كثيرةٌ متنوعة؛ يصعبُ حصرُها؛ بل يصعبُ استيفاءُ الأسلوبِ الواحد منها بالدراسة(٢)؛ وبلاغةُ القرآن البيانيةُ من أوجهِ إعجازه التي لا يمكن الإحاطةُ بها، ومن أهمِّ تلك الأساليبِ ما يلي: الالتفات، والاستفهام، والتوكيد، والمقابلة، والحصر، والحذف، والتكرار، والتعليل، والاعتراض، والقصر، والاستثناء، والتضمين، والمشاكلة، والمطابقة، والمقابلة، والقسم، والقصص، والتمثيل، والجدل، والترغيب والترهيب، والتقديم والتأخير، والإبهام، والإيضاح بعد الإبهام، وعطف العام علىٰ الخاص والعكس، ووضع الظاهر موضع الضمير، وغيرها.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في النوع السادس والأربعين: فِي أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ وَفُنُونِهِ الْبَلِيغَةِ وهو يعدد أنواعها: «وَهَا أَنَا أُلْقِي إِلَيْكَ مِنْهُ مَا يَقْضِي لَهُ الْبَلِيغُ عَجَبًا وَيَهْتَزُّ بِهِ الْكَاتِبُ طَرَبًا، فَمِنْهُ التَّوْكِيدُ بِأَقْسَامِهِ، وَالْحَذْفُ بِأَقْسَامِهِ، الْإِيجَازُ، التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ، الْقَلْبُ، الْمُدْرَجُ، الِاقْتِصَاصُ، التَّرَقِّي، التَّغْلِيبُ، الِالْتِفَاتُ، التَّضْمِينُ، وَضْعُ الْخَبَرِ مَوْضِعَ الطَّلَبِ، وَضْعُ الطَّلَبِ مَوْضِعَ الْخَبَرِ، وَضْعُ النِّدَاءِ مَوْضِعَ التَّعَجُّبِ، وَضْعُ جُمْلَةِ الْقِلَّةِ مَوْضِعَ الْكَثْرَةِ، تَذْكِيرُ الْمُؤَنَّثِ تَأْنِيثُ الْمُذَكَّرِ، التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي، عَكْسُهُ، مُشَاكَلَةُ

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (٩/ ٢٩٨).

(٢) انظر: دراسات في أساليب القرآن الكريم، مُحَمَّد عبد الخالق عضيمة فقد تحدث عن الكثير من الأساليب.

اللَّفْظِ لِلْمَعْنَىٰ، النَّحْتُ، الْإِبْدَالُ، الْمُحَاذَاةُ قَوَاعِدُ فِي النَّفْيِ وَالصِّفَاتِ إِخْرَاجُ الْكَلَامِ مُخْرَجَ الشَّكِّ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْحَقِيقَةِ الْإِعْرَاضُ عَنْ صَرِيحِ الْحُكْمِ الْهَدْمُ التَّوَسُّعُ الِاسْتِدْرَاجُ التَّشْبِيهُ الِاسْتِعَارَةُ التَّوْرِيَةُ التَّجْرِيدُ التَّجْنِيسُ الطِّبَاقُ الْمُقَابَلَةُ إِلْجَامُ الْخَصْمِ بِالْحُجَّةِ التَّقْسِيمُ التَّعْدِيدُ مُقَابَلَةُ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ...»[١].

٤) نماذج من دلالة الأساليب على الهدايات:

الأمثلةُ والنماذجُ في ذلك كثيرٌة لا تحصىٰ، من ذلك:

النموذج الأول: الإيجازُ: وهو ما يؤدي إلىٰ معانٍ كثيرةٍ بألفاظٍ قليلة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، في جميع الأقوال والأفعال، وهنا نجد للعلماء أقوالًا متعددة في معاني العدل يجب حمل الآية عليها، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والكلمة إذا احتملت وجوهًا، لم يكن لأحد صرفُ معناها إلىٰ بعضِ وجوهها دون بعضٍ، إلا بحجة يجب التسليم لها»[٢] ، وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « تقرّر عند العلماء، أن الآية إن كانت تحتمل معاني، كلها صحيحة، تعيَّن حملها علىٰ الجميع»[٣].

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه وجوه أحدها: قال الأصم: أحسنوا في فرائض الله، وثانيها: وأحسنوا في الإنفاق علىٰ من تلزمكم مؤنته ونفقته، والمقصود منه: أن يكون ذلك الإنفاق وسطًا، فلا تسرفوا، ولا تقتروا، وهذا هو الأقرب؛

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٣).

(٢) جامع البيان (١/ ٣١٥).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٥٩).

لاتصاله بما قبله، ويمكن حمل الآية على جميع الوجوه»[١].

وكقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]. فجمعت في ألفاظ قليلة معاني كثيرة، «استوعبت جميع الأشياء والشؤون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر: من بقي له شيء فليطلبه، وهذا الأسلوب البليغ يسمى إيجاز قصر»[٢].

وكقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّهَا جَامِعَةٌ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؛ لِأَنَّ فِي أَخْذِ الْعَفْوِ التَّسَاهُلَ وَالتَّسَامُحَ فِي الْحُقُوقِ وَاللِّينَ وَالرِّفْقَ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الدِّينِ، وَفِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ كَفُّ الْأَذَى وَغَضُّ الْبَصَرِ وَمَا شَاكَلَهُمَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وفي الإعراض الصبر وَالْحِلْمِ وَالتُّؤَدَةِ. وَمِنْ بَدِيعِ الْإِيجَازِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَإِنَّهُ نِهَايَةُ التَّنْزِيهِ، وَقَدْ تَضَمَّنَتِ الرَّدَّ عَلَى نَحْوِ أَرْبَعِينَ فِرْقَةً كَمَا أَفْرَدَ ذَلِكَ بِالتَّصْنِيفِ بَهَاءُ الدِّينِ ابْنُ شَدَّادٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ دَلَّ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ عَلَى جَمِيعِ مَا أَخْرَجَهُ مِنَ الْأَرْضِ قُوتًا وَمَتَاعًا لِلْأَنَامِ مِنَ الْعُشْبِ وَالشَّجَرِ وَالْحَبِّ وَالثَّمَرِ وَالْعَصْفِ وَالْحَطَبِ وَاللِّبَاسِ وَالنَّارِ وَالْمِلْحِ لِأَنَّ النَّارَ مِنَ الْعِيدَانِ وَالْمِلْحَ مِنَ الْمَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ جَمَعَ فِيهِ جَمِيعَ عُيُوبِ الْخَمْرِ مِنَ الصُّدَاعِ وَعَدَمِ الْعَقْلِ وَذَهَابِ المال ونفاد الشَّرَابِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤] الْآيَةَ أَمَرَ فِيهَا وَنَهَى، وَأَخْبَرَ وَنَادَى،

---

(١) مفاتيح الغيب (٣/ ١٥٤).

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٩/ ٣٧٨).

وَنَعَتَ وَسَمَّىٰ، وَأَهْلَكَ وَأَبْقَىٰ، وَأَسْعَدَ وَأَشْقَىٰ وَقَصَّ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا لَوْ شُرِحَ مَا انْدَرَجَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ بَدِيعِ اللَّفْظِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْإِيجَازِ وَالْبَيَانِ لَجَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَقَدْ أَفْرَدْتُ بَلَاغَةَ هَذِهِ الْآيَةِ بِالتَّأْلِيفِ، وَفِي الْعَجَائِبِ لِلْكِرْمَانِيِّ: أَجْمَعَ الْمُعَانِدُونَ عَلَىٰ أَنَّ طَوْقَ الْبَشَرِ قَاصِرٌ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ أَنْ فَتَّشُوا جَمِيعَ كَلَامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فَلَمْ يَجِدُوا مِثْلَهَا فِي فَخَامَةِ أَلْفَاظِهَا، وَحُسْنِ نَظْمِهَا، وَجَوْدَةِ مَعَانِيهَا فِي تَصْوِيرِ الْحَالِ، مَعَ الْإِيجَازِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ»(١).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنْ أَبْدَعِ الْأَسَالِيبِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْإِيجَازُ، وَهُوَ مُتَنَافَسُهُمْ وَغَايَةٌ تَتَبَارَىٰ إِلَيْهَا فُصَحَاؤُهُمْ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِأَبْدَعِهِ إِذْ كَانَ- مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِيجَازِ الْمُبَيَّنِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي- فِيهِ إِيجَازٌ عَظِيمٌ آخَرُ وَهُوَ صُلُوحِيَّةُ مُعْظَمِ آيَاتِهِ لِأَنْ تُؤْخَذَ مِنْهَا مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ كُلُّهَا تَصْلُحُ لَهَا الْعِبَارَةُ بِاحْتِمَالَاتٍ لَا يُنَافِيهَا اللَّفْظُ، فَبَعْضُ تِلْكَ الِاحْتِمَالَاتِ مِمَّا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُهُ، وَبَعْضُهَا إِنْ كَانَ فَرْضٌ وَاحِدٌ مِنْهُ يَمْنَعُ مِنْ فَرْضٍ آخَرَ فَتَحْرِيكُ الْأَذْهَانِ إِلَيْهِ وَإِخْطَارُهُ بِهَا يَكْفِي فِي حُصُولِ الْمَقْصِدِ مِنَ التَّذْكِيرِ بِهِ لِلِامْتِثَالِ أَوِ الِانْتِهَاءِ... وَلَوْلَا إِيجَازُ الْقُرْآنِ لَكَانَ مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْمَعَانِي فِي أَضْعَافِ مِقْدَارِ الْقُرْآنِ، وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ وَرُمُوزُهُ فِي كُلِّ بَابٍ بَالِغَةٌ مِنَ اللُّطْفِ وَالْخَفَاءِ حَدًّا يَدِقُّ عَنْ تَفَطُّنِ الْعَالِمِ وَيَزِيدُ عَنْ تَبَصُّرِهِ، وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»(٢).

النموذج الثاني: الإطناب: ويسمىٰ الإسهابَ وهو عكسُ الإيجاز، هو: التعبيرُ عن المرادِ بلفظٍ زائدٍ مفيد. كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢١).

كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧] فَقَوْلُهُ: «وَيُؤْمِنُونَ بِهِ» إِطْنَابٌ لِأَنَّ إِيمَانَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَعْلُومٌ وَحَسَّنَهُ إِظْهَارُ شَرَفِ الْإِيمَانِ تَرْغِيبًا فِيهِ»[1].

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، والقول لا يكون إلا بالألسن؛ ولكن لما كان مقصد الآية الذم والتنفير جاءت بأسلوب الاطناب، قال ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه خرجت مخرج التهييج علىٰ منافرتهم والبعد عنهم بذكر أوصافهم القبيحة، فناسب الإطناب فيها والمبالغة»[2].

ومنه ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]، لما كان مقصد الآية بيان عناية الله تعالىٰ بمريم عليها السلام جاء أسلوب الكلام بهذا الاطناب، فـ «وقع الإطناب في الخبر عن القبول من ثلاثة أوجه: لفظ (تقبل) أي: طلب من نفسه قبولها، وذلك يقتضي غاية الاعتناء بها. وتنكير (قبول)، وتنكير (حسن) للتعظيم أي: قبول حَسَن أي حُسْن»[3].

والقرآن الكريم كما هو معجز في حالة الإيجاز فهو كذلك معجز إعجازًا باهرًا في حال الاطناب، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سَلَكَ الْقُرْآنُ مَسْلَكَ الْإِطْنَابِ لِأَغْرَاضٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَمِنْ أَهَمِّ مَقَامَاتِ الْإِطْنَابِ مَقَامُ تَوْصِيفِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يُرَادُ بِتَفْصِيلِ وَصْفِهَا إِدْخَالُ الرَّوْعِ فِي قَلْبِ السَّامِعِ»[4].

---

(١) تفسير ابن عرفة (١/ ٤٠٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) التقييد الكبير للبسيلي (ص: ٥٢٠).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٢٣).

النموذج الثالث: الِاسْتِقْصاءُ: وَهُوَ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْمُتَكَلِّمُ معنىٰ فيستقصيه فيأتي بجميع عَوَارِضِه وَلَوَازِمِه بَعْدَ أَنْ يَسْتَقْصِيَ جَمِيعَ أَوْصَافِهِ الذَّاتِيَّةِ بِحَيْثُ لَا يَتْرُكُ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ بَعْدَهُ فِيهِ مَقَالًا، وهو «الِاسْتِيعَابُ إِلَىٰ أَقْصَىٰ حَدٍّ»(١).

كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦]. قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ لَوِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ قَوْلِهِ «جَنَّةٌ» لَكَانَ كَافِيًا فَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ قَالَ فِي تَفْسِيرِهَا: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فَإِنَّ مُصَابَ صَاحِبِهَا بِهَا أَعْظَمُ ثُمَّ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مُتَمِّمًا لِوَصْفِهَا بِذَلِكَ، ثُمَّ كَمُلَ وَصْفُهَا بَعْدَ التَّتْمِيمَيْنِ فَقَالَ: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فَأَتَىٰ بِكُلِّ مَا يَكُونُ فِي الْجِنَانِ لِيَشْتَدَّ الْأَسَفُ عَلَىٰ إِفْسَادِهَا، ثُمَّ قَالَ فِي وَصْفِ صَاحِبِهَا: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ ثُمَّ اسْتَقْصَىٰ الْمَعْنَىٰ فِي ذَلِكَ بِمَا يُوجِبُ تَعْظِيمَ الْمُصَابِ بِقَوْلِهِ بَعْدَ وَصْفِهِ بِالْكِبَرِ ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ﴾، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ وَصَفَ الذُّرِّيَّةَ بالضعفاء، ثُمَّ ذَكَرَ اسْتِئْصَالَ الْجَنَّةِ الَّتِي لَيْسَ لِهَذَا الْمُصَابِ غَيْرُهَا بِالْهَلَاكِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَىٰ ذِكْرِهِ لِلْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ سُرْعَةُ الْهَلَاكِ فَقَالَ: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ ثُمَّ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ أَخْبَرَ بِاحْتِرَاقِهَا لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ النَّارُ ضَعِيفَةً لَا تَفِي بِاحْتِرَاقِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْهَارِ وَرُطُوبَةِ الْأَشْجَارِ فَاحْتَرَسَ عَنْ هَذَا الِاحْتِمَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ فَهَذَا أَحْسَنُ اسْتِقْصَاءٍ وَقَعَ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٧١).



فِي كَلَامٍ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ»(١).

قَالَ ابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْفَرْقُ بَيْنَ الِاسْتِقْصَاءِ وَالتَّتْمِيمِ وَالتَّكْمِيلِ أَنَّ التَّتْمِيمَ يَرِدُ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ النَّاقِصِ ليتم، وَالتَّكْمِيلُ يَرِدُ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ التَّامِّ فَيُكَمِّلُ أَوْصَافَهُ، وَالِاسْتِقْصَاءُ يَرِدُ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ التَّامِّ الْكَامِلِ فَيَسْتَقْصِي لَوَازِمَهُ وَعَوَارِضَهُ وَأَوْصَافَهُ وَأَسْبَابَهُ حَتَّىٰ يَسْتَوْعِبَ جَمِيعَ مَا تَقَعُ الْخَوَاطِرُ عَلَيْهِ فَلَا يَبْقَىٰ لِأَحَدٍ فِيهِ مَسَاغٌ»(٢).

وهذا الاستقصاء أفاد فائدة عظيمة في بيان خطورة المنّ وكيف ينقلب حسرة علىٰ صاحبه في وقت هو أشد حاجة لجني ثمار عمله، كما هو حال صاحب هذه الجنة التي احترقت، ولما بين تعالىٰ من خلال هذا الاستقصاء الصورة بيانًا شافيًا ختم تعالىٰ الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ تعظيمًا لحال البيان، ورحمة بخلقه.

ومنه قوله تعالىٰ بعد بيان أحكام ليلة الصيام: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٥٢).

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع العدواني (٢/ ٣٦).

ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما بين أحكام الصوم علىٰ الاستقصاء في هذه الآية بالألفاظ القليلة بيانًا شافيًا وافيًا، قال بعده: كذلك يبين الله آياته للناس أي مثل هذا البيان الوافي الواضح الكامل هو الذي يذكر للناس، والغرض منه تعظيم حال البيان وتعظيم رحمته علىٰ الخلق في ذكره مثل هذا البيان»[(١)].

ومثله: قوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه:٦]، هذا في استقصاء ملكه للخلائق في المكان، وقال في الاستقصاء الزماني: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١٣]، فهذا الاستقصاء الزماني والمكاني لملكيته للخلائق يقرر كمال ربوبيته، ووجوب إفراده بالعبادة؛ وأنسب أسلوب لهذا التقرير هو الاستقصاء.

النموذج الرابع: التَّذْيِيلُ: «وَهُوَ أَنْ يُؤْتَىٰ بِجُمْلَةٍ عَقِبَ جُمْلَةٍ، وَالثَّانِيَةُ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ لِتَأْكِيدِ مَنْطُوقِهِ أَوْ مَفْهُومِهِ، لِيَظْهَرَ الْمَعْنَىٰ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ، وَيَتَقَرَّرَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ نَحْوُ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾، ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾»[(٢)].

النموذج الخامس: الاستفهام: فهو يستعمل في الأصل لطلب الفهم، ثم يستعمل لأغراض أخرىٰ كثيرة ومتنوعة من ذلك:

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٧٨).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٥٠).

الاستبعاد: في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران:١٠١].

فالاستفهام هنا مستعمل في الاستبعاد لكفرهم، ونفيًا له؛ لذلك استفاد منه الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ هداية دقيقة فقال: «وفي الآية دلالة علىٰ عظم قدر الصحابة، وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن وجوده عصمة من ضلالهم»[(١)]. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة:٨٤].

والإنكار: في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة:١٨].

فهو استفهام مستعمل للإنكار قال الشيخ صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستفهام للإنكار أي ليس المؤمن كالفاسق. فقد ظهر ما بينهما من التفاوت والتباين، ولهذا قال ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ ففيه زيادة تصريح لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام علىٰ أبلغ وجه وآكده ليبني عليه التفصيل الآتي»[(٢)].

والتأكيد: كما في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥].

فهو استفهام مستعمل للتأكيد، «قال الإمام[(٣)]: دلَّ الاستفهام علىٰ التأكيد كمن ذكر حجة بالغة، ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ والمعنىٰ: من كان ذا لُب، علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل علىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٩).

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (١١/ ٢٨).

(٣) يقصد بذلك الزمخشري، وهو ذكر هذا المعنىٰ انظر: الكشاف (٤/ ٧٤٧).

التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته علىٰ خالقه»[١].

والتعجيز: كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

قال الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاستفهام هنا للتعجيز والتوبيخ؛ ولذلك قفىٰ عليه بيان حقيقة حالهم فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي لستم علىٰ شيء ما من العلم، بل ما تتبعون في بقائكم علىٰ ما أنتم عليه من عقيدة وقول في الدين وعمل به إلا الظن »[٢] فهذا الاستفهام جاء ليبين عجزهم التام في الإتيان بأدني درجات العلم والحجة لما هم عليه من عقائد باطلة، في مقابل الحجة الكاملة المنزلة من عندهم الله تعالىٰ، ولذا قال بعدها، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والتقرير: كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتح القدير للشوكاني «هذا الاستفهام للتقرير، فإنها إذا كانت لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر، فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هي كذلك أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة، لم يجدوا لها جوابا إلا رجوعهم إلىٰ التقليد البحت، وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، أي: يفعلون لهذه العبادة لهذه الأصنام، مع كونها بهذه الصفة التي

---

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي علىٰ الكشاف) (١٦/ ٤٢١).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (٨/ ١٥٦).

هي: سلب السمع، والنفع، والضر عنها، وهذا الجواب هو العصي التي يتوكأ عليها كل عاجز، ويمشي بها كل أعرج، ويغتر بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض بطولها والعرض، وقلت لهم: ما الحجة لهم علىٰ تقليد فرد من أفراد العلماء، والأخذ بكل ما يقوله في الدين، ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل، لم يجدوا غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه»[١].

النموذج السادس: التشبيه: وهو باب تحار فيه العقول، واستنبط منه العلماء عشرات الفوائد والهدايات قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالِاسْتِعَارَةِ مَا أَعْجَزَ الْعَرَبَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مَرْيَم: ٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الْإِسْرَاء: ٢٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤]...»[٢].

ومثال ذلك الأمثال التي هي «تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر»[٣]، فنجد العلماء يذكرون من التشبيه الذي جاء في مَثَل واحد عشرات الهدايات، مثال ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٩).

(٣) أمثال القرآن لابن قيم الجوزية (٢/ ٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارىٰ تائهين ...

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ ولم يقل ذهب نورهم، وفيه سر بديع وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون...

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلا ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوؤها مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلىٰ معدنه وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلىٰ أصله اللائق به حجة من الله قائمة وحكمة بالغة تعرف بها إلىٰ أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ ولم يقل بنارهم ليطابق أول الآية. فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور؛ وأبقىٰ عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال بنورهم ولم يقل بضوئهم مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ لأن الضوء هو زيادة في النور فلو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته. وأيضا فإنه أبلغ في النفي عنهم وإنهم من أهل الظلمات

الذين لا نور لهم، وأيضا فإن الله تعالىٰ سمىٰ كتابه نورًا ورسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نورًا ودينه نورًا وهداه نورًا ومن أسمائه النور والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦] كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضىٰ بها، وبدل الهدىٰ في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضىٰ بها بدلًا عن النور الذي هو الهدىٰ والنور، فبدلوا الهدىٰ والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة فيا لها من تجارة ما أخسرها وصفقة ما أشد غبنها.

وتأمل كيف قال الله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ فوحده ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه علىٰ لسان رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدىٰ ودين الحق بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة...»(١).

المثال السابع: التكرار: والقرآن إذا كرر أفاد أمورًا كثيرة؛ منها: التعظيم والتهويل، والوعيد والتهديد، والتنويه والإشادة، والتشويق والتأنيس، والتوبيخ والتعجب، والتهكم والازدراء، والتفخيم والتعظيم، والمبالغة والتحريض(٢).

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية (٢/ - ٢٦- ٣١) فقد ذكر كلامًا طويلًا فيما يرجع إليه.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، (٣/ ١٧، ١٨).

مثال ذلك في سورة الشعراء كرر القرآن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨، ٩]، «فأُعيدت هذه الآية سبع مرات بعدد القصص السبع، علاوة علىٰ ورودها قبل ذلك في صدر السورة، تعقيبا علىٰ ما في خلق النبات وتنوع أصنافه من حكمة إلهية، ومصلحة إنسانية، إذ قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٧- ٩]. وإنما أعيد ذكر هذه الآية عقب كل قصة من قصص الأنبياء السابقين، إشارة إلىٰ أن كل واحدة منها كافية لاستخلاص العبر واستذكار المثلات، بالنسبة لما مضىٰ وما هو آت، فالرسول عليه الصلاة والسلام يأخذ منها العبرة التي تناسب منصب الرسالة، بما له من مسؤوليات وتبعات، وما يتطلب القيام به علىٰ الوجه الأكمل من المتاعب والتضحيات، كما يستخلص العبرة منها من آمن من قومه ومن كفر، إذ فيما أصاب أقوام الرسل السابقين من النجاة والخلاص، أو الهلاك والخسران، اللذين تضمنهما كل قصة، عبرة لمن اعتبر»[1].

وقد تجد في الآيةِ الواحدة عددًا من الأساليبِ كما في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨] جَمعَ الله تعالىٰ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَحَدَ عَشَرَ جِنْسًا مِنَ الْكَلَامِ، نَادَتْ وَكَنَّتْ، وَنَبَّهَتْ وَسَمَّتْ، وَأَمَرَتْ وَقَصَّتْ وَحَذَّرَتْ، وَخَصَّتْ وَعَمَّتْ، وَأَشَارَتْ وَعَذَرَتْ، فَالنِّدَاءُ «يَا»، وَالْكِنَايَةُ «أَيْ»،

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٣٦٢).

وَالتَّنْبِيهُ «هَا»، وَالتَّسْمِيَةُ «النَّمْلُ»، وَالْأَمْرُ «ادْخُلُوا»، وَالْقَصَصُ «مَسَاكِنَكُمْ»، وَالتَّحْذِيرُ «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ»، وَالتَّخْصِيصُ «سُلَيْمَانُ»، وَالتَّعْمِيمُ «جُنُودُهُ» وَالْإِشَارَةُ «وَهُمْ»، وَالْعُذْرُ «لَا يَشْعُرُونَ» فأدَّت خمس حُقُوقٍ: حَقَّ اللهِ، وَحَقَّ رَسُولِهِ، وَحَقَّهَا، وَحَقَّ رَعِيَّتِهَا، وَحَقَّ جُنُودِ سليمان»[١].

والقرآن له أسلوبه الخاص في مخاطبة العباد في كل فريضة وموضوع، وله خطابه الخاص مع كل قوم وفئة، انظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. «فإن قلت: ما الحكمة في ذكر الحَشْر للمتقين، وخصوصيتهم للرحمن لهم، والسوق إلىٰ المجرمين وخصوصيتهم لجهنم؟

فالجواب أن الحَشْر مع الرضا والاختيار، والسوق مع الكراهية والسخط. والحشر للكرامة والأمانة والعلم. والسوق للجهد والإهانة.

ولما كان الرضوان والسلام والرؤية والخلود للمتقين، وهو أكبر من الجنة خصَّهم بذكر الرحمن، لأن شوقهم إليه ورجاءهم فيه، فدلَّهم إليه لتسكنَ نفوسهم. ولما كان عند المجرمين الخوف من عقوبة النار لا مِنْه، لأنَّهم لم يعرفوه ذكَّرهم بما هو أشد عليهم، وهي جهنم، ولو عقلوا لعلموا أنَّ نار القطيعة أشدُّ من القطيعة، لكنهم خُوّفوا بما هو معقول عندهم، فسبحان مَنْ خاطب عباده بما يفهمونه، خاطب المطيعَ بما هو مشتاق إليه، وخاطب العاصي بما يخافه، وعلىٰ هذا هو أسلوب القرآن العظيم»[٢].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٥٢).

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٢/ ٥٤٧).

والكلام في هذا طويل ونحن نقول بما قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا مِنْ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ إِلَّا وَلَوْ أَرَادَ الْإِنْسَانُ اسْتِقْصَاءَهُ لَاسْتَفْرَغَ عُمُرَهُ ثُمَّ لَمْ يُحْكِمْ أَمْرَهُ؛ وَلَكِنِ اقْتَصَرْنَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ عَلَىٰ أُصُولِهِ وَالرَّمْزِ إِلَىٰ بَعْضِ فُصُولِهِ، فَإِنَّ الصِّنَاعَةَ طَوِيلَةٌ، وَالْعُمُرَ قَصِيرٌ، ماذا عسىٰ أن يبلغ لسان لتقصير»[١].

ويقول الشيخ مصطفىٰ صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عظمة أسلوب القرآن: «وإن شعور أبلغ الناس بضعفه عن أسلوب القرآن ليكون علىٰ مقدار شعوره من نفسه بقوة الطبع واستفاضة المادة وتمكنه من فنون القول وتقدمه في مذاهب البيان؛ فكلما تناهىٰ في علمه تناهىٰ كذلك في علمه بالعجز وما أهل الأرض جميعًا في ذلك إلا كنفس واحدة: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧] »[٢].

ثانيًا: النظر في دلالة السياق:

١) أهمية العلم بدلالة السياق:

يعدُّ فهمُ الكلامِ في السياقِ الذي وردَ فيه من أهمِّ مقوماتِ فهمِ القرآنِ الكريم واستنباطِ هداياته، فقد روي عن مسلمِ بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه قال: «إذا حدثت عن اللهِ حديثًا فقف حتىٰ تنظرَ ما قبلَه وما بعده»[٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَتَدَبَّرَ مَا قَبْلَ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا وَعَرَفَ

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص: ١٢٩، ١٣٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٢٣١، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٩٢).

مَقْصُودَ الْقُرْآنِ: تَبَيَّنَ لَهُ الْمُرَادُ وَعَرَفَ الْهُدَىٰ وَالرِّسَالَةَ، وَعَرَفَ السَّدَادَ مِنْ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ. وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِمُجَرَّدِ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ الْمُجَرَّدُ عَنْ سَائِرِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَاهُ فَهَذَا مَنْشَأُ الْغَلَطِ مِنْ الغالطين؛ لَا سِيَّمَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِالِاحْتِمَالَاتِ اللُّغَوِيَّةِ. فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ غَلَطًا مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمَشْهُورِينَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهُ كَمَا يَقْصِدُ ذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ»[1]، وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السياقُ يرشدُ إلىٰ تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطعِ بعدمِ احتمالِ غيرِ المراد، وتخصيصِ العام، وتقييدِ المطلق، وتنوعِ الدلالة، وهذا من أعظمِ القرائن الدالةِ علىٰ مراد المتكلم، فمن أهملَه غلطَ في نظرِه، وغالطَ في مناظرته، فانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] كيف تجد سياقَه يدلُّ علىٰ أنه الذليل الحقير»[2]. وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانِ منهج الراغب في مفرداتِه، وطريقتِه في التوصل إلىٰ فهمه: «النَّظَرُ إِلَىٰ مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَمَدْلُولَاتِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وَهَذَا يَعْتَنِي بِهِ الرَّاغِبُ كَثِيرًا فِي كِتَابِ الْمُفْرَدَاتِ فَيَذْكُرُ قَيْدًا زَائِدًا عَلَىٰ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ لِأَنَّهُ اقْتَنَصَهُ مِنَ السِّيَاقِ»[3].

ولذلك كلَّما تأمَّلَ المستنبطُ في سياقِ الألفاظِ والجمل والآيات، وطوَّفَ نظره في سباقِها ولحاقها انفتحت له جملةٌ من معالم الهدايات، وأسرارِ الدلالات، وترجَّحت عنده معانٍ كثيرةٌ قد لا تكون راجحةً عند غيرِه؛ لأنَّ الكلمةَ الواحدةَ قد يكون لها معنىً في سياقٍ وآخرُ في سياقٍ آخر.

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٩٤).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٨١٥).
(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧٢).

٢) أنواع السياق:

النوع الأول: النظر في سياق الجملة: من خلال النظر لما قبلها وما بعدها لاختيار المعنىٰ الذي تنبني عليه الهداية، مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقائل إما الله تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويرجحه كون المقام مقام تعداد النعم، أو موسىٰ نفسه وهو الأنسب بسياق النظم والاستفهام للإنكار»(١).

النوع الثاني: النظر في سياق الآية: من خلال النظر لما قبلها وما بعدها لاختيار المعنىٰ الذي تنبني عليه الهداية، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فقال: «الْفَظُّ: الْغَلِيظُ، والْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أَيْ: لَوْ كُنْتَ سَيِّئَ الْكَلَامِ قَاسِيَ الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَانْفَضُّوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ، وَلَكِنَّ اللهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ، وَأَلَانَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ»(٢).

ومثال ذلك أيضًا قول الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. «﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يعني الطاعات، وما ينفعنا عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ وإنما قال ذلك بعد ذكر إتيان النساء حتىٰ لا ننشغل بهؤلاء النساء عن تقديم ما ينفعنا يوم القيامة؛ ومن التقديم للنفس أن

---

(١) روح المعاني (١/ ٣٤١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٤٨).

يبتغي الإنسان بإتيان أهله تحصين فرجه، وتحصين فرج امرأته؛ وطلب الولد الصالح، وما أشبه ذلك مما يقارن الجماع من الأعمال الصالحة بالنيَّة. قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: لما أمرنا بالتقديم لأنفسنا بالأعمال الصالحة أمرنا بالتقوىٰ - وهي فعل أوامره - واجتناب نواهيه»[1].

النوع الثالث: النظر في سياق الموضوع: من خلال النظر في الغرض الذي تتابع الموضوع والكلام المساق من أجله، كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤].

- تفيد بدلالة السياق مع ما بعدها أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم قوم أمروا بالجهاد، وقد دهمهم العدو فخافوا القتل؛ فخرجوا من ديارهم فرارًا من القتل، فأماتهم الله ليعرفهم أنَّه لا ينجيهم من الموت شيء؛ ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد لقوله تعالىٰ في الآية التالية: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

- تفيد مع ما بعدها أن من فضل الله أن يهيئ عباده لما يريد أن يشرعه لهم، حيث أتت هذه القصة بين يدي الأمر بالقتال تشجيعًا للمؤمنين، وحثًا علىٰ الجهاد والتعريض للشهادة، والتذكير بأن الحذر لا يؤخر الأجل، وأن الجبان قد يلقىٰ حتفه في مظنة النجاة.

- تفيد أنه لا تنهض أمة بأعباء الجهاد حتىٰ تنزع من نفسها الخوف من الموت.

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين (٥/ ٦٧).

النوع الرابع: النظر في سياق السورة:

فإن لكل سورة غرضها العام وموضوعها الذي من أجله تتابعت جميع الآيات والموضوعات فيها ، وهو بارز في قصار السور، يحتاج إلىٰ دراسات متعمقة في السور الطوال، يقول الشيخ محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثًا من المعاني حشيت حشوًا، وأوزاعًا من المباني جمعت عفوًا؛ فإذا هي -لو تدبرت- بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية علىٰ أسس وأصول، وأقيم علىٰ كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلىٰ طريق، بل ترىٰ بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترىٰ بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامِّ والالتحاق. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلًا، والمختلف مؤتلفًا.

ولماذا نقول: إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحُجُرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائح تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعضاء؛ ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًّا، كما يأخذ

الجسم قوامًا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية»[1].

٣) نماذج من دلالة السياق على الهدايات:

الأمثلة على ذلك كثيرة ونحن ذكرنا جزءًا من ذلك في أنواع السياق، بقي النوع الرابع النظر في الغرض العام الذي تتابعت من أجله جميع الآيات والموضوعات والسورة ومن أمثلة: ما ذكره ابن القيم في دلالة الأمثال التي ذكرت في سورة التحريم، مع دلالة السياق العام للسورة التي وردت فيه فيقول: «ثُمَّ فِي هَذِهِ الْأَمْثَالِ مِنْ الْأَسْرَارِ الْبَدِيعَةِ مَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ السُّورَةِ؛ فَإِنَّهَا سِيقَتْ فِي ذِكْرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ تَظَاهُرِهِنَّ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُنَّ إِنْ لَمْ يُطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُرِدْنَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَمْ يَنْفَعْهُنَّ اتِّصَالُهُنَّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا لَمْ يَنْفَعْ امْرَأَةَ نُوحٍ وَلُوط اتِّصَالهمَا بِهِمَا، وَلِهَذَا إِنَّمَا ضَرْب فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَثَلَ اتِّصَالَ النِّكَاحِ دُونَ الْقَرَابَةِ. قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَلَّامٍ: ضَرَبَ اللهُ الْمَثَلَ الْأَوَّلَ يُحَذِّرُ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمَا الْمَثَلَ الثَّانِيَ يُحَرِّضُهُمَا عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بِالطَّاعَةِ.

وَفِي ضَرْبِ الْمَثَلِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْيَمَ أَيْضًا اعْتِبَارٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّهَا لَمْ يَضُرَّهَا عِنْدَ اللهِ شَيْئًا قَذْفُ أَعْدَاءِ اللهِ الْيَهُود لَهَا، وَنِسْبَتُهُمْ إِيَّاهَا وَابْنَهَا إِلَىٰ مَا بَرَّأَهُمَا اللهُ عَنْهُ، مَعَ كَوْنِهَا الصِّدِّيقَةُ الْكُبْرَىٰ الْمُصْطَفَاةُ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ؛ فَلَا يَضُرُّ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَدْحُ الْفُجَّارِ وَالْفُسَّاقِ فِيهِ. وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ كَانَتْ السُّورَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ قِصَّةِ الْإِفْكِ، وَتَوْطِينُ نَفْسِهَا عَلَىٰ مَا قَالَ فِيهَا

(١) النبأ العظيم (ص: ١٨٨).

الْكَاذِبُونَ إِنْ كَانَتِ قَبْلَهَا، كَمَا فِي ذِكْرِ التَّمْثِيلِ بِامْرَأَةِ نُوحٍ وَلُوطٍ تَحْذِيرٌ لَهَا وَلِحَفْصَةَ مِمَّا اعْتَمَدَتَاهُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأَمْثَالُ التَّحْذِيرَ لَهُنَّ وَالتَّخْوِيفَ، وَالتَّحْرِيضَ لَهُنَّ عَلَىٰ الطَّاعَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالتَّسْلِيَةِ وَتَوْطِينِ النَّفْسِ لِمَنْ أُوذِيَ مِنْهُنَّ وَكُذِبَ عَلَيْهِ، وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ فَوْقَ هَذَا وَأَجَلُّ مِنْهُ، وَلَا سِيَّمَا أَسْرَارُ الْأَمْثَالِ الَّتِي لَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ»[1].

ثالثًا: النظر في المناسبات:

١) أهمية العلم بالمناسبات:

القرآنُ الكريمُ الله تعالىٰ هو الذي أحكمَ ترتيبَ حروفهِ وكلماتهِ وجمله وآياته، وهذا موضع إجماع بين العلماء، قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقد تضافرت الأدلَّةُ التي ترجِّحُ ترتيبَ سورِه كذلك بأنه تمَّ بوحي من اللهِ، فالصحابةُ لم يقدموا آيةً ويؤخروا أخرىٰ، أو يقدموا سورةً ويؤخروا أخرىٰ إلا وفقَ ما سمعوه من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعلموه منه، واستقرَّ عليه القرآنُ في عرضتهِ الأخيرةِ بعد اكتمال نزوله، وقد كان عملُ الصديقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المصاحفِ جمعَها في مكانٍ واحد، وقامَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنسخها في المصاحفِ علىٰ حرفٍ واحد بعد ما وقعَ الاختلافُ بسببِ الأحرفِ التي نزل عليها دون تدخلٍ في تركيبِ آياتهِ وسوره، ولو فعلوا شيئًا في ذلك لنقل إلينا كما نقل غيره؛ خاصةً وأن الترتيبَ متوقفٌ عليه المعنىٰ، ونظمَ حروفهِ وكلماتهِ وآياتهِ وسوره وقع به التحدي والإعجاز.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٤٥).

ولما كان ترتيبُ الآياتِ والسورِ من عند اللهِ تعالىٰ، بدأ العلماءُ يبحثون عن أسرار هذا الترتيبِ وحكمهِ الخاصة، فانتظمَ ذلك في علمٍ عرفَ بعلمِ المناسبات الذي جاء ليبحثَ في عللِ ترتيبِ أجزاءِ القرآن الكريم بين كلماته جملهِ وآياته وسوره، فوجدوا علومًا كثيرةً، وأسرارًا دقيقةً مُكتنزةً فيها، وهي تعتبرُ خزانة للهدايات؛ ولذا قال الرازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[1]، والتمكن منه يجعلُ المتدبرَ صاحبَ قدرةٍ عاليةٍ في استخراجِ الهدايات الجزئية والكلية، فالسورةُ الطويلة المنجمةُ في نزولها، تنسجمُ في مقصدٍ واحد، مع تنوع أساليبها وموضوعاتها، قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْحَثَ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا مُكَمِّلَةً لِمَا قَبْلَهَا أَوْ مُسْتَقِلَّةً، ثُمَّ الْمُسْتَقِلَّةُ مَا وَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا؟ فَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ، وَهَكَذَا فِي السُّوَرِ يُطْلَبُ وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سِيقَتْ له»[2]. وهو موضوعٌ مهمٌ لا يخفىٰ دورُه في الوصولِ لكثيرٍ من الهدايات علىٰ المختصين.

٢) أنواعُ المناسبات:

المناسباتُ التي يدرسُها العلماءُ ويستخرجون منها هداياتٍ كثيرةً تنقسمُ من حيث العمومُ إلىٰ قسمين هما:

الأول: مناسباتٌ بين أجزاءِ السورة الواحدة:

وهذه لها أنواعٌ كثيرة منها: مناسبة اسم السورة لموضوعها، ومناسبة مطلع السورة لمقصدها العام؛ وذلك ما يسمىٰ ببراعة الاستهلال، ومناسبة

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٤٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٧).

ترتيب آيات السورة مع بعضها وتناسقها وتلاحمها، ومناسبة فاتحة السورة لخاتمتها، والمناسبة بين موضوعات الآية الواحدة، ومناسبة فواصل الآية للآية التي ختمت بها، والمناسبة بين موضوعات السورة وموضوعها الكلي، وغيرها من الأنواع.

والثاني: المناسبات بين السور: وهذه كذلك أنواع منها: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، ومناسبة ختام السورة لمطلع السورة التي تليها، ومناسبة مطلع السورة لمطلع التي تليها، ومناسبة فواتح وخواتم عدد من السور المتوافقة فيما بينها في المقصد، والمناسبة بين موضوعات السورة وما سبقها، والمناسبة بين موضوعات السورة وما تلاها وغيرها.

٣) نماذج من دلالة المناسبات على الهدايات:

هذا الموضوع نماذجه أكثر من أن تحصر نوعًا، وما هو موجود في كتب التفسير يحتاج أن يفرد بدراسات، ليس في تتبع المناسبات وما قيل فيها، وإنما في استثمارها في الدلالة على الهداية؛ ولذا سوف نكتفي ببعض النماذج والأمثلة بما يناسب طبيعة الدراسة.

النموذج الأول: دلالة مناسبة اسم السورة لموضوعها:

موضوع سورة الفاتحة تحقيق العبودية لله تعالىٰ، وهو المناسب لأسمائها التي منها: (أم الكتاب، وأم القرآن، القرآن العظيم، الذي ذلك هو مقصده)، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسميت «فاتحة الكتاب»، لأنها يفتتح بكتابتها المصاحف، ويقرأ بها في الصلوات، فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة. وسميت «أم القرآن» لتقدمها علىٰ سائر سور القرآن غيرها، وتأخر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة. وذلك من معناها

شبيه بمعنىٰ فاتحة الكتاب. وإنما قيل لها -بكونها كذلك- أم القرآن، لتسمية العرب كل جامع أمرًا -أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه، هو لها إمام جامع- «أمًّا». فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: «أم الرأس». وتسمىٰ لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش - «أما»»[١].

النموذج الثاني: دلالة مناسبة خاتمة السورة لفاتحة ما يليها:

مثال ذلك ختام سورة الفاتحة بالدعاء العظيم وهو الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، ثم افتتحت البقرة بالحديث عن أن القرآن هدىٰ للمتقين، فاستفاد العلماء من ذلك أنَّها بيان لما سألوه، قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت الأستاذ أبا جعفر بن إبراهيم بن الزبير شيخنا يقول: ذلك إشارة إلىٰ الصراط في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾، كأنَّهم لما سألوا الهداية إلىٰ الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب. وبهذا الذي ذكره الأستاذ تبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد»[٢].

ومثله ختام سورة البيِّنة بقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، مع بداية سورة الزلزلة، يقول ابن عادل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجه المناسبة بين أول السُّورة وآخر السورة المتقدمة، أنه تعالىٰ لما قال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فكأن المكلف قال: ومتىٰ يكون ذلك؟ فقيل له: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾»[٣].

(١) جامع البيان (١/ ١٠٧).

(٢) البحر المحيط (١/ ٢١).

(٣) اللباب في علوم الكتاب (٢٠/ ٤٤٤).

النموذج الثالث: دلالة المناسبة بين آيات السورة:

مناسبة ترتيب آيات السورة بعضها مع بعض وتناسقها وتلاحمها: مثال ذلك سورة النصر: لما ختمت السورةُ السابقةُ بالأمرِ بمتاركةِ ومفاصلةِ الكافرين بصورةٍ حاسمة، كأنه قيل: فهل يحصلُ نصرٌ عليهم وظفرٌ بهم، فأجابَ بهذه السورةِ بشارةً للمؤمنين، ونذارةً للكافرين، فقال تعالىٰ تحقيقًا وتعجيلًا للبشارةِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ولما كان النصرُ درجات، وكان أكملُه ما يتبعه من الفتحِ قال: ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾، ولما بشرَ بهما زادَ في البشارةِ ببيانِ رؤيةِ ما يترتبُ عليهما فقال: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾، ولما بيَّن له كمالَ نعمتهِ عليه بيّن له ما يجبُ عليه من الأمرِ بتنزيههِ عن كلِّ نقص، ووصفهِ بكلِّ كمال، وحمدِه علىٰ جزيل عطائه فقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، ولما أمرَه بما يعجزُ العبدُ عن الوفاءِ بحقه، ويعجزُ غيرُه من بابِ أولىٰ به أمره بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾، ولمَّا أمر بذلك علَّله وشجعه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. وقد جاءت مناسباتٌ في هذه السورةِ الكريمة دقيقةٌ محكمة، حيث جعلَ كلَّ جملةٍ منها مقدمةً لما بعدها، فلمَّا كان النصرُ هو الإعانة علىٰ تحصيلِ المطلوب، والفتحُ هو تحصيل المطلوب بدأ بذكرِ النصرِ، وعطفَ الفتحَ عليه، ولما كان دخولُ الناسِ في دينِ اللهِ أفواجًا مترتبًا عليه جاء بعده، ولما كملَ نعمَه عليه أمرَه بما يجبُ عليه في مقابلِ نعمه، ولما كان الشكرُ يبدأ بشهودِ الجلالِ والكمالِ بدأ به، ثم ثنىٰ بحمده الذي يشيرُ إلىٰ شهودِ نعمهِ ومعرفةِ إحسانه وإكرامه، ولما كان شهودُ كمالهِ وإدراك فيضِ نعمهِ وإحسانه يوصلان العبدَ لشهودِ تقصيرِه جاء الأمرُ باستغفاره[١].

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٨/ ٨٢٨).

النموذج الرابع: دلالة مناسبة مطلع السورة أو خاتمتها لموضوعاتها:

هنالك تناسب وتناسق عجيب بين افتتاحية السورة وما حوته من موضوعات، وهو ما يسمىٰ ببراعة الاستهلال، أو بين خاتمة السورة وموضوعاتها يستفيد منه العلماء فوائد كثيرة. مثال الأول: افتتاحية سورة الفرقان لموضوعاتها في قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] حيث دارت محاور السورة في خمس موضوعات، تضمنت في مطلها، وهي: (بيان عظمة الله المستحق للعبادة في قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ﴾، الحديث عن عظمة القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، بيان منزلة الرسول المرسل وموقف الناس من رسالته، في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، والحديث عن المدعوِّين وموقفهم مما دعاهم إليه القرآن مع الحديث عن عظمة اليوم الآخر الذي جاء القرآن والرسل للإنذار من هوله، وهذا ما أشارت إليه الآية في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ومثال الثاني في المناسبة بين موضوعات السورة وخاتمتها، سورة الشعراء التي كانت في الحديث عن مصارع القوم الظالمين، فجاءت الموعظة البليغة في خاتمتها في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

النموذج الخامس: دلالة مناسبة موضوعات الآية:

مثال الأول ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

مستنبطًا عددا من الفوائد بسبب المناسبة بين الموضوعين في الآية: ((اعلم أنه تعالىٰ أمر بعبادة نفسه، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالىٰ وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالىٰ وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري.

الوجه الثاني: أن الموجود إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «التعظيم لأمر الله والشفقة علىٰ خلق الله»[١] وأحقّ الخلق بصرف الشفقة إليه هو الأبوان لكثرة إنعامهما علىٰ الإنسان فقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إشارة إلىٰ التعظيم لأمر الله وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إشارة إلىٰ الشفقة علىٰ خلق الله.

الوجه الثالث: أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد يكون أحد من المخلوقين منعمًا عليك، وشكره أيضًا واجب لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)[٢] وليس لأحد من الخلائق نعمة علىٰ الإنسان مثل ما للوالدين؛ وتقريره من وجوه:

---

(١) لم أجد له تخريجاً في كتب السنة، وقد ذكره ابن حجر في الفتح ولم ينسبه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتح الباري (٦/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود ح رقم ٤٨١١، والترمذي ح رقم ١٩٥٤، وأحمد في المسند ح رقم ١١٧٠٣، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني في تعليقه عليه: صحيح لغيره ، وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه علىٰ المسند: حديث صحيح لغيره.

أحدها: أن الولد قطعة من الوالدين، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فاطمة بضعة مني»[١].

وثانيها: أن شفقة الأبوين علىٰ الولد عظيمة، وجدهما في إيصال الخير إلىٰ الولد كالأمر الطبيعي، واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي، ومتىٰ كانت الدواعي إلىٰ إيصال الخير متوفرة، والصوارف عنه زائلة لا جرم كثر إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين علىٰ الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلىٰ إنسان.

وثالثها: أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز، يكون في إنعام الأبوين فأصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة إليه، وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة إلىٰ الوالدين في ذلك الوقت، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعًا علىٰ هذا الوجه كان موقعه عظيمًا.

ورابعها: أن إيصال الخير إلىٰ الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض، وإيصال الخير إلىٰ الولد ليس لهذا الغرض فقط. فكان الإنعام فيه أتمّ وأكمل، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة علىٰ غيره مثل ما للوالدين علىٰ الولد، فبدأ الله تعالىٰ بشكر نعمة الخالق وهو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب: أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،باب: بَاب مَنَاقِبِ قَرَابَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْقَبَةِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام بِنْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ح رقم٣٧١٤، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فَضَائِلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ النبي عَلَيْهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ح رقم ٦٤٦١.

وهو قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ والسبب فيه ما بيّنا أنَّ أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين »[١].

النموذج السادس: دلالة مناسبة مضمون الآية لحال المخاطبين:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٣١]. «فقدّم رزق الآباء في الآية الأولىٰ علىٰ الأبناء، وفي الثانية قدم رزق الأبناء علىٰ الآباء؛ وذلك لأن الكلام في الآية الأولىٰ موجه إلىٰ الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه، فأوجبت البلاغة تقديم عِدتهم بالرزق تكميل العدة برزق الأولاد.

وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنىٰ فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر. فقل: لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم أي أن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر»[٢].

ومثل ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨] فقدم القتل علىٰ الموت في الآية الأولىٰ، وقدم

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٣).

(٢) أسرار البيان في التعبير القرآني (ص: ٤٢).

الموت في الآية التي تليها وسبب ذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر في الآية الأولىٰ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الجهاد قدم القتل إذ هو المناسب؛ لأن الجهاد مظنة القتل، ثم هو الأفضل أيضًا ولذا ختمها بقوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله.

ولما لم يقل في الثانية: (في سبيل الله) قدم الموت علىٰ القتل؛ لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ إذ الميت والمقتول كلاهما يحشرُهُ الله إليه. فشتان ما بين الخاتمتين. فلم يزد في غير الشهيد ومن مات علىٰ أن يقول: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ، وقال في خاتمة الشهيد: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق(١).

والمناسبة في بعض الآيات ظاهرة والهداية منها كذلك ظاهرة في موضوع المقابلات أو مواضع التفسير والتأكيد والبدل وغيرها، كما في قوله تعالىٰ في المفسرة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١]، وفي البدل كقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وكلما غمضت المناسبة وتأملها الباحث ظهرت له طرافة الهداية من خلالها، وهذا موضوع تفنىٰ فيها أعمار الرجال، ولا يبلغون فيه ملء قنطار، والله المستعان.

وهنالك أمثلة كثيرة لهدايات عديدة استخرجها العلماء من خلال المناسبة بين الآيات أو الموضوعات في السورة الواحدة، وبين فواتح السور

---

(١) المصدر السابق (ص: ٦٧).

وخواتيمها؛ بل حتىٰ بين موضوعات السورة وفاتحتها أو خاتمتها؛ بل حتىٰ بين الفواتح المتشابهة كسورة النساء، والحج التي افتتحت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والأولىٰ كانت عن بداية الخلق والثانية كانت عن نهايته، وبين المطففين والهمزة التي افتتحت بالويل، الأولىٰ في ظلم الناس في أموالهم والثانية في ظلمهم في أعراضهم، وغيرها مما تحدث عنه العلماء.

السياق والمناسبة

اللفظ المفرد
- فهم معناه المجرد
- فهم معناه في سياق الجملة

الجملة
- فهم الجملة مع ما قبلها
- فهم الجملة مع ما بعدها

الآية
- فهم الآية مع ما قبلها
- فهم الآية مع ما بعدها

المناسبة
- تناسب أواخر الآيات
- تناسب بين الآيات
- تناسب السور

إطار النظم القرآني

رابعًا: التأمل في ورود أسماء الله الحسنى وختمها للآيات:

١- أهمية موضوع أسماء الله الحسنى في السورة والآية:

علمُ الأسماءِ الحسنىٰ والصفاتُ العلىٰ لله تعالىٰ من أشرفِ علومِ التوحيدِ والإيمان، ومما يلفت نظرَ القاري وهو يتدبرُ كتاب اللهِ تعالىٰ لاستخراجِ هداياتِهِ ورود أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ وصفاتِهِ العلىٰ في السورة،

وختم كثيرٍ من الآياتِ بها، وهي في غايةِ الانسجامِ مع موضوعات السورة وهداياتِ الآية؛ بل هي جاءت لتهدي لهداياتٍ جديدة في السورة والآية؛ وتجعل للهدايةِ أثرَها في قلوب المؤمنين، وهي وإن كانت في جزء منها نوعًا من الأنواعِ التي تدرس في علمِ المناسبات، لكن العلماءَ أفردوها بالدراسةِ لأهميتِها ولما فيها من فوائدَ وهداياتٍ كثيرة مختزنةٍ فيها.

٢- أنواع ورود أسماء الله تعالى:

وهذا موضوع طويل يحتاج أن تفرد له المؤلفات، ولا ينقطع فيه نظر العلماء، وأسراره لا تنقضي، وحكمه لا تنتهي، وأنواعه كثيرة، وأمثلته عديدة؛ ولكن في الجملة يمكن تقسيمه إلىٰ نوعين:

النوع الأول: ورود أسماء الله الحسنىٰ في الآية.

النوع الثاني: ورود أسماء الله الحسنىٰ في السورة.

وفي كل نوع أنواع وأمثلة عديدة.

٣) أمثلة ونماذج من دلالات ورود الأسماء الحسنى على الهدايات:

أ- أمثلة لدلالة ورود أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ وصفاته العلىٰ في الآية:

النوع الأول: دلالة اقتران صفةٍ واحدةٍ من صفاتهِ جل وعلا: كما في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكثيرا ما يقرنُ بين خلقهِ وإثباتِ علمه كما في هذه

الآية، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لأنَّ خلقَه للمخلوقاتِ أدلُّ دليلٍ علىٰ علمهِ، وحكمتهِ، وقدرته»[١].

النوع الثاني: دلالة اقتران اسمين أو صفتين من صفاته: كاقتران اسم الرحمن بالرحيم في سورةِ الفاتحة، في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الجمعُ بين الرحمنِ الرحيم ففيه معنىً هو أحسنُ من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمنَ دالٌّ علىٰ الصفةِ القائمةِ به سبحانه، والرحيمُ دالٌّ علىٰ تعلقِها بالمرحوم، فكان الأولُ للوصف، والثاني للفعلِ، فالأولُ دالٌّ أن الرحمةَ صفتُه، والثاني دالٌّ علىٰ أنه يرحمُ خلقَه برحمته، وإذا أردت فهمَ هذا فتأمل قولَه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولم يجيء قط رحمنٌ بهم، فعُلم أن الرحمنَ هو الموصوفُ بالرحمةِ ورحيمٌ هو الراحمُ برحمتهِ، وهذه نكتةٌ لا تكادُ تجدها في كتابٍ وإن تنفست عندها مرآةُ قلبك لم تنجل لك صورتُها»[٢].

فالعلماءُ إما يدرسون وجه العلاقةِ بينهما كما في المثال السابق، أو سبب تقديمِ أحدِهما علىٰ الآخرِ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل في ذكرِ الرحيمِ بعده إشارةً إلىٰ أنَّ قبولَ التوبةِ ليس علىٰ سبيلِ الوجوبِ كما زعمت المعتزلة؛ بل علىٰ سبيلِ الترحُّمِ والتفضُّل، وأنَّه الذي سبقت رحمتُه غضبَه، فيرحمُ عبده في عينِ غضبه، كما جعل هبوطَ آدمَ سببَ ارتفاعه، وبعده

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٤٨).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢٤).

سببَ قربه، فسبحانه من توَّابٍ ما أكرمه، ومن رحيمٍ ما أعظمه»(١).

وقد يدرسون علاقتهما بمعاني وهدايات الآية كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤]. ففي ختم الآية بالاسمين الكريمين العلي والكبير فوائد؛ ومن ذلك: توجيه الرجل إلىٰ عدم البغي والعلو علىٰ المرأة بغير حق، وتذكيره بالعلي الأعلىٰ، والكبير المتعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما يفيد التحذير من الظلم والبغي بتذكر قدرته سبحانه، كما فيه إثبات صفة العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه أكبر من كل شيء؛ وفي الإيمان بذلك ما يملأ القلب إجلالًا، وتعظيمًا، وطاعةً لله.

النوع الثالث: دلالة اقتران عددٍ من أسمائهِ وصفاته جل وعلا:

كما جاء في سورة الفاتحة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢، ٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو يتحدث عن اقران اسم «الله، والرب، والرحمن: «وَأَمَّا الرَّحْمَةُ فَهِيَ التَّعَلُّقُ، وَالسَّبَبُ الَّذِي بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَالتَّأْلِيهُ مِنْهُمْ لَهُ، وَالرُّبُوبِيَّةُ مِنْهُ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ سَبَبٌ وَاصِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، بِهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبِهَا هَدَاهُمْ، وَبِهَا أَسْكَنَهُمْ دَارَ ثَوَابِهِ، وَبِهَا رَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ سَبَبُ

---

(١) روح المعاني (١/ ٢٨١).

الْعُبُودِيَّةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَبَبُ الرَّحْمَةِ»[١].

مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر ٢٣، ٢٤]، حيث ضمن كل اسم من صفات المدح ما تضمن لوحده، وفي اقترانها ببعضها دلالات كثيرة في الهداية[٢].

ب- مثال لورود أسماء الله تعالىٰ في السورة:

فقد ورد في سورة الحاقة اسم الله تعالىٰ «العظيم»، وورد في ختامها في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وقد ذكر سبب أخذ الكافر لكتابه بشماله، وبيان سوء حاله في السورة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، ومن تأمَّل في السورة من أولها إلىٰ آخرها وجد معاني العظمة تفيض فيها، ومن أيقن بعظمته أيقن بكل ما تحدثت عنه السورة من قدرته علىٰ البعثِ، وعلىٰ جزاءِ عبادِهِ، وعلىٰ عظمةِ كلامِهِ، وعلىٰ أنه لا يقدر أحدٌ الافتراء عليه، وقد ظهرت العظمة في كيفية أخذه للمكذبين، وفي ما بيَّنه من عظيم ما يحدث يوم الدين، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥٨).

(٢) فصَّل في ذلك الإمام الطاهر بن عاشور يرجع إليه في تفسيره «التنوير والتحرير»(٣٦/ ٢٨٥)، مثال ذلك يقول: «وعقب بـ(القدوس) وصف (الملك) للاحتراس إشارة إلىٰ أنَّه منزه عن نقائض الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائض النفوس.

وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾
وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٨]،
ومن خلال ما ذكره من القسم العظيم، واستحالة أن يفتري عليه أحد من العالمين: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا
هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٧].

وهو موضوعٌ واسعٌ يحتاجُ إلىٰ تأملاتٍ كبيرةٍ فيما أفرد من أسمائه جل وعلا، وجمع، وفيما تفرَّدت به كل سورةٍ من أسماءٍ وصفات؛ لأنه يحملُ كثيرًا من الهداياتِ العلمية والعملية.

خامسًا: النظر في أوجه الإعراب المحتملة:

١- أهمية الإلمام بأوجه الإعراب المحتملة:

إنَّ الإعراب هو ركن المعنىٰ، وهو علم غزير الفوائد واسع الدلالات لا يستغني عنه باحث في الهدايات، ومن هنا كثرت فيه كتابات العلماء، وقد تحدَّث عنه السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النوع الحادي والأربعون فقال: «أفرده بالتصنيف خلائق منهم مكي وكتابه في المشكل خاصة، والحوفي؛ وهو أوضحها، وأبو البقاء العكبري؛ وهو أشهرها، والسمين؛ وهو أجلها علىٰ ما فيه من حشو وتطويل، ولخَّصه الصفاقسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فحرَّره، وتفسير أبي

حيان مشحون بذلك. ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنىٰ؛ لأن الإعراب يميِّزُ المعاني ويوقف علىٰ أغراض المتكلمين»[(١)].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنَّ آثار الإعراب عديدة الحصىٰ، ومن لم يتق الله في تنزيله، فاجترأ علىٰ تعاطي تأويله، وهو غير معرب: فقد ركب عمياء، وخبط عشواء، وقال ما هو تقول وافتراء وهراء، وكلام الله منه براء»[(٢)].

وقال مكي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في مقدمة كتابه المجتبىٰ من مشكل إعراب القرآن الكريم: «ورأيت من أعظم ما يجب علىٰ طالب علوم القرآن، الراغب في تجويد ألفاظه، وفهم معانيه، ومعرفة قراءاته ولغاته، وأفضل ما القارئ إليه محتاج معرفة إعرابه والوقوف علىٰ تصرُّف حركاته وسواكنه؛ ليكون بذلك سالمًا من اللحن فيه، مستعينًا علىٰ إحكام اللفظ به، مطلعًا علىٰ المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات، متفهمًا لما أراد الله تبارك وتعالىٰ به من عباده؛ إذ بمعرفة حقائق الإعراب تُعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويُفْهَم الخطاب، وتصحُّ معرفة حقيقة المراد»[(٣)].

فعلوم القرآن لا يكتمل معرفتها إلا بعلوم اللغة العربية، وكلاهما مكمل للآخر، فالقرآن مصدر اللغة الأول، ولغة العرب هي الأساس الذي بنىٰ عليه العلماء فهم القرآن الكريم، بل الكثير من خلافات المفسرين والفقهاء قائمة علىٰ اختلافات نحوية، قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيًّا علىٰ علم الإعراب، والتّفاسيرَ مشحونةً بالرّوايات

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٨).

(٢) المفصل في صنعة الإعراب (١/ ٤).

(٣) المجتبىٰ من مشكل إعراب القرآن الكريم (١/ ٧).

عن سيبويه والأخفش والكسائيّ والفرّاء وغيرهم من النّحويّين البصريّين والكوفيّين، والاستظهار في مآخذ النّصوص بأقاويلهم، والتّشبّث بأهداب تأويلهم، وبهذا اللِّسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم، وبه تقطر في القراطيس أقلامهم»(١)، وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلىٰ الناظر في كتاب الله الكاشف عن أسراره النظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبرًا أو فاعلة أو مفعولة أو في مبادئ الكلام أو في جواب إلىٰ غير ذلك من تعريف أو تنكير أو جمع قلة أو كثرة إلىٰ غير ذلك»(٢).

٢) أثر الإعراب في تنوع المعاني:

الإعراب في حقيقته هو بيانُ ما للكلمةِ في الجملةِ مِنْ قيمةٍ نحويَّةٍ، أو معنىً إعرابيٍّ، ولذلك جعله ابن جني رَحِمَهُ ٱللَّهُ : دليلًا علىٰ اختلاف المعاني بقوله: «ألا ترىٰ أنّ موضوع الإعراب - علىٰ مخالفة بعضه من حيث كان - إنّما جيء به دالًا علىٰ اختلاف المعاني»(٣)، فعلامات الإعراب تقوم علىٰ تغيّر المعنىٰ في أثناء الكلام، وقد وُضِعتْ للّفظ المفرد؛ لتكون دليلًا علىٰ موقعه من الكلام، أو علامة قرائيّة لبيان المعنىٰ، وهي ميزة للغة العربية؛ لأنّها في حقيقتها ضربٌ من ضروب الإيجاز، فقد تكون الإبانة بالحركات أو بالسكون أو بالحذف أو بالحرف أو بالتنوين أو حذفه(٤).

---

(١) المفصّل في علم العربيّة، (ص:٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن ط المعرفة (١/ ٣٠٢).

(٣) الخصائص لابن جنّي (١/ ٢).

(٤) انظر: قضايا مطروحة للمناقشة في النّحو واللّغة والنّقد، د. سعيد جاسم الزّبيديّ (ص:٧٤)، ونحو وعي لغوي، د. مازن المبارك(ص:٥١)، وابن جني النحوي، د. فاضل السامرائي

فليس هنالك انفصال في اللغة بين الإعراب والمعنىٰ، قال الزجاجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإعرابُ إنَّما دخل الكلامَ ليفرّقَ بينَ الفاعلِ والمفعول، والمالكِ والمملوك، والمضاف إليه، وسائر ما يَعْتَورُ الأسماء من المعاني»[(١)]؛ والإعراب عند ابن جنّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترىٰ أنَّكَ إذا سمعت «أكرمَ سعيدٌ أباه»، و «شكرَ سعيدًا أبوه»، علمْتَ برفعِ أحدهما ونصبِ الآخر، الفاعلَ من المفعول، ولو كان الكلام شرجًا واحدًا، لاستبهمَ أحدُهما من صاحبِهِ»[(٢)]؛ وهو عند السّكاكيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مرتبطٌ في جميع جزئيّاته بالمعنىٰ؛ إذ به توجّه المعاني وتعرف الدّلالات، وذلك بقوله: «إنَّ كلَّ واحدٍ من وجوه الإعراب دالٌّ علىٰ معنىً، كما تشهد لذلك قوانينُ علمِ النّحْو»[(٣)].

ومما يدلُّ علىٰ أهميَّة علم الإعراب أنَّه وضع لضبط المعنىٰ كما جاء في الأثر: كتب مُعَاوِيَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إِلَىٰ زِيَاد يطْلب عبيد الله ابْنه، فَلَمَّا قدم عَلَيْهِ كَلَّمه فَوَجَدَهُ يلحن فَردَّه إِلَىٰ زِيَاد، وَكتب إِلَيْهِ كتابًا يلومه فِيهِ، وَيَقُول أمثل عبيد الله يضيع، فَبعث زِيَاد إِلَىٰ أبي الْأسود - رحمهما الله - فَقَالَ: يَا أَبَا الْأسود إِنَّ هَذِه الْحَمْرَاء قد كثرت وأفسدت من ألسن الْعَرَب، فَلَو وضعت شَيْئًا يصلح بِهِ النَّاس كَلَامهم، ويعربون بِهِ كتاب الله تَعَالَىٰ، فَأبىٰ ذَلِك أَبُو الْأسود، وَكره إِجَابَة زِيَاد إِلَىٰ مَا سَأَلَ، فَوجَّه زِيَاد رجلًا فَقَالَ لَهُ: اقعد فِي طَرِيق أبي الْأسود، فَإِذا مر بك فاقرأ شَيْئا من الْقُرْآن، وتعمَّد اللّحن فِيهِ، فَفعل ذَلِك فَلَمَّا مر بِهِ

(ص:٩)، وأثر تعدد الآراء النحوية في تفسير الآيات القرآنية للدكتور سامي عوض (ص: ٨).

(١) الإيضاح في علل النّحو، للزجاجي (ص:٧٦).

(٢) الخصائص، لابن جنّي، (ص:٣٥).

(٣) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السّكاكيّ(ص: ٢٥١).

أَبُو الاسود رفع الرجل صَوته فَقَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾ بكسر اللام من رسوله؛ فاستعظم ذَلِك أَبُو الْأسود، وَقَالَ: عز وَجه الله أَن يبرأ من رَسُوله، ثمَّ رَجَعَ من فوره إِلَىٰ زِيَاد، فَقَالَ: يَا هَذَا قد أَجَبْتُك إِلَىٰ مَا سَأَلت...»[١]، فالكلامُ واحدٌ، ولم يتغيّر فيه إلاّ حركةُ الّلام؛ فإذا حُرّكت بالجرِّ أدّىٰ إلىٰ الخروج عن المعقول والعقيدة، وإذا حُرّكت بالرّفع أدّىٰ إلىٰ معنىً مستقيمٍ لا لبسَ فيه ولا إنكار؛ فهل كانوا يرون ذلك، وهم يظنّون أنَّ حركاتِ الإعراب لا تدلّ علىٰ معنىً، ولا أثرَ لها في تصوير المفهوم؟![٢].

والملاحظ أن هنالك اختلافات كثيرة في إعراب القرآن، وتعدّد المعاني النّاتجة عن تلك الاختلافات وتنوعها في كتب إعراب القرآن وكتب التّفسير، وقد أرجع الأستاذ عضيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك إلىٰ أمرين: «الأول: أسلوب القرآن معجز، لا يستطيع أحدٌ أن يحيط بكلّ مراميه ومقاصده، فاحتمل كثيرًا من المعاني وكثيرًا من الوجوه.

والثاني: يحتفظ النّحويّون لأنفسهم بحريّة الرّأي وانطلاق الفكر، فلا يعرفون الحجر علىٰ الآراء، ولا تقديس رأي الفرد، مهما علت منزلته»[٣]؛ وهذا يعني أنّ اختلاف النَّحْويّين في إعراب آيةٍ ما ينعكس علىٰ اختلاف في فهم معناها واكتشافه ومِنْ ثَمَّ إدراكه، ممّا يستوجبُ توفّر القدرة اللغويّة لدىٰ المفسّر في هذا الحقل من علوم اللغة، ولا سيّما أنّ مساحة هذا المجال في

---

(١) المحكم في نقط المصاحف لأبي عمر الداني (ص: ٣).

(٢) أثر تعدد الآراء النحوية في تفسير الآيات القرآنية (ص:١٠).

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمّد عبد الخالق عضيمة (١/ ١٤).

القرآن الكريم واسعة وذات أثر مهمّ[(١)].

وقد كان للاختلاف النَّحو المعتبر أثره علىٰ تعدد المعاني وتنوُّع الدلالات، واختلف بسببه الفقهاء والمفسرون، وكتبت حوله المؤلفات القديمة والحديثة، وكثير من هذه الاختلافات النَّحوية معتبرة؛ ولذا فإن فهم معاني الآيات ومعرفة هداياتها لا يتوقف فقط علىٰ معرفة الغريب من ألفاظها؛ بل يحتاج إلىٰ معرفة عميقة لإعرابها بعد فهم تراكيبها، وفي باب الهدايات يحتاج المفسر إلىٰ علم أوسع لتوجيه تلك الاختلافات المعتبرة علىٰ أوجه متنوعة في الدلالة لعلها تكون جميعها مقصودة في كلام الله المعجز في بيانه.

٣) أمثلة لأثر دلالة الإعراب على الهدايات:

بتعدد وجوه الكلمة والجملة تتنوع أوجه الفوائد والهدايات، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة، ولكن هذا الاختلاف ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: اختلاف في القراءات اختلف بسببه الإعراب:

وهذا قد استوعبته كتب توجيه القراءات ومن اهتم بذلك من المفسرين، وكل إعراب يوجه نحو معنًىٰ معين، فلا يكفىٰ بمعنىٰ دون آخر مما دلت عليه القراءة الأخرىٰ، كما لا يجوز أن يرجح معنًىٰ علىٰ آخر ما دامت القراءة صحيحة ثابتة، وهذا النوع ذكر له ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلة متعددة في كتابه فقال: كقوله: «﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] علىٰ طريق الدعاء والمسألة، و«ربّنا بَاعَدَ بين أسفارنا» علىٰ جهة الخبر ، والمعنيان وإن اختلفا صحيحان؛ لأن أهل سبأ سألوا اللّه أن يفرّقهم في البلاد فقالوا: (رَبَّنا

---

(١) انظر: أثر تعدد الآراء النحوية في تفسير الآيات القرآنية (ص:١١).

باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا) فلمَّا فرَّقهم اللّه في البلاد أيادي سبأ ، وباعد بين أسفارهم ، قالوا: (ربّنا باعَد بين أسفارنا) وأجابنا إلىٰ ما سألنا ، فحكىٰ اللّه سبحانه عنهم بالمعنيين في غرضين.

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قال لَقَدْ عَلِمْتُ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]... فقال موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مرّة: لقد علمتُ ما هي سحر ولكنها بصائر ، وقال مرّة: لقد علمتَ أنت أيضا ما هي سحر ، وما هي إلا بصائر. فأنزل اللّه المعنيين جميعا...»(١).

الثاني: اختلاف في الإعراب بسبب تعدد الآراء النحوية:

هنالك اختلافات كثيرة في كتب الإعراب والمعاني والتفسير ترجع إلىٰ تعدد المدارس النحوية، واجتهادات علماء اللغة والتفسير في إعراب بعض الكلمات والجمل، وهي خلافات معتبرة، لها أثرها الكبير علىٰ المعاني والدلالات، وأمثلتها كثيرة جدًا(٢)، منها:

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٣٣)، وقد ذكر نماذج كثيرة يرجع إليه.

(٢) يراجع في ذلك كتاب: أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم، دراسة تطبيقية علىٰ سورة التوبة ويونس وهود ويوسف، للطالب أمجد وفيق أبو مطر، وهي رسالة ماجستير، بالجامعة الإسلامية، بغزة، نوقشت في كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلومه، بإشراف الأستاذ الدكتور يوسف حمدان اللوح، عام ١٤٣٢هـ فقد ذكر فيها عشرات الأمثلة والنماذج، ورسالة الأثر العقدي في تعدد توجيه الإعراب لآيات القرآن الكريم جمعًا ودراسة، للشيخ محمد عبد الله السيف، الناشر: دار التدمرية ، الرياض، وأصل الكتاب رسالة دكتوراة في قسم النحو والصرف وفقه اللغة بكلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وغيرهما كثير.

المثال الأول: في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. فكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾: إما أن تكون مبتدأ، أو خبرًا لمبتدأ محذوف، وعلىٰ الوجهين تتنوع الدلالات.

فعلىٰ أنه مبتدأ يكون المعنىٰ: «أي: ذلك التثبت والتشمر؛ لظهور البراءة؛ ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ العزيز؛ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بظهر الغيب في حرمته»[1]. فيكون أظهر أنه من قول يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وعلىٰ أنه خبر: يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، الأمر ذلك، وهو الإقرار والاعتراف بالحق الذي صرحت به عن براءته ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وهذا أظهر أنه من كلام امرأة العزيز[2].

فهذا اختلاف في الإعراب نتج عنه اختلاف في المعنىٰ، أدَّىٰ إلىٰ الاختلاف في قائل هذه الجملة.

المثال الثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]: في إعراب: ﴿أَن يُفۡتَرَىٰ﴾ وجهان:

الأول: في محل نصب خبر كان، وذلك بتقدير المصدر (افتراء) أي: وما كان القرآن افتراء.

الثاني: في محل جر بـ(لا الجحود المحذوفة المقدرة)، أي: ما كان ليفترىٰ[3].

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٧٩).

(٢) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٠٥)، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢١٦)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٤).

(٣) وهناك وجوه أخرىٰ، انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري (٢/ ٦٧٥).

وعلىٰ الوجه الأول يكون المعنىٰ: خبر قاطع بنفي الافتراء عن القرآن، فلا يصح أن يكون هذا القرآن الكريم مفترىٰ، أي مختلق من عند البشر.

وعلىٰ الثاني يكون المعنىٰ: ما كان هذا القرآن ممكنًا ليفترىٰ، فلا يستطيع أحد أن يفتريه، وفيه معنىٰ التحدي[1]، وعلىٰ هذا يكون خبر كان محذوفًا، وأن وما بعدها متعلقة بذكر الخبر.

المثال الثالث: الاختلاف بسبب التقديم والتأخير في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فاختلاف العلماء في هذه الجملة، هل يوجد فيها تقديم وتأخير أو لا، قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأكثر المتأولين علىٰ أنَّ الكلام إلىٰ آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين، ويكون ذلك من قول الرسول علىٰ طلب استعجال النصر لا علىٰ شك ولا ارتياب، و«الرسول» اسم الجنس وذكره الله تعظيمًا للنازلة التي دعت الرسول إلىٰ هذا القول[2]»[3]، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتىٰ يقول الذين آمنوا متىٰ نصر الله، فيقول الرسول: ألا إنَّ نصر الله قريب، فقدّم الرسول في الرتبة لمكانته، ثم قدّم قول المؤمنين؛ لأنَّه المتقدم في الزمان»[4].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦٤٥)، ومفاتيح الغيب (١٧/ ١٠٠)، والبحر المحيط (٥/ ١٥٨).

(٢) فيكون علىٰ هذا أن جملة (ألا إن نصر الله قريب) من قول الله تعالىٰ.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٧٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٥).

المثال الرابع: هو اختلاف في الإعراب نتج عنه اختلاف في الوقف حصل بسببه تعدد المعنىٰ والهداية:

مثال ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، فقد اختلف العلماء في الواو في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ هل هي عاطفة أم استئنائية، فمن يرىٰ أنَّها استئنافية يقف عند قوله ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويكون المعنىٰ أن المتشابه عنده هو الكلام الذي لا يصل فهم الناس إلىٰ تأويله، وكان ما بعده ابتداء كلام يفيد أن الراسخين يفوضون فهمه إلىٰ الله تعالىٰ.

ومن يرىٰ أنَّها عاطفة فهو يصل قوله تعالىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بما بعده ويكون المعنىٰ عنده أنَّ الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه في حال أنَّهم يقولون آمنَّا به(١).

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه للعلماء من التفسير وكل واحد منها لا مصداق في كتاب الله تعالىٰ:

الأول: أن المعنىٰ، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ، أي وهو الإله المعبود في السماوات والأرض، لأنه جل وعلا هو المعبود وحده بحق في الأرض والسماء، وعلىٰ هذا فجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ حال، أو خبر وهذا المعنىٰ يبينه...

(١) انظر: المصدر السابق (١/ ٨٢).

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يتعلق بقوله: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ﴾، أي: وهو الله يعلم سركم في السماوات وفي الأرض ...

الوجه الثالث: وهو اختيار ابن جرير، أن الوقف تام علىٰ قوله في: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، وقوله ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتعلق بما بعده، أي يعلم سركم وجهركم في الأرض، ومعنىٰ هذا القول: إنه -جل وعلا- مستو علىٰ عرشه فوق جميع خلقه، مع أنه يعلم سر أهل الأرض وجهرهم لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك»[1].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤).

المطلب الثالث
الطرق المتعلقة بأصول فهم الوحي

تنقسم الطرق المتعلقة بأصول فهم الوحي إلىٰ نوعين، الأول: دراسة مجموع أدلة الوحي، والثاني: دراسة أقوال الصحابة والتابعين، إليك تفصيل كل نوع من هذه الأنواع.

١) أهمية النظر في مجموع أدلة الوحي في استخراج الهدايات:

من الأمور المهمة التي قرَّرها السلف أنَّ الفهم السليم للقرآن الكريم أن يحمل بعضه علىٰ بعض، ويفسِّر بعضه بعضًا، وأن تجمع الأدلة التي وردت في الموضوع الواحد ويخرج منها بحكم متوافق، فعادة العلماء عندما يقررون حكمًا أو يتحدثون عن مسألة فإنَّهم يجمعون الأدلة المتنوعة التي جاءت في الموضوع الواحد سواء أكانت متوالية أم متفرقة، ولا يقتصرون في تقرير المسألة علىٰ دليل واحد، بل يجمعون الأدلة من خلال التتبع والاستقراء، ولهم فقههم في حمل المجمل علىٰ المبين، والعام علىٰ الخاص، والمطلق علىٰ المقيد، كما أن لهم فقههم في التعامل مع الناسخ والمنسوخ، والأدلة التي ظاهرها التعارض، حتىٰ يخرجوا بحكم دقيق؛ لا يجعلون الأدلة الصحيحة تتناقض، وهذه هي صنعة المفسر الدقيقة؛ وفق ما قرَّره العلماء من أصول وقواعد وضوابط ليصل لاختيار القول المناسب في التفسير.

وكذلك الوصول لبعض الهدايات والفوائد لا يمكن أن يتحقق إلا من

خلال النظر في مجموع الأدلة، وهو مسلك سلكه العلماء في استخراج الهدايات قديمًا وحديثًا، واغفاله يضيع تقرير أحكام وفوائد مهمة، قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعظم آي القرآن لا تخلو عن أحكام مشتملة علىٰ آداب حسنة وأخلاق جميلة، ثم من الآيات ما صرح فيه بالأحكام، ومنها ما يؤخذ بطريق الاستنباط؛ إما بلا ضم إلىٰ آية أخرىٰ؛ كاستنباط تحريم الاستمناء من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧]. وصحة أنكحة الكفار من قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد:٤]. وصحة صوم الجنب من قوله: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وإما به - أي بضم آية إلىٰ أخرىٰ- ؛ كاستنباط أنَّ أقلَّ الحمل ستَّة أشهر من قوله: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف:١٥]، مع قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان:١٤]»[1].

فما يؤخذ من الهدايات القرآنية منه ما هو مصرَّح به، لا يحتاج إلىٰ جهد واستنباط، ومنه «ما يؤخذ بطريق الاستنباط، وهو علىٰ قسمين:

(أ) ما يستنبط من غير ضميمة إلىٰ آية أخرىٰ، كاستنباط الشافعي عتق الأصل والفرع بمجرد الملك، من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم: ٩٢، ٩٣]،

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص: ٢١).

جعل العبودية منافية للولادة، حيث ذكر في مقابلتها، فدلَّ علىٰ أنَّهما لا يجتمعان.

(ب) ما يستنبط مع ضميمة آية أخرىٰ، كاستنباط علي وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، أنَّ أقلَّ الحمل ستَّة أشهر، من قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، مع قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]»[١].

٢) أمثلة ونماذج لهدايات من مجموع أدلة الوحي:

المثال الأول: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة:

فإنَّ ما فهمه علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ واستنبطه عن مدة أقل الحمل - وهو ستَّة أشهر[٢] - من قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، مع قوله تعالىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. قال الشوكاني رَحِمَهُٱللَّهُ: «وقد استدل بهذه الآية علىٰ أنَّ أقلَّ الحمل ستَّة أشهر؛ لأنَّ مدَّة الرضاع سنتان، أي: مدَّة الرضاع الكامل، كما في قوله: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ فذكر سبحانه في هذه الآية أقلَّ مدَّة الحمل، وأكثر مدَّة الرضاع»[٣]. وقال الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ: بعد أن قرَّر هذه المسألة: «عند هذا يظهر أنَّ المقصود من تقدير أقل الحمل ستَّة أشهر، وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين السعي في دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة، فسبحان

---

(١) الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الإبياري (٣/ ١٩).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٢٦٢).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٢).

من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة، تعجز العقول عن الإحاطة بكمالها»[١].

ومن أمثلة ذلك ما استنبطه ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٧، ٨] ، فقال: «فاقتضت الآيتان أنَّ العلماء هم الذين يخشون الله تعالىٰ وأنَّ الذين يخشون الله تعالىٰ هم خير البرية فينتج أنَّ العلماء هم خير البرية»[٢] .

المثال الثاني: استنباط هداية من مجموع أدلة متوالية:

كما في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحاقة: ٤-١٢].

فهذه الآيات مجتمعة تفيدُ تنوُّعَ العذابِ الذي أخذَ اللهُ تعالىٰ به الأممَ، وهو مع ما فيه من دلائلِ القوةِ والقدرةِ فيه كثير من دلائلِ العظة والعبرة، فثمودُ لما نادوا صاحبَهم فتعاطىٰ فعقر، هلكوا بصيحةٍ طاغية، وعادٌ لما تجبروا

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٦).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص: ٦).

بقوتِهم هلكوا بريحٍ صررٍ عاتية، وفرعونُ لما تفاخرَ بالماءِ الذي أجراه اللهُ من تحتِهم أغرقَ فيه، وقومُ لوطٍ لما قلبوا الأوضاعَ بإتيانِ الذكورِ دون الإناث وغيروا الفطرة، كان الجزاءُ من جنسِ العمل، قلبَ عليهم قراهم، وقومُ نوحٍ لما عمَّ فسادُهم الأرض، وأصبحوا لا يلدون إلا فاجرًا كفارًا، طهَّر الأرضَ منهم حيث لا يصلح لذلك إلا الطوفان(١).

المثال الثالث: استنباط هداية من مجموعة آيات قرآنية متتالية ومتفرقة:

مثال ذلك قول الله تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩]، فمن هدايات هذه الآيات: استخدام المناظرة في تقرير التوحيد، كما ذكر ذلك جمع من المفسرين، كالنحاس، وابن عطية، والرازي، وابن كثير- رحمهم الله -(٢)، ولا يمكن أن يكون قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ من باب النظر والاسترشاد وطلب التوحيد؛ لأنَّ النصوص الأخرىٰ تقرر أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن يومًا علىٰ الشرك، أو الشك في التوحيد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا

---

(١) انظر: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٨/ ٣٨٣).

(٢) انظر: معاني القرآن (٢/ ٤٥٠)، والمحرر الوجيز (٦/ ٩١)، ومفاتيح الغيب: (١٣/ ٥٠)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٦).

﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، فمجموع هذه النصوص يدلُّ علىٰ تلك الهداية[1].

المثال الرابع: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة ظاهرها التعارض:

مثال ذلك: ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ تفيدُ كلمة (رسولٍ) أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ جاءَ الرسولُ ليبلغَه عن مرسلهِ جل وعلا، ولو كانت إضافتُه إليه إضافةَ إنشاءٍ وابتداءٍ لم يكن رسولًا، ولناقضَ ذلك إضافتَه إلىٰ رسولهِ الملكي في سورةِ التكويرِ[2]، ويدلُّ علىٰ ذلك ما بعدَه في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٢]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَضَافَهُ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا بِاسْمِ رَسُولٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُبَلِّغٌ لَهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ رَسُولٌ فِيهِ لَمْ يُحدِثْ هُوَ شَيْئًا مِنْهُ. إِذْ لَوْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ مِنْهُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ رَسُولًا فِيمَا أَحْدَثَهُ؛ بَلْ كَانَ مُنْشِئًا لَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُضِيفُهُ إِلَىٰ رَسُولٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ تَارَةً، وَمِنْ الْبَشَرِ تَارَةً، فَلَوْ كَانَتْ الْإِضَافَةُ لِكَوْنِهِ أَنْشَأَ حُرُوفَهُ لَتَنَاقَضَ الْخَبَرَانِ، فَإِنَّ إِنْشَاءَ أَحدِهِمَا لَهُ يُنَاقِضُ إِنْشَاءَ الْآخَرِ لَهُ. وَقَدْ كَفَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ قَوْلُ الْبَشَرِ فَمَنْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ أَوْ شَيْئًا مِنْهُ قَوْلُ بِشرٍ أَوْ مَلَكٍ فَقَدْ كَذَبَ،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢٥٤).

(٢) انظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص: ١٠٩).

وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ قَوْلُ رَسُولٍ مِنْ الْبَشَرِ وَمِنْ الْمَلَائِكَةِ بَلَّغَهُ عَنْ مُرْسِلِهِ لَيْسَ قَوْلًا أَنْشَأَهُ فَقَدْ صَدَقَ»(١).

ومثله كذلك: ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧]، ظاهر هذه الآية أنَّ جبريل ألقىٰ القرآن في قلب النبي صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير سماع قراءة، ونظيرها في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤]، ولكنه بين في مواضع أخر أن معنىٰ ذلك أنَّ الملك يقرؤه عليه حتىٰ يسمعه منه، فتصل معانيه إلىٰ قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنىٰ تنزيله علىٰ قلبه. وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] »(٢).

المثال الخامس: استنباط الهداية من مجموع أدلة القرآن والسنة:

كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ: في هداية هذه الآية حيث جاءت بعد ذكر صفات المؤمنين: «دلَّت علىٰ أنَّ المستجمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات، مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٢٠٧- ٣٠٩).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٦٠).

مقامات الصديقين»[١]، وهذه الهداية مستفادة من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأنَّها قالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أهُم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم»[٢]، فالهداية التي استنبطها الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: مبنية علىٰ هذا الحديث.

والعلماء كما يستنبطون هداية أو حكمًا من خلال النظر في أكثر من دليل، فإنَّهم كذلك يستنبطون هدايات جزئية من خلال استقراء بعض الأساليب القرآنية، قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «دلالة الاستقراء في القرآن أنَّه تعالىٰ إذا نفىٰ عن الخلق شيئًا وأثبته لنفسه، أنه لا يكون له في ذلك الإثبات شريك كقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]»[٣].

وجمع الأدلة التي تتحدث عن موضوع واحد؛ وحمل القرآن بعضه علىٰ بعض كما أنه هو يوصل إلىٰ هدايات جزئية فهو كذلك من طرق الوصول للهدايات الكلية عند جمعها والنظر إليها فيما يتعلق بالموضوع الواحد كما سوف نبين ذلك في طرق الوصول للهدايات الكلية.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون (٥/ ٣٢٧)، برقم:(٣١٧٥)، وأحمد في مسنده (٤٢/ ١٥٦)، برقم: (٢٥٢٦٣)، و(٤٢/ ٤٦٥)، رقم: (٢٥٧٠٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧)، برقم: (٣٤٨٦)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٠٤)، برقم: (١٦٢).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٦).

٣) أهمية الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين:

إنَّ الصحابة هم أعلم الأمة بكتاب الله تعالىٰ بعد رسولها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَهُم الذين علَّمهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وربَّاهم، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم فهم أعلم الناس ببيانه ومعانيه، وهم الذين عايشوا التنزيل وعرفوا أحوال نزوله، وهم أهل القرون المفضلة، وأصحاب المنهج القويم المرتضىٰ الذي مدحه الله وزكَّاهم به، وأمرنا بالاقتداء بعلمهم وعملهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وفي مدحهم والحث علىٰ اتباعهم ما يدل علىٰ صحة ما كانوا عليه، وقد حذَّر الله تعالىٰ من مخالفة منهجهم وما هم عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

ولمكانة الصحابة والتابعين كان متحتمًا علىٰ كل ناظر في كتاب الله تعالىٰ أن يصدر من معينهم، ولا يخرج عن منهجهم، ويستفيد من كل أقوالهم في بيان المعنىٰ واستخراج الهداية والاستدلال عليه بها؛ خاصة في المواضع التي تعدَّدت فيها أقوالهم وتنوَّعت استنباطاتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ قَرَأَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِتَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ خَالَفَ

قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ»[١].

قال مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد جالست أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجدتهم كالإخاذ[٢]، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المئة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»[٣].

٤) أمثلة ونماذج لهدايات مستنبطة من أقوال الصحابة والتابعين:

أولًا: مثالُ هدايةٍ من أقوال الصحابة:

المثال الأول: في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ تفيدُ أنَّ حملةَ العرشِ يومَ القيامةِ إذا أتىٰ اللهُ تعالىٰ للفصلِ بين العبادِ والقضاءِ بينهم بعدلهِ وفضلهِ ثمانيةٌ من الملائكةِ هو قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حيث لم ينص في الآية علىٰ الثمانية.

المثال الثاني: في قول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في آخر سورة النصر: «فالتسبيح الذي هو تنزيه عن النقص، إشارة إلىٰ إكماله الدين، تحقيقًا لما كان تقدم به وعده الشريف، والاستغفار إشارة إلىٰ أنَّ عبادته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي أعظم العبادات قد شارفت الانقضاء، ولا يكون ذلك إلا بالموت، فلذلك أمر بالاستغفار؛ لأنَّه يكون في خاتمة المجالس والأعمال؛ جبرًا لما لعلَّه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٦٢).

(٢) أي غدير الماء، ويجمع علىٰ أُخذ، القاموس المحيط (ص:٣٣٠).

(٣) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (ص:١٦).

وقع فيها علىٰ نوع من الوهن، واعترافًا بذُلِّ العبودية والعجز»[(١)]. وقد استفاد هذا المعنىٰ مما استفاض عن ابن عباس وغيره من الصحابة رَضِيَالله عَنهُم من أنَّ السورة نعي للنبي صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم.

المثال الثالث: في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]. قال البيضاوي رَحِمَهُ الله:«لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته»[(٢)].

وهذه الهداية معلومة من مجموع النصوص، ومنها: أثر عن أبي بكر رَضِيَالله عَنهُ قال: إنكم تقرؤون هذه الآية، وإنكم تضعونها علىٰ غير موضعها، وإنِّي سمعت رسول الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم قال: (إنَّ النَّاس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله أن يعمهم بعقابه)[(٣)].

المثال الرابع: قول ابن كثير رَحِمَهُ الله: في هدايات قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان:٦]: «لما ذكر تعالىٰ حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله، وينتفعون بسماعه.. عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا علىٰ استماع المزامير والغناء، بالألحان

---

(١) نظم الدرر (٢٣/ ٣١٩).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه أبوداود ح رقم: (٤٣٣٨)، والترمذي، ح رقم:(٢١٦٨)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرىٰ، ح رقم:(١١٠٩٢) وصححه الألباني في صحيح سننه.

وآلات الطرب»[١]. وقد استفاد هذا المعنىٰ من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث نقل الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وغيره أنَّه قال: «الغناء، والذي لا إله إلا هو، يردّدها ثلاث مرّات»[٢].

المثال الخامس: قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٣]، فالعلماء فسروا الثبور بالهلاك والخسران واللعن، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه فسَّر المثبور بأنَّه ناقص العقل[٣]. فهي أفادت معنىٰ آخر في الهداية وهو أنَّ نقصان عقل فرعون مع ما كان يدَّعيه من الفهم هو الذي أوصله لذلك الكلام الذي ذكره موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثانيًا: مثالُ هدايةٍ من أقوال التابعين:

العلماء كما استفادوا مما جاء عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ونقل عنهم استفادوا كذلك من أقوال أئمة التابعين في التفسير، لأنَّهم تعلَّموا علىٰ أيدي أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعاشوا في القرون المفضلة، وعاشوا في عصور الاحتجاج باللغة العربية، وأقوالهم في المعاني يستدلُّ بها علىٰ كثير من الهدايات، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة منها:

المثال الأول: في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]. قال ابن جرير

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٠).

(٢) جامع البيان (٢٠/ ١٢٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/ ٣٣٧).

الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأولىٰ المعاني بقول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: علا عليهن وارتفع، فدبَّرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات»(١).

فاستفاد هذا المعنىٰ من مجموع ما نقل عن الصحابة والتابعين - رحمهم الله - في معنىٰ الاستواء، فقد ثبت عن أبي العالية: أنَّه قال: ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ارتفع، وعن مجاهد: أنَّه قال: ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾: علا (٢). فهي تفيد إثبات العلو المطلق لله تعالىٰ خلافًا لمن أولها بغير ما جاء عن سلف الأمة.

المثال الثاني: في قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ الجمهور أنَّ المراد بالطاغية أنَّها الصيحة التي أهلكهم الله بها، خلافًا لمجاهد الذي يرىٰ أنَّ الطاغية، مصدر كالعاقبة، والعافية، وأنَّ المعنىٰ أنَّهم أهلكوا بطغيانهم(٣). فهي تفيدُ أنَّ طغيانَ ثمودٍ المتمثل في كفرهم وتكذيبهم كان سببًا لهلاكِهم وما حلَّ بهم علىٰ قول مجاهد.

المثال الثالث: في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، تفيد أنَّ جميع الملائكة سجدوا لآدم، وهذا «قاله السدي عن أشياخه»(٤)؛ أخذ ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، وهو وإن كان استنبطه هنا لكنه جاء مصرح به في عدد من المواضع.

(١) جامع البيان (١/ ٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم في كتاب التوحيد، باب ﴿وكان عرشه علىٰ الماء﴾ [هود: ٧]،﴿وهو رب العرش العظيم﴾ [التوبة: ١٢٩]، [٩/ ١٢٤].

(٣) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤٤/ ٣٥).

(٤) زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي (١/ ٦٤).

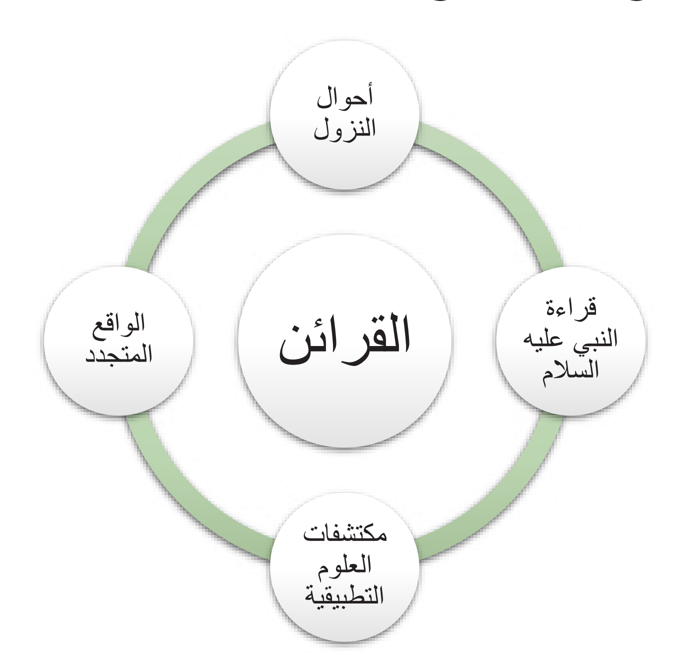
المثال الرابع: قول مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] الحرم كله هو مقام إبراهيم، قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلف أهل التفسير في هذا المقام الذي أُمِرُوا باتخاذه مصلىٰ ، علىٰ أربعة أقاويل: أحدها: الحج كله ، وهذا قول ابن عباس . والثاني: أنَّه عرفة ومزدلفة والجمار، وهو قول عطاء والشعبي. والثالث: أنَّه الحرم كله، وهو قول مجاهد. والرابع: أنه الحجر الذي في المسجد، وهو مقامه المعروف، وهذا أصح »[1].

والأمثلة في هذه كثيرة جدًا وهو أن يبني القول في الهداية علىٰ ما قاله أئمة التابعين من معانٍ أو هدايات واستنباطات.

(١) النكت والعيون (١/ ١٨٧).

المطلب الرابع
الطرق المتعلقة بقرائن الوحي

تنقسم الطرق المتعلقة بقرائن الوحي إلىٰ أربعة أنواع، وهي: أحوال النزول، تدبر قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلوات وغيرها، وتأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم التطبيقية، والواقع وأثره في استنباط الهدايات، وإليك تفاصيل كل نوع من هذه الأنواع.



أولًا: النظر في أحوال النزول:

١- أهميةُ العلم بأحوال النزول:

فنزول الآيات منجَّمةً، وارتباطُها ببعضِ الأماكن والأزمنةِ والأوقاتِ والأحوال له من الحكمِ الإلهيةِ البليغةِ ما تقصرُ دونه العقول، كما لها من دلالاتِ المعاني والعمل ما لا يدركه إلا من تعمقَ في فهمِ النص القرآني، وألمَّ وعايشَ أحوالَ نزول القرآن الكريم، وفتحَ الله عليه من أنوارِ كتابه المجيد، وهو دليلٌ من دلائلِ الإعجاز التي تأخذُ مجامعَ القلوبِ إلىٰ اليقين بأنَّ هذا الكتاب من لدن حكيمٍ خبير، وهي تفتحُ للمتدبرِ فيوضًا من معاني الهداياتِ غيرِ مستغنىٰ عنها، والتي لا يمكن الوصولُ إليها من خلال النظرِ في منطوقِ الألفاظِ ومفهومها فقط ، وهو جانبٌ مهمٌ لم يجد حظَّه الكافي من الدراسةِ والتحليلِ.

ومن هنا كان من الأهميةِ بمكانٍ معرفةُ وقتِ نزولِ الآياتِ والسورة قبلَ الهجرةِ أم بعدَها، ومكان نزولها، وما يتعلقُ بذلك من أحداثٍ وحالِ المخاطبين؛ لأنَّ لكلِّ مرحلةٍ خصائص، يقول الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَيَجِبُ عَلَىٰ الْمُفَسِّرِ الْقَائِمِ بِهَذَا الْفَرْضِ الْكِفَائِيِّ أَنْ يَعْلَمَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُنَادِي بِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا فِي شَقَاءٍ وَضَلَالٍ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بُعِثَ بِهِ لِهِدَايَتِهِمْ وَإِسْعَادِهِمْ. وَكَيْفَ يَفْهَمُ الْمُفَسِّرُ مَا قَبَّحَتْهُ الْآيَاتُ مِنْ عَوَائِدِهِمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِأَحْوَالِهِمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ؟ هَلْ يَكْتَفِي مِنْ عُلَمَاءِ الْقُرْآنِ دُعَاةِ الدِّينِ وَالْمُنَاضِلِينَ عَنْهُ بِالتَّقْلِيدِ بِأَنْ يَقُولُوا تَقْلِيدًا لِغَيْرِهِمْ: إِنَّ

النَّاسَ كَانُوا عَلَىٰ بَاطِلٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ دَحَضَ أَبَاطِيلَهُمْ فِي الْجُمْلَةِ؟ كَلَّا»[١].

٢) أنواعُ أحوالِ النزول:

تشتمل أُحوالُ النزولِ علىٰ أنواعٍ مهمةٍ تتلخصُ في الآتي:

١- **زمان النزول**: ليلًا أم نهارًا، صيفًا أم شتاء، وفي الفترةِ المكية أم المدنية، وفي أولهما أم في آخرهما، وكلُّ ما يتعلقُ بالزمان، فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكتفوا في تحديدِ الزمانِ بذكرِ الليلِ أو النهار مثلًا؛ بل نصوا في أيِّ جزءٍ منهما، بل حتىٰ حالةَ الليلِ أو النهار من شتاءٍ قارص أو صيفٍ حار.

٢- **مكان النزول**: في سفرٍ أم حضر، في مكةَ أم المدينة، أو غيرِهما.

٣- **أسبابُ النزول**: في مفهومِهِ الخاص إن كان هنالك سببٌ خاصٌ للنزول.

٤-**حال المخاطبين**: في حربٍ أو سلم، في ضعفٍ أو قوة، في خوف أو أمنٍ، وغيرها، ويدخل في ذلك الوقوف علىٰ سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما تبع ذلك من غزوات وأحدث متنوعة، وهذه الأمور بمجموعها ثابتة لكل آيات القرآن، وليس بمفردها.

٣) نماذج من دلالة أحوال النزول على الهدايات:

آيةُ الثلاثةِ الذين خلفوا من سورةِ التوبة: فقد جاء عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِم قال: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَنَا عَلَىٰ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (١/ ٢١).

بَقِيَ الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي، مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا أُمَّ سَلَمَةَ تِيبَ عَلَىٰ كَعْبٍ، قَالَتْ: أَفَلا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرَهُ؟ قَالَ: (إِذًا يَحْطِمَكُمْ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ، حَتَّىٰ إِذَا صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا، وَكَانَ إِذَا اسْتَبْشَرَ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ الْقَمَرِ)[١].

الهدايات المستفادة من أحوال النزول:

أولًا: زمان النزول: فهذه الرواياتُ الصحيحةُ التي هي في البخاري ومسلم من روايةِ كعبِ بن مالك تؤكدُ نزولَ هذه الآياتِ ليلًا بما لا يجعلُ مجالًا للاختلاف في ذلك، بل نزلت ليلًا في الثلثِ الأخير كما قال كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَنَا عَلَىٰ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنْ اللَّيْلِ».

وهذا يفيدُ فضلَ الثلثِ الأخيرِ من الليل، وفضلَ الاجتهادِ فيه دعاءً واستغفارا، من الساعات التي يتوبُ اللهُ فيها علىٰ عباده، كما جاء في الحديثِ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)[٢]، وقد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿ وعلىٰ الثلاثة الذين خلفوا ﴾ ح رقم ٤٦٧٧، ومسلم كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ح رقم ٢٧٦٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب: الدعاء نصف الليل، ح رقم٦٣٢١ ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، ح رقم٧٥٨.

بوَّب الإمامُ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بابًا؛ في الليلِ ساعةً مستجابُ فيها الدعاء، وذكر حديث جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلّ لَيْلَةٍ)(١)، وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلىٰ عبادِه أن يغتنموا هذه الساعة لدعائهم واستغفارهم، وحاجتهم مع ربهم. قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه دليل علىٰ امتداد وقت الرحمة واللطف التام إلىٰ إضاءة الفجر، وفيه الحثُّ علىٰ الدعاءِ والاستغفارِ في جميعِ الوقت المذكور إلىٰ إضاءةِ الفجر، وفيه تنبيهٌ علىٰ أن آخرَ الليلِ للصلاةِ والدعاءِ والاستغفار وغيرِها من الطاعاتِ أفضلُ من أولهِ والله أعلم»(٢).

ومكان النزول: نزلت في المدينة في بيتِ أمِّ سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا كما قال كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (فَأَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَنَا عَلَىٰ نَبِيِّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنْ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي) وهذا يبينُ فضلَ حسنِ الظن بالمسلمين.

حال المخاطبين: تخلفُ كثير من المنافقين عن النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غزوةِ تبوك، وكذلك تخلَّف هؤلاء الثلاثة من المؤمنين الصادقين، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ، وكلُّهم من الأنصار، وقد صَدَقُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في تخلفهم بغيرِ عذر، فلم يكن ذلك نفاقًا، ولا قصدًا للمخالفة، وإنَّما كان كسلًا وميلًا إلىٰ الدَّعَةِ خاصةً بعد ما

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، ح رقم١٢٥٩.

(٢) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٦ / ٣٧، ٣٨).

طابت الثمارُ والظلال، فلمَّا رجعَ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عتبَ عليهم، وأمر ألا يكلِّمُهم أحد، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، حتىٰ يقضي اللُّه فيهم، حالتهم صوَّرَها القرآن، حيث بقوا علىٰ ذلك خمسين ليلة، «حتىٰ إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت يعني مع سعتها، وضاقت عليهم أنفسُهم يعني صدورهم بسبب الهمِّ والغمِّ ومجانبةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأولياءِ والأحباءِ كلامَهم ومعاملتهم وأمرَ أزواجهم باعتزالهم، ونظرَ الناسُ لهم بعين الإهانةِ، وتأخير نزول توبتِهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي تيقنوا أنَّه لا مخلص لهم، ولا معتصم في طلبِ الفرج مما هم فيه إلا إلىٰ الله، وأنَّه لا يملك ذلك غيرُه ولا يجوز لهم أن يطلبوا ذلك إلا من قِبَلِهِ، العبادةُ له والرغبة إليه، فحينئذ أنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيِّهِ قبولَ توبتِهم.

تفيدُ بيانَ قيمة الصدقِ وأثره وثماره، كما تفيد كذلك سنةَ الله تعالىٰ فيمن انقطعَ إليه، وعلم أنه لا كاشف لهمهِ غيرُه؛ أنه سينجيه ويكشف عنه، كما تفيد فضلَ الثبات علىٰ الحق، وتفيد محبةَ المسلمِ لأخيه الخير، كما يقول كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِيٰ وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَىٰ عَلَىٰ سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ - قَالَ - فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ»، توبة تسابق الصحابة في نقلها وإيصالها فركض لها الفارس، وهتف بها آخر من الجبل ليكون أسبق في البشارة، وأصبحوا أفواجًا يهنئونهم بها، كما قال كعب: «فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّىٰ صَلاَةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وسَعَىٰ سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَىٰ الْجَبَلَ

فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ. فَلَبِسْتُهُمَا فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ. حَتَّىٰ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: (أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ).

فهي آيات في قبول التوبة تفاعلت معها الجماعة المسلمة رجالًا ونساءً، لم يكن حدثها طبيعيًا مما يتطلب لمن يتلو هذه الآيات أن يعايشَ أحوالَ النزولِ ليشعرَ بعظمةِ ما تحمله من فرج، ويدرك قيمةَ الصدقَ، ويجعل حياتَه مع الصادقين خاصةً أهل السبقِ من سلفنا الصالح، ومن ينظر إلىٰ مكانِ النزولِ ليفهمَ أنه كان تكريمًا لأمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي كانت محسنةً في شأنهم، معينةً في أمرِهم، ومن ينظر لزمانِ النزولِ ليفهم أن هذه هي ساعةُ التائبين والمستغفرين والسائلين.

وهنالك عشرات الأمثلة التي تحتاج أن تفرد في دراسة خاصة.

ثانيًا: تدبر قراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلوات وغيرها:

١) أهميةُ تدبرِ قراءةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلواتِ وغيرِها:

إن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المبلغ للقرآن، والمعلم له علىٰ أفضل طريقة في التعليم كما علَّمه الله، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، وهو قد بلَّغ حروفه، وبيَّن معانيه وحدوده كما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في أثناء تلاوته وبيان هديه للناس يقرنُ بين بعضِ السورِ في قراءتِه، ويكثرُ من قراءةِ بعضها، ويأمرُ بقراءةِ بعضِها في بعضِ الأيام، والأوقات والأحوالِ والمناسبات، ومما لا شك فيه أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يفعل ذلك بالوحي، وهو عمل مقصود لم يكن عبثًا، ملحوظ فيه جوانب من المعاني والهداية والإصلاح؛ ولذا حاولَ بعضُ العلماءِ تأملها، واستخراجَ معانٍ وفوائدَ منها، وهي في حاجة لمزيد من الدراسة والتأمل، فإهمال ذلك وعدم دراسته إهمال للغرض المقصود منها، وتضييع لفوائد وهدايات مهمة لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال التأمل في هذه القراءة النبوية، وما أمر به فيما يتعلق بهذا الجانب المهم، وقد اطلت فيه قليلًا لأهميته وما أشعر به من تقصير فيه في هذا الزمان، مع أن هنالك التزامًا بالسنة من قبل الأئمة في قراءتها؛ ولكن القليل من الناس من ينتبه لما في ذلك من دلالات المعنىٰ والهداية.

٢) أنواعُ قراءةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسورِ:

النوع الأول: القرنُ بين بعضِ السورِ في القراءة في الصلاة:

فقد قرنَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين عدد من السور في قراءته في الصلاة؛ مثال ذلك:

القرن بين سورتي السجدةِ والإنسان في فجرِ يوم الجمعة: فقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: (الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وَهَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ)[١].

والقرن بين سورتي «الأعلىٰ» و» الغاشية» في الجمعةِ والعيدين: فقد جاء عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِىٰ الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاَتَيْنِ)[٢].

والقرن بين سورتي «ق»، و«القمر» في العيدين: فقد جاء عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيّ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَضْحىٰ وَالْفِطْرِ؟ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، ح رقم٨٩١، ومسلم في كتاب الجمعة، باب: ما يقرأ في يوم الجمعة ح رقم ٢٠٢٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الجمعة، ح رقم ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ بِغَيْرِ مِنْبَرٍ ح رقم، و٩٥٧، ومسلم في كتاب: صلاة العيدين باب: ما يقرأ في صلاة العيدين، ح رقم ٢٠٦٩.

والقرن بين سورتي الكافرون والإخلاص: فقد ثبت أنه كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في ركعتي الفجرِ، والشفعِ والطواف، بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1].

وغيرها من روايات كثيرة تحتاج إلىٰ تتبع ودراسة وافية.

النوع الثاني: اقتران قراءة بعض السور بزمان أو مكان أو أحوال معينة:

فقد كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرن قراءة بعض السور بزمان أو مكان أو أحوال معينة؛ مثال ذلك:

قرن قراءة سور بزمان معين: كقراءة آية الكرسي، والإخلاص والمعوذتين في الصباح والمساء، كما في قصةِ أسيرِ أبي بن كعب[2] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (ما يجيرُنا منكُم؟ قال: تَقرأُ آيةَ الكرسي من سورةِ البقرة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. قال: نعم. قال: إذا قرأتهَا غَدوةً أجرت منا حتىٰ تُمسي، وإذا قرأتَها حينَ تُمسي أجرت منا حتىٰ تُصبح. قال أبي: فغدوتُ إلىٰ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرتُه بذلك، فقال: صدقَ الخبيث)[3]. كذلك تستحبُ

---

(١) وهي روايات كثيرة صحيحة موجودة في صحيح مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل ركعتي الفجر ح رقم ٧٢٦ وكتب السنن وغيرها، شهرتها تغني عن تتبعها.

(٢) وفي رواية الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولفظه (صدقك وهو كذوب).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ ح رقم ١٠٧٩٧، والحاكم في المستدرك ح رقم ٢٠٦٤، والطبراني في المعجم الكبير ح رقم٥٤١، والبيهقي في دلائل النبوة ح رقم٣٠٣٤، وذكره صاحب اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ح رقم ٥٦٣٤، وابن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبان ح رقم ٧٨٤. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال

قراءتها عندَ النومِ في كلِّ ليلة، وفي أدبارِ الصلواتِ المكتوبات الخمس.

وعنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَبِيبٍ عَنْ أَبِيهِ، قَال: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ شَدِيدَةٍ، نَطلبَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصَلِّيَ لَنَا، قَالَ: فَأَدْرَكْتُهُ، فَقَالَ: قُلْ، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: قُلْ، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: قُلْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا أَقُولُ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)[١].

ومنها حثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ قراءة سورة الكهف في كل جمعة، وقراءة سورة الملك، والسجدة، وخواتيم البقرة في كل ليلة، فقد جاء عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ)[٢].

قرن قراءة سور بمكان معين: كسورة «ق» التي كان يكررها كثيرًا علىٰ المنبر يوم الجمعة، وسورة البقرة في البيت، فقد جاء عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أُخْتٍ لِعَمْرَةَ قَالَتْ: أَخَذْتُ (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَىٰ الْمِنْبَرِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ)[٣]،

الهيثمي في مجمع الزوائد: ﴿رواه الطبراني ورجاله ثقات﴾.

(١) أخرجه أبو داود ح رقم (٥٠٨٤)، والترمذي ح رقم (٣٥٧٥)، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع ح رقم (٤٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: باب: فَضْلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ح رقم ٥٠٠٨، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين، باب: فَضْلِ الْفَاتِحَةِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْحَثِّ عَلَىٰ قِرَاءَةِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ، ح رقم ١٩١٤

(٣) مسلم: كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: اسْتِحْبَابِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ فِي بَيْتِهِ وَجَوَازِهَا فِي الْمَسْجِدِ ح رقم ١٦٨٠.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ)(١).

قرن قراءة سورة بحالة معينة: مثل قرن الفاتحة بالرقية، والإخلاص والمعوذتين بحالة النوم، فقد جاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)(٢). ومثله ما يقرأه الإنسان عند القيام من النوم ليلا كما جاء عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ بِتُّ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهَا فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ أَوْ بَعْضُهُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣).

النوع الثالث: سورٌ وآياتٌ كررَها أو أمرَ بكثرة قراءتِها:

كسورة الفاتحة: التي أوجب قراءتها في كل ركعة في الصلاة، فقد جاء عن عبادة بن الصّامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ)(٤)، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ ح رقم ٢٠٤٩.

(٢) صحيح البخاري: فضائل القرآن: الصلاة، باب: فَضْلِ الْمُعَوِّذَاتِ ح رقم (٥٠١٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: باب: رَفْعِ الْبَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ ح رقم ٦٢١٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: الأذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، ح رقم ٧٥٦، مسلم في كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ح رقم٩٠٠.

قَاعِدٌ عِنْدَ النبي ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا من فوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:» هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَىٰ الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ)[١].

وكسورة الإخلاص: فقد جاء في البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: (أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ)، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: (اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ)[٢]، وهذا فيه حث علىٰ كثرة قراءتها، وفي رواية أخرىٰ في البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)[٣]. فقد جاء في صحيح البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَىٰ سَرِيَّةٍ وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (سَلُوهُ لأَيِّ شيءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ). فَسَأَلُوهُ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ح رقم٨٠٦.

(٢) البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: فَضْلِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ح رقم (٥٠١٥)، ومسلم في صحيحه كتاب: صلاة المسافرين باب: فَضْلِ قِرَاءَةِ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ح رقم (١٩٢٢) واللفظ للبخاري.

(٣) البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: فَضْلِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ح رقم (٥٠١٣).

فَقَالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ)[١]. وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرَ مراتٍ بنىٰ اللهُ له بيتًا في الجنةِ)، فقال عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذًا نستكثرُ يا رسولَ الله، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللهُ أكثرُ وأطيب)[٢].

وكـ «آيةِ الكرسي»: التي كررها كثيرًا، وحث علىٰ كثرة تلاوتها، فقد جاء في حديثِ أبي أمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا إلىٰ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قوله: (مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِي دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلاَّ أَنْ يَمُوتَ)[٣].

٣) أثر قراءة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استخراجِ الهدايات:

لمَّا خص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض الآيات والسور بالقرن بينها في القراءة في الصلاة، أو كرَّرَ قراءتها، أو أمرَ بقراءتها في بعض المناسبات والأحوال حاول العلماء الاستفادة من ذلك في استنباطِ بعضِ الهداياتِ خاصةً؛ وإليك بعض الأمثلة والنماذج:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب: التوحيد، باب: مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ح رقم (٧٣٧٥)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: فَضْلِ قِرَاءَةِ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ح رقم (١٩٢٤).

(٢) أخرجه الأمامُ أحمدُ في المسند برقم ١٥٦٨٤، والطبرانيُّ في المعجمِ الكبير ح رقم (٣٩٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ح رقم (٦٤٧٢).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ ح رقم ٩٩٢٨، والطبراني في المعجم الأوسط ح رقم ٨٠٦٨، وابن حبان في صحيحيه في كتاب الصلاة والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ٢٣٩٥. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٩٧٢.

المثال الأول: قراءة سورتي الكافرون والإخلاص في سنة الفجر والوتر:

كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرن في قراءته بين سورتي الكافرون والإخلاص في سنة الفجر والوتر، حاول العلماء أن يستفيدوا من ذلك في بعض الهدايات، فقالوا حتىٰ يفتتحَ المؤمنُ يومه بالتوحيدِ ويختمه به، ومثلُه قراءة آيةِ الكرسي في الصباحِ والمساء التي جمعت معاني التوحيد.

فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلا قام فركع ركعتي الفجر فقرأ في الركعة الأولىٰ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حتىٰ انقضت السورة فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هذا عبد عرف ربه)، وقرأ في الآخرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتىٰ انقضت السورة فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هذا عبد آمن بربه) فقال طلحة: فأنا أستحب أن أقرأ بهاتين السورتين في هاتين الركعتين)[1].

قال ابنُ قيمِ الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنِ تيميةِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول: سنةُ الفجرِ تجري مجرىٰ بدايةِ العمل، والوترُ خاتمتُه؛ ولذلك كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي سنةَ الفجرِ والوترِ بسورتي الإخلاص، وهما الجامعتان لتوحيدِ العلمِ والعمل، وتوحيدِ المعرفةِ والإرادة، وتوحيدِ الاعتقادِ والقصد»[2]. وقال ابنُ قيمِ الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لهذا كان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرنُها بسورةِ (قل هو الله أحد) في سُنَّةِ الفجرِ، وسُنَّةِ المغرب، فإن هاتين السورتين (سورتي الإخلاص) قد اشتملتا علىٰ نوعي التوحيد الذي لا نجاةَ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبان ح رقم ٢٤٦٠،وقال ابن حجر: هذا حديث حسن. انظر: نتائج الأفكار (١/ ٥٠٤).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٢٩٨).

للعبدِ ولا فلاحَ إلا بهما، وهما توحيدُ العلمِ والاعتقادِ المتضمنان تنزيه اللهِ عما لا يليقُ به من الشركِ والكفرِ والولدِ والوالد، وأنه إلهٌ أحدٌ صمدٌ لم يلد فيكون له فرعٌ، ولم يولد فيكون له أصلٌ، ولم يكن له كفوا أحدٌ فيكون له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصمدُ الذي اجتمعت له صفاتُ الكمالِ كلُّها فتضمنت السورةُ إثباتَ ما يليقُ بجلالهِ من صفاتِ الكمال، ونفي ما لا يليقُ به من الشريكِ أصلًا وفرعًا ونظيرًا فهذا توحيدُ العلمِ والاعتقاد.

والثاني: توحيدُ القصدِ والإرادةِ، وهو أن لا يعبد إلا إياه، فلا يشركَ به في عبادتهِ سواه؛ بل يكون وحدَه هو المعبود. سورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مشتملةٌ علىٰ هذا التوحيدِ، فانتظمت السورتان نوعي التوحيدِ، وأخلصتا له فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتتح بهما النهارَ في سنَّة الفجر، ويختم بهما في سنَّةِ المغرب، وفي السننِ أنه كان يوترُ بهما فيكونان خاتمةَ عملِ الليل كما كانتا خاتمةَ عمل النهار»[(١)].

المثال الثاني: قراءة (السجدةِ والإنسان) في فجر الجمعة:

فيوم الجمعة يوم عظيم خلق فيه آدم، وفيه أهبط إلىٰ الأرض وتيب عليه، وفيه تقوم الساعة، فقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ)[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِيهِمَا ذِكْرُ مَا

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٣١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، برقم: (٨٥٤).

يَكُونُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ... وسئل عمَّن قرأ سورة السجدة يوم الجمعة هل المطلوب السجدة فيجزئ بعض السورة والسجدة في غيرها أم المطلوب السورة فأجاب الحمد لله بل المقصود قراءة السورتين «الم تنزيل»، و «هل أتىٰ علىٰ الانسان» لما فيهما من ذكر خلق آدم، وقيام الساعة وما يتبع ذلك فإنه كان يوم الجمعة»[(١)]، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما كان صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ هاتين السورتين لما اشتملتا عليه من ذكر المبدأ والمعاد وخلق آدم ودخول الجنة والنار وذلك مما كان ويكون في يوم الجمعة فكان يقرأ في فجرها ما كان ويكون في ذلك اليوم تذكيرا للأمة بحوادث هذا اليوم، كما كان يقرأ في المجامع العظام كالأعياد والجمعة بسورة (ق) و (اقتربت) و (سبح) و (الغاشية) »[(٢)].

فقد ذكر الله تعالىٰ فيها بحقيقة ما ذكر أتم تفصيل، من ذلك:

أولًا: التذكير بقصة حقيقة الخلق وتدبيره بصورة عامة، وخلق آدام وذريته بصورة خاصة فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة:٧-٩]، وقال في سورة الإنسان: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣].

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢٤/ ٢٠٦).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزي (١/ ١٩٤).

ثانيًا: بينت موقف الإنسان من قضية البعث ومصير كل فريق، المكذب والمؤمن قال تعالىٰ في سورة السجدة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة ١٠- ٢٠]، ونفس هذا المعنىٰ تكرر في سورة الإنسان مع تفصيل أكثر لحال وجزاء المتقين الذي أجمل في سورة السجدة، من الآية (٤ إلىٰ الآية ٢٢).

ثالثًا: ختمت السورتان بمواعظ عظيمة، ففي سورة السجدة توجَّه الكتاب للمكذبين بما يدعوهم للإنابة والرجوع من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١] إلىٰ ما ختمت به في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾،

وكان الخطاب هنا عن مصيرهم كذلك مطولًا بما يتناسب مع هذا الختام في الموعظة، وتوجهت الموعظة للمتقين في سورة الإنسان لمزيد من الاجتهاد وعدم الالتفات لهؤلاء الآثمين المكذبين بيوم الدين، وكان الكلام هنا عن جزاء المتقين مطولًا بما يتناسب مع هذا الترغيب والتحفيز، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا
﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا
﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ
أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ
مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان: ٢٣- ٣٠]،
فكلُّها معانٍ تناسبُ فجرَ الجمعة؛ وهي تذكير عظيم في كل جمعة بهدايات مهمة في إصلاح الكافر والمنحرف العاصي، وهي حافز قوي للتقي لمزيد من الاجتهاد والطاعة، والصلاة، خاصة فإن قيام الليل كان حاضرا في صفات الناجين في السورتين بما يبين أن مفتاح الفوز بالآخرة مرتهن بهذا السجود الذي هو كمال العبودية لله تعالىٰ، والمؤمن يستمع للتلاوة فيقع الترهيب في قلبه في الركعة الأولىٰ فيسارع للسجود، ويستمع للترغيب الغالب في الركعة الثانية وهو مزيد عناية ورحمة بهذا العبد الساجد الذي يدعوه إلىٰ مزيد من السجود والعبودية لينال مزيدًا من الفضل والأجر.

المثال الثالث: قراءة سورتي (الجمعة والمنافقون) في صلاة الجمعة:

كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرن في قراءته بين سورتي (الجمعة والمنافقون) في صلاةِ الجمعة، فسورة الجمعة التي سميت بسورة الجمعة؛

لمجيءِ ذكر يوم الجمعة فيها، وهي تدورُ حولَ تذكيرِ الأمةِ بنعمةِ الله تعالىٰ عليها، بإرسالهِ محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن اللهَ قد جعلَه هدايةً لها بعد الضلال، كما تنبِّه إلىٰ عدمِ التشاغلِ بالدنيا عن الآخرة؛ التي ستكون بدايتِها مع القيامةِ في يومِ الجمعة.

وأما سورة (المنافقون): فهي تدورُ حولَ كشفِ أحوالِ المنافقين، وبيان حقيقتهم وصفاتهم؛ للحذر منهم، ونصيحتهم، فصلاة الجمعة مظنة لاجتماعهم فيها.

وقد ورد فيما اشتملتا عليه من معان، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يقرأ في صلاة الجمعة بالجمعة فيحرض به المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيفزع به المنافقين)[(١)].

المثال الرابع: قرنه بين المعوذتين في مواضع من الصلوات والأذكار:

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرن بين المعوذتين في مواضع من الصلوات والأذكار، فقال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في وجه التلازم والاقتران بينهما بقوله: «لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق، من جميع المضار البدنية وغيرها، العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الغاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ح رقم ٩٢٧٩، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (٢/ ٤١٩) ح رقم ٣١٦٧: إسناده حسن، وأصل الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة.

ترجع إلىٰ ظلم الغير، والمعايب الداخلة التي ترجع إلىٰ ظلم النفس، ولكنها في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد، جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلىٰ المعايب الداخلة، اللاحقة للنفوس البشرية؛ التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر، والشر كله يرجع إلىٰ المصائب والمعايب»[(١)].

المثال الخامس: الحث علىٰ قراءة سورة الكهف يوم الجمعة:

حث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، وخلاصة ما قيل في هداياتها ومناسبتها للجمعة؛ أنها تتحدث عن خمسة فتن: فتنة الدين في قصة أصحاب الكهف، والعصمة منها بالصحبة الصالحة. وفتنة المال في قصة صاحب الجنتين، والعصمة منها بمعرفة حقيقة الدنيا. وفتنة الشيطان، والعصمة منه بالطاعة والاستجابة لأمر الله، وفتنة العلم في قصة الخضر مع موسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعصمة منها التواضع، وفتنة الملك في قصة ذي القرنين، والعصمة منها تذكر الآخرة، وهي الفتن التي تمر علىٰ الإنسان في أسبوعه، ولهذا كانت نورًا وعصمة لمن قرأها وتدبرها من تلك الفتن[(٢)]. ومن أعظم الفتن؛ فتنة الدجال؛ الذي يجمع هذه الفتن، فهو يفتن الناس في دينهم، بعلمه، وماله، وملكه، ولذلك بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قراءة سورة الكهف

---

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٢٤).

(٢) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفىٰ مسلم (ص: ١٧٩).

عصمة من الدجال، فقال: (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال)[١]. ورغب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قراءتها يوم الجمعة؛ لكون قيام الساعة فيها، وظهور الدجال من أظهر علاماتها الأرضية.

المثالث السادس: القرن بين بعض الآيات:

ما جاء عن سَعِيد بْنُ يَسَارٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ فِي الأُولَىٰ مِنْهُمَا ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِيٰ الآخِرَةِ مِنْهُمَا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في ركعتي الفجر بسورتي الإخلاص تارة، وتارة قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:١٣٦]، وفيٰ الثانية: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران:٦٤]، وهذا باب واسع لأن الناس مضطرون إلىٰ هذين الأصلين فلا ينجون من العذاب ولا يسعدون إلا بهما فعليهم أن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، ح رقم ٨٠٩.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، ح رقم ١٦٨٩.

يؤمنوا بالأنبياء وما جاءوا به، وأصل ما جاءوا به أن لا يعبدوا إلا الله وحده كما قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]»[١]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر: «إن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام، وفيهما الإيمان القولي والعملي، فقوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ إلىٰ آخرها يتضمن الإيمان القولي والإسلام، وقوله ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ - الآية إلىٰ آخرها - يتضمن الإسلام والإيمان العملي فأعظم نعمةً أنعمها الله علىٰ عباده الإسلام والإيمان وهما في هاتين الآيتين، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم»[٢].

ثالثًا: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم التطبيقية:

١) أهمية الاستفادة من مكتشفات العلوم التطبيقية:

أمر العباد تعالىٰ في كتابه العزيز بالتفكر والنظر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٦٨).

مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٦-٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وهذا النظر والتفكر الذي أمر الله تعالىٰ به جعل من هذا الكون في السماوات وما فيها من نجوم زاهية ، والأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار، وما بينهما من طيور صافات، وسحاب مسخر بين السماء والأرض وغيرها موضعًا للبحث والتأمل، وآيات بيِّنات ناطقة بصدق القرآن، وأنه من لدن حكيم خبير مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ، قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب؛ الذي هو علىٰ كل شيء شهيد، أي: مطلع مهيمن، يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلًا علىٰ أنه حق، وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك؛ لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة»[١]. وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن الكريم قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد، يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان[٢].

ومع تطور العلم التجريبي التطبيقي ظهرت اكتشافات كثيرة مطابقة

(١) الكشاف (٤/ ٢٠٧).

(٢) مجالس التذكير (ص:٣٧٧).

لما نصَّ عليه القرآن الذي تحدث عنها بصورة صريحة، مثال ذلك ما جاء في التداوي مما يخرج من بطون النحل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٨، ٦٩]، وقد سجلت عشرات الأبحاث العلمية المصدقة لذلك، بل رتبت فوائده علىٰ حسب ترتيب القرآن لأنواعه.

ومثله بيان من أين يخرج اللبن الخالص، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦]، وحديثه عن مكان خلق الإنسان في ظلمات ثلاث جاء العلم مصورًا لها ومؤكدًا، قال تعالىٰ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:٦].

ومنها ما فهمه العلماء من خلال بعض الإشارات الدقيقة التي تنبه علىٰ بعض دلالاته العميقة، فجاءت هذه الاكتشافات لتوجّه مدارك الباحثين وأفهامهم إلىٰ فهم أعمق وهدايات أوسع عجزت عنها قبل ذلك مداركهم وأفهامهم، وقد تشكل البحث في هذا الجانب بما يعرف اليوم بالإعجاز العلمي للقرآن، والتفسير العلمي، وقد وظَّفه بعض العلماء في استخراج الهدايات القرآنية، وإظهار إعجازه بصورة مبهرة، والمتدبر للآيات القرآنية التي تتحدث عن قضية تتعلق بالكون والإنسان إذا كان ملمًا بهذه المكتشفات الحديثة سيظهر له من الهدايات ما لا يظهر لغيره، وهذا ظاهر عند من يعتني

بهذه العلوم من المفسرين، وأمثلة ذلك كثيرة[١].

٢) أمثلة ونماذج في دلالة مكتشفات العلوم التطبيقية على استخراج الهدايات:

المثال الأول: في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فبينت الآية أطوار خلق الإنسان في زمن لم يتطور فيه الطب وأجهزته التصويرية بعبارات دقيقة، فجاءت الاكتشافات العلمية فنبَّهت أن موضع قرار النطفة هو آمن مكان في جسم الإنسان؛ لأنه محمي بأقوىٰ عظمتين في الجسم كما تحدث عنه القرآن ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ، وأن النطفة تشمل الماء القليل والكثير من ماء الرجل والمرأة الذي يلتقي في الرحم ويختلط قبل أن يصير علقة كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، ثم تأتي مرحلة العلقة التي تدل علىٰ تعلق شيء بشيء ما، فجاء العلم فأثبت أن التخلق يبدأ بعد تعلق الرحم بشعيرات دموية دقيقة لا ترىٰ بالعين المجردة كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢]، ثم تتحول تلك العلقة إلىٰ مضغة بمقدار حبة الفول التي تمضغ لا تظهر فيها شيء من الأعضاء، يصدق عليه مشكل وغير مشكل كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥]، ثم يبدأ يتشكل

---

(١) انظر: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية (٢/ ٥٥٧).

الجنين في هيكله الغضروفي فيظهر رأسه ويداه ورجلاه ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾، ثم تأتي المرحلة التي تليها في قوله تعالىٰ: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ موظِّفًا الاستكشافات العلمية في بيان هدايات الآية: «وهنا يقف الإنسان مدهوشًا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف علىٰ وجه الدقة إلا أخيرًا بعد تقدم علم الأجنة التشريحي؛ ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولًا في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور العظام، وتمام الهيكل العظمي للجنين، وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ .. فسبحان العليم الخبير!»(١)، فهذه المكتشفات العلمية في علم الأجنة هي التي جعلت العلماء يقفون مع هدايات الآيات وقفات دقيقة، بل يدققون مع كل كلمة وحرف، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن باسم العلقة، فإنه وضع بديع لهذا الاسم؛ إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة، هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم، بسبب التصاقه بعروق في الرحم، تدفع إليه قوة الدم، والعلقة: قطعة من دم عاقد. والمضغة: القطعة الصغيرة من اللحم، مقدار اللقمة التي تمضغ.. وعطف جعل العلقة مضغة بالفاء؛ لأن الانتقال من العلقة إلىٰ المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء؛ إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطورهما قريب، وإن كان مكث كل طور مدة طويلة. وخلق المضغة عظامًا، هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة، وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني، من عظم ولحم، وقد دل

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٢٧).

عليه قوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، بفاء التفريع علىٰ الوجه الذي قرر في عطف ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ بالفاء»[1].

المثال الثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

كان الاعتقاد السائد قبل الاكتشافات العلمية الحديثة أن الجسم كله حساس للألم، ولم يكن واضحًا أن هنالك نهايات للأعصاب الناقلة للإحساس بالألم، وقد وجد علماء التشريح أن الجلد هو الجزء الأغنىٰ بنهايات الأعصاب الناقلة للألم والحرارة، فالآية أشارت إلىٰ علاقة بين الجلد والإحساس بالعذاب، وأن تلك الجلود عندما تنضج وتفقد إحساسها بالألم تستبدل بجلد جديد مكتمل الإحساس ليذوقوا العذاب، وهي هداية علمية دقيقة توصل إليها العلم مؤخرا[2]، فجاء العلماء فنصوا عليها، قال ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ معللًا لقوله تعالىٰ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ «لأن الجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلىٰ النفس بحسب عادة خلق الله تعالىٰ، فلو لم يبدل الجلد بعد احتراقه لما وصل عذاب النار إلىٰ النفس»[3]، فهذه الهداية التي نصَّ عليها ابن عاشور نجدها بعيدة في أقوال من كتبوا في التفسير قبله بما يزيد عن تسعمائة عام، قال الماوردي(ت: ٤٥٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قيل وكيف يجوز أن يُبدّلوا جلودًا غير جلودهم التي كانت لهم في الدنيا

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٤).

(٢) انظر: هذا هو القرآن العظيم، للشيخ محمد بن موسىٰ الشريف (ص: ٨٧).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٨).

فيعذبوا فيها ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يُبدَّلواْ أجسامًا، وأرواحًا، غير أجسامهم وأرواحهم التي كانت في الدنيا، ولو جاز ذلك لجاز أن يكون المعذبون في الآخرة بالنار غير الذين وعدهم الله في الدنيا علىٰ كفرهم بالعذاب بالنار.

وقد أجاب أهل العلمِ عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنَّ ألم العذاب إنما يصل إلىٰ الإنسان الذي هو غير الجلد واللحم، وإنما يحرق الجلد ليصل إلىٰ الإنسان ألم العذاب، فأما الجلد واللحم فلا يألمان فسواء أعيد علىٰ الكافر جلده الذي كان عليه وجلدٌ غَيْرُهُ.

والجواب الثاني: أنه تُعَادُ تلك الجلود الأولىٰ جديدة غير محترقة.

والجواب الثالث: أن الجلود المُعادَةَ إنما هي سرابيلهم من قبل أن جعلت لهم لباسًا، فسماها الله جلودًا، وأنكر قائل هذا القول أن تكون الجلود تحترق وتعاد غير محترقة، لأن في حال احتراقها إلىٰ حال إعادتها فناءَها، وفي فنائها راحتها، وقد أخبر الله تعالىٰ: أنهم لا يموتون ولا يخفف عنهم العذاب»(١).

المثال الثالث: في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧].

في الوقت الذي كان فيه الإنسان يجهل حقيقة الجبال؛ بل ظل ذلك مجهولًا حتىٰ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي جزم القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة بأن الجبال تشبه الأوتاد شكلًا ووظيفة، وتبيَّن حديثًا صدق هذا التشبيه الدقيق، وأن الجزء المنغرس من الجبال في بطن الأرض ضعفه وأكثر

(١) النكت والعيون (١/ ٤٩٧)، وانظر: جامع البيان للطبري (٨/ ٤٨٧) ذكر نفس معنىٰ هذا الكلام قبله.

بما يتناسب مع وظيفته، والوتد دائما للتثبيت، ويختفي معظمه في الأرض[1]، وهذا ما صرح به القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥].

المثال الرابع: في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

فهذه الآيات تبين جهل الكفار الكبير بهذا الكون الذين يعيشون فيه؛ بل حتىٰ بمادة حياتهم، كما أنها هي تدل علىٰ أن الله تعالىٰ أزلي لا أول له كما أنه لا آخر له، وهو بكل شيء عليم، فبيَّن تعالىٰ وتحدَّث عن معلومات دقيقة عن بدء خلق السماء والأرض لم يكن أحد يعلم بها في زمن نزول القرآن، وحتىٰ علماء التفسير عند ما تكلموا فيها تكلموا عن معناها من خلال ما تدل عليه معاني اللغة، وما أثر من تأويل عن ابن عباس يؤكد ذلك، فقالوا:

الأول: «فعن عُبَيْد بْن سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ الضَّحَّاكَ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: كَانَتَا مُلْتَزِقَتَيْنِ، فَفَتَقَهُمَا اللهُ، وكَانَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ يَقُولَانِ: كَانَتَا جَمِيعًا، فَفَصَلَ اللهُ بَيْنَهُمَا بِهَذَا الْهَوَاءِ.

وَقَالَ آخَرُونَ منهم ابن عباس: بَلْ عُنِيَ بِذَلِكَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ كَانَتْ

(١) انظر: هذا هو القرآن العظيم، للشيخ محمد بن موسىٰ الشريف (ص: ٩٠).

رَتْقًا لَا تُمْطِرُ، وَالْأَرْضُ كَذَلِكَ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ»[١].

ونجد الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن يذكر القولين يرجح القول الثاني، فقال: «وَأَوْلَىٰ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا مِنَ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، فَفَتَقْنَا السَّمَاءَ بِالْغَيْثِ، وَالْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَىٰ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَمْ يُعَقِّبْ ذَلِكَ بِوَصْفِ الْمَاءِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ إِلَّا وَالَّذِي تَقَدَّمَهُ مِنْ ذِكْرِ أَسْبَابِهِ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ قِيلَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾، وَالْغَيْثُ إِنَّمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ، قَدْ قَالَ قَوْمٌ: إِنَّمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: مِنَ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا كَمَا ذَكَرْتُ مِنْ أَنَّهُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دَلِيلٌ عَلَىٰ خِلَافِ مَا قُلْنَا، لِأَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُقَالَ [السَّمَوَاتِ] وَالْمُرَادُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ فَتُجْمَعُ، لِأَنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْهَا سَمَاءٌ، كَمَا يُقَالُ: ثَوْبٌ أَخْلَاقٌ، وَقَمِيصٌ أَسْمَالٌ»[٢].

والقرآن الكريم دقيق في اختيار عباراته، حيث اختار هنا لفظة (رتقًا)، «والرتق في الأصل: الضم والسَّدُّ والالتحام، والفتق: الفصل بين الشيئين الملتصقين»[٣].

فلما تطوَّر العلم جاء الحديث عن نظرية الانفجار الكبير للكون، وهي

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٥٥).

(٢) جامع البيان (١٦/ ٢٥٩).

(٣) انظر: التفسير الوسيط - مجمع البحوث (٦/ ١١٠٧)، وتفسير المراغي (١٧/ ٢٣).

تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب، أدرك العلماء بصورة واضحة أن الرتق يكون للشيء المتماسك، وأن الفتق يكون لما يحدث فيه من تفتت، فسبحان الله؛ بل جاء العلم ليقول بنفس ما قاله القرآن عن الماء وأنه مصدر الحياة، وأثبت أن كل خلية لحي في الوجود لابد من وجود نسبة ماء فيها(١).

المثال الخامس: من يتأمل جوانب التشريع والجوانب التربوية والنفسية والاجتماعية وغيرها يهتدي إلىٰ الكثير من هذه الأمثلة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧]، وهي تجمع مقاصد الاستئذان في كلمة واحدة بديعة عجيبة يطول شرحها، في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾.

وقد أطال علماء التربية والنفس والاجتماع عن أثر رؤية العورات في سلوك ونفسية الأطفال، والقرآن الكريم سبق في معالجة ذلك قبل أكثر من ألف وأربعمائة في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٨].

والشواهد علىٰ هذا كثيرة، وقد أفاضت بذلك كتب الإعجاز في مجالي

---

(١) عظماء أسلموا، للدكتور لراغب السرجاني (١٦/ ٢٥٩).

الكون والإنسان، وما ذكرناه فقط هو بيان لأثر الاكتشافات العلمية الحديثة في الوصول لبعض الهدايات المهمة التي قد لا ينتبه لها بغير ذلك، والله أعلم.

رابعًا: الواقع وأثره في استنباط الهدايات:

١- أهمية معرفة الواقع وأثره في فهم الهدايات:

القرآن نزل منجمًا ملامسًا للواقع في جوانبه المختلفة، وهذه المعالجة للواقع هي سمة مستمرة للقرآن عبر الزمان والمكان، فهداياته لا تنقضي، وعطاؤه لا ينفد، ومعانيه خالدة، تزداد تجليًا في دلالاتها اللغوية كلما اقتضاها الواقع، وهذا من معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. قال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ القرآن كتاب الدهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن»[١]، وقد نزل القرآن الكريم منجمًا لحكم كثيرة، منها: معالجة الواقع، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزل مفرَّقًا منجَّمًا علىٰ الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد في معادهم ومعاشهم»[٢].

وقال ابن عاشور نقلًا عن ابن الوزير -رحمهما الله-: «إنّ القرآن لو لم ينزل منجمًا علىٰ حسب الحوادث، لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضىٰ الحال، ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها»[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته - تحت القرآن- وتضمُّنِهِ له، ويظنونه في نوع، وفي قوم قد خلوا من قبل لم

---

(١) مجالس التذكير (ص:٣٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠).

يعقبوا وارثًا، وهذا الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثَهم من هو مثلُهم أو شرٌّ منهم، أو دونهم، وتناولُ القرآنِ لهم كتناوله لأولئك»(١).

وعلماء التفسير يتفقون علىٰ أنّ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهي قاعدة دالة علىٰ مراعاة الواقع، كلما تغيرت أحواله، وملابساته.

وبناء علىٰ ما سبق نجد بعض المفسرين كلما زاد معرفته بالواقع ومتطلباته زاد تبصرهم في استخراج بعض الهدايات التي تسهم في إصلاحه وحل مشكلاته، كما نجد لمعرفة بعضهم لتفاصيل الواقع الذي تحدث عنه القرآن ونزل فيه أثره الكبير في التنبه لبعض دلالات ألفاظه ومرامي هداياتها.

٢- نماذج لأثر معرفة الواقع في استخراج الهدايات:

أمثلة أثر الواقع في استنباط بعض الهدايات كثيرة منها:

المثال الأول: توجيه عموم هداية الآية بما يلبي متطلبات الواقع:

في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]؛ يقول ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق، وأنصار السنة، ومرشدي الأمم عندما يقومون بدعوة القرآن الكريم في عشائرهم، ويلقون منهم النفور والإعراض، والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم، يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم، ويدافع عنهم. في

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم علىٰ كلمة الحق مؤيدون، وفي الله محبون، وسيكون لهم ود في القلوب، ممن يعرفون وممن لا يعرفون. وفيها أيضًا تثبيت لهم في تلك الغربة، ووحشة الانفراد، بما يكون لهم من أنس الود، وأي ود هو!! ود يكون من جَعْل الرحمن»(١).

وظاهر جدًّا أن المفسر يستحضر معاناة الدعاة في زمانه، ويستخرج لهم هذه الهداية من عموم الآية؛ لتثبيت قلوبهم، وتسليتهم في غربتهم، ومواساتهم في كربتهم.

المثال الثاني: تفصيل ما أجمله القرآن بما يراها المفسر في واقعه:

في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطًا، وشد رباطًا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدَّين، ووجع السن، وألم الأذن، ويكابد محنًا في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم

(١) مجالس التذكير (١/ ٣٤).

مسألة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث، والعرض علىٰ الله، إلىٰ أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار »[١].

فهو يتحدث عن ما أجمله القرآن الكريم من خلال ما يراه ويعايشه من مكابدات كثيرة تم استحضارها وبيانها من خلال الواقع.

المثال الثالث: فهم هداية الآية في ضوء السُّنَن الْإِلَهِيَّة المتكررة في الواقع:

من الأمور المهمة في فهم القرآن الكريم واستنباط هداياته، تدبر القرآن من خلال سننه تعالىٰ الثابتة المتكررة في الواقع دون تغير وتبدل، قال تعالىٰ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]. قال الأستاذ محمد رشيد رضا: «إِنَّ إِرْشَادَ اللهِ إِيَّانَا إِلَىٰ أَنَّ لَهُ فِي خَلْقِهِ سُنَنًا يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ السُّنَنَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُدَوَّنَةِ لِنَسْتَدِيمَ مَا فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ، فَيَجِبُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا أَنْ يَكُونَ فِيهَا قَوْمٌ يُبَيِّنُونَ لَهَا سُنَنَ اللهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا فَعَلُوا فِي غَيْرِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ بِالْإِجْمَالِ، وَقَدْ بَيَّنَهَا الْعُلَمَاءُ بِالتَّفْصِيلِ عَمَلًا بِإِرْشَادِهِ، كَالتَّوْحِيدِ وَالْأُصُولِ وَالْفِقْهِ. وَالْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ – تَعَالَىٰ – مِنْ أَهَمِّ الْعُلُومِ وَأَنْفَعِهَا... فَإِنَّ الْعِلْمَ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي عِبَادِهِ، لَا يَعْلُوهُ إِلَّا الْعِلْمُ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، بَلْ هُوَ مِنْهُ أَوْ مِنْ طُرُقِهِ وَوَسَائِلِهِ»[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٣).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (٤/ ١١٤).

فهنالك الكثير من المعاني والهدايات والحكم تتكشف من خلال النظر لهدايات الآية في ضوء السنن الإلهية، مثال ذلك سنن الله تعالىٰ في النصر والهزيمة، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [الصافات ١٧١ - ١٧٣]، فمتىٰ نصرنا الله تعالىٰ نصرنا، ومتىٰ كنا جند الله كانت الغلبة لنا، «فإنْ رأيتَ جندًا من الجنود منسوبين لله تعالىٰ وهُزِمُوا، فاعلم أنهم انحلوا عن الجندية لله، وإلا فوعْد الله لجنوده لا يمكن أن يتخلف أبدًا. والدليل علىٰ ذلك ما حدث للمسلمين في أُحُد، صحيح أن المسلمين هُزِموا في هذه الغزوة؛ لأنهم انحرفوا عن أوامر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخالفوه عندما قال للرماة: (لاتتركوا أماكنكم علىٰ أيِّ حال من الأحوال) لكن بمجرد أنْ رأوا بوادر النصر تركوا أماكنهم، ونزلوا لجَمْع الغنائم، فالتف من خلفهم خالد بن الوليد وألحق بهم الهزيمة، وإن انهزم المسلمون فقد انتصر الإسلام؛ لأنهم لما خالفوا أوامر رسولهم انهزموا، وبالله لو انتصروا مع المخالفة أكان يستقيم لرسول الله أمر بعد ذلك»[١].

وقال تعالىٰ في سنن الفشل والهزيمة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، فهذه سنة ماضية، وضح الله عواقب النزاع، وأجمله في ثلاث كلمات ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، والواقع يحكي الكثير مما أجمله القرآن.

(١) تفسير الشعراوي (ص: ٢٣٧٧).

ومثله سنن الله تعالىٰ في حفظ النعمة وزيادتها وقبضها، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال:٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم:٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

بل نجد لآثار بعض المعاصي والذنوب، والتصرفات والسلوك المنحرف، التي تحدث القرآن عن عواقبها، وحذر من نواتجها فهمًا أعمق لبعض هدايات القرآن، فمن يعيش في واقع تطغىٰ فيها الماديات والشهوات يستطع أن يستوعب من معاني القرآن وإشاراته في هذا الباب ما لا يستوعبه البعيد عن ذلك الواقع، وكيف أن الشهوات تلهي وتطغي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورىٰ:٢٧]، وكذلك من يكون في دولة يحكمها طاغية ظالم يستوعب من صورة فرعون وأثر الطغيان في الأرض ما لا يستوعبه غيره، وكيف يمكن أن يستخف الواحد بقومه فيطيعوه، وكيف يساق الناس إلىٰ الباطل جبرًا وخوفًا، وكيف يحرض الملأ الطاغية علىٰ الدعاة كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]، وكذلك من يكون في مجتمعات الشذوذ الجنسي يدرك من حديث القرآن عن قوم لوط ما لا يدركه من عافاهم الله تعالىٰ عن ذلك، وكيف تستباح الكرامة وتهدم الأعراف، وتدمر القيم ولوط ينادي في

قومه الذين أماتت الرذيلة قلوبهم ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ [الحجر:٦٨، ٦٩]، وكذلك من يكون في مجتمعات الاختلاط والتبرج يدرك من معاني قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٥٩] ما لا يدركه من يرىٰ الأذىٰ كل يوم كيف يقع بين عينيه بصور مختلفة.

المثال الرابع: تدبر القرآن من خلال السير في الأرض ورؤية الآثار:

هنالك آيات كثيرة تتحدث عن مصارع أمم وأقوام خلوا لو تأملها العبد مع ما تبقىٰ من آثارهم أعطته فهما أعمق، واستوعب هدايات أكثر؛ ولذا أمر الله في عدد من الآيات بالسير في الأرض والنظر في تلك الآثار الباقية، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ [غافر:٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. ولو لم يكن لمعرفة الواقع أثره في معرفة ما تحدث عنه القرآن ما أمر بالسير والنظر، فمعرفة الواقع يجعلك تتنبه لدقة الألفاظ ودلالاتها، وقد زرت مدائن صالح فأدركت من معاني بعض الألفاظ والجمل ما لم أكن أستوعبه قبل ذلك ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ﴾ [الأعراف:٧٣]، فعرفت كيف اتخذوا من سهولها قصورًا، وكيف نحتوا الجبال بيوتًا، ولماذا قال القرآن ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا﴾ ولم

يقل هنا (وتنحتون من الجبال بيوتا) كما في الآية الأخرىٰ؛ حيث جعلوا من الجبل الكامل بيتًا في بعضها، وفي بعضها نحت جزء منه بيتًا؛ بل عرفت لماذا خاطبهم صالح عليهم السلام بقوله تعالىٰ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٠]، فجمع لهم في التذكير بين قدرة الله تعالىٰ، وبيان فضله عليهم، فهو الخطاب المناسب تلك الأمة المتعالية بقدرتها، المنبهرة بحضارتها المغرورة بنعم الله عليها.

ومما يحسن التنبيه إليه أن ربط الآيات بالواقع لابد أن يكون متصلًا أيضًا بأسباب النزول كما سبق في نقل ابن باديس، وبسياق الآيات ودلالات اللغة، وإلا تحولت الهدايات إلىٰ ضلالات، وتلاعب بظواهر الآيات، كما ذهب بعضهم إلىٰ أن معنىٰ قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] جمعت في حدائق الحيوانات وسجنت في الأقفاص، فنظر إلىٰ الواقع دون أدنىٰ مراعاة للدلالة التفسيرية للآية، وقال في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] البترول المودع في الأرض[1]، إلىٰ آخر هذا الكلام الذي يفتقر إلىٰ أدنىٰ قواعد التفسير.

---

(١) مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية للغماري (ص: ٢٣-٢٤).

المطلب الخامس
الطرق المتعلقة بمقاصد القرآن وأصول التشريع وحكمه

المقاصد والأصول والحكم



أولًا: مقاصد القرآن الكريم وسوره:

١) أهمية علم مقاصد القرآن:

القرآنُ الكريم أنزلَ لمقاصدَ ساميةً لا ينبغي أن تغيبَ عن متدبرٍ في آياتهِ يسعىٰ لاستخراج هداياته، كما قالت الجن يوم سمعت القرآن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١- ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا

مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]، فهم قد فهموا أن مقصد القرآن الهداية إلىٰ الحق، وأن التوحيد هو أعظم ما يهدي إليه القرآن الكريم، وأن واجب المؤمن أن يستجيب لما دعا إليه ويؤمن به.

لا ينبغي أن يغيب عن الباحث النظر لهدايات السورة في ضوء مقصدها العام وهو يستخرجَ الهدايات الجزئية من الآيات، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَمْ أُغَادِرْ سُورَةً إِلَّا بَيَّنْتُ مَا أُحِيطُ بِهِ مِنْ أَغْرَاضِهَا لِئَلَّا يَكُونَ النَّاظِرُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ مَقْصُورًا عَلَىٰ بَيَانِ مُفْرَدَاتِهِ وَمَعَانِي جُمَلِهِ كَأَنَّهَا فِقَرٌ مُتَفَرِّقَةٌ تَصْرِفُهُ عَنْ رَوْعَةِ انْسِجَامِهِ وَتَحْجُبُ عَنْهُ رَوَائِعَ جَمَالِهِ»[1].

ومن هنا كان علمُ مقاصدِ القرآنِ الكريم وسورِه من العلومِ المهمةِ في تدبرِ القرآنِ واستخراجِ هداياته؛ لأنه يكشفُ عن غايةِ القرآن، ومقاصدِ سوره، وهو علمٌ لم يكن معروفًا بهذا الاسمِ عند المتقدمين، وإنما كانوا يذكرون ما تدورُ حولَه السورة، كما قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند حديثِهِ عن سورة الأنعام: «وأن أكثرَها احتجاجٌ علىٰ مشركي العرب، علىٰ مَنْ كذبَ بالبعثِ والنشور»[2]، ففيه إشارةٌ إلىٰ مقصد السورة. ثم ظهرَ بعد ذلك استخدام كلمة

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٢٢٧).

«المقصود»، كما يقولُ أبو جعفر الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سورةِ القمر مثلًا: «سورةُ القمر بأسرِها، مقصُودها: تذكيرُ كفارِ العربِ من قريشٍ وغيرهم، بما نزل بمن تقدمهم من مكذبي الأمم»[1]. إلا أن التأصيلَ لهذا العلم، وإطلاقَ كلمةِ «مقصدٍ» كمصطلح عليه، كان علىٰ يدِ البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «مصاعدُ النظر للإشرافِ علىٰ مقاصد السور»، وقد قال في مقدمته: «فإن كلَّ سورةٍ لها مقصدٌ واحد، يدارُ عليه أولُها وآخرُها، ويستدلُ عليه فيها، فترتبُ المقدماتِ الدالة عليه علىٰ أتقنِ وجه، وأبدعِ نهج، وإذا كان فيها شيءٌ يحتاجُ إلىٰ دليل استدل عليه، وهكذا في دليلِ الدليل، وهلم جرا. فإذا وصلَ الأمرُ إلىٰ غايتِهِ، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطفَ الكلامُ إليه، وعادَ النظرُ عليه علىٰ نهجٍ آخرٍ بديع، ومرقىٰ غير الأولِ منيع، فتكون السورة كالشجرةِ النضيرة العالية، والدوحةِ البهيجةِ الأنيقةِ الخالية، المزينةِ بأنواعِ الزينةِ المنظومةِ بعد أنيقِ الورقِ بأفنان الدر، وأفنانها منعطفةٌ إلىٰ تلك المقاطعِ كالدوائر، وكلُّ دائرةٍ منها لها شعبةٌ متصلةٌ بما قبلها، وشعبةٌ ملتحمة بما بعدها، وآخرُ السورةِ قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كلّ سورة كدائرة كبرىٰ مشتملة علىٰ دوائر الآيات الغرّ البديعة النظم العجيبة الضَمّ بلين تعاطفِ أفنانها وحسن تواصل ثمارها وأغصانها »[2].

وهو علمٌ مهمٌ في معرفةِ مقصودِ الكلام والغرض الذي من أجلِهِ أنزلت الآيات والسور، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَاعْتِبَارُ جِهَةِ النَّظْمِ مَثَلًا فِي السُّورَةِ لَا تتم بِهِ فَائِدَةٌ إِلَّا بَعْدَ اسْتِيفَاءِ جَمِيعِهَا بِالنَّظَرِ؛ فَالِاقْتِصَارُ عَلَىٰ بَعْضِهَا فِيهِ غَيْرُ مُفِيدٍ

(١) ملاك التأويل (٢/ ٤٦٠).

(٢) مصاعد النظر (١/ ١٤٩).

غَايَةَ الْمَقْصُودِ، كَمَا أَنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَىٰ بَعْضِ الْآيَةِ فِي اسْتِفَادَةِ حُكْمٍ مَا لَا يُفِيدُ إِلَّا بَعْدَ كَمَالِ النَّظَرِ فِي جَمِيعِهَا. فَسُورَةُ الْبَقَرَةِ مَثَلًا كلامٌ وَاحِدٌ بِاعْتِبَارِ النَّظْمِ، احْتَوَتْ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ مِنَ الْكَلَامِ بِحَسَبِ مَا بُثَّ فِيهَا، مِنْهَا مَا هُوَ كَالْمُقَدِّمَاتِ وَالتَّمْهِيدَاتِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ كَالْمُؤَكِّدِ وَالْمُتَمِّمِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ الْمَقْصُودُ فِي الْإِنْزَالِ، وَذَلِكَ تَقْرِيرُ الْأَحْكَامِ عَلَىٰ تَفَاصِيلِ الْأَبْوَابِ، وَمِنْهَا الْخَوَاتِمُ الْعَائِدَةُ عَلَىٰ مَا قَبْلَهَا بِالتَّأْكِيدِ وَالتَّثْبِيتِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ»(١).

٢) أثرُ المقاصدِ في استخراج الهدايات:

أولًا: لنزولِ القرآن أهدافٌ عظيمةٌ، وغاياتٌ جليلةٌ، فلا بد لكلِّ مجتهدٍ في استخراجِ الهداياتِ من استحضارِها، والبحثِ في إطارها، وهي تدورُ في جملتها حولَ مقاصدَ ثلاثةٍ كبرىٰ تتلخص في الآتي:

١) التعريفُ بالمعبودِ الحقِّ جلَّ جلاله.

٢) التعريفُ بطريقِ عبوديتهِ جلَّ وعلا.

٣) معرفةُ عاقبةِ من عبده ومن عصاه في الدنيا والآخرة.

وهذه المقاصدُ الكُبرىٰ هي بوابةُ الدخولِ إلىٰ عالمِ الهدايات؛ لأنَّ جميعَ الهداياتِ الكلية والجزئية دارت حولها وتعلقت بها، في جميع مجالاتِها من خلالِ جميع آيات القرآن وموضوعاتِه وسوره(٢).

ثانيًا: معرفةُ مقاصدِ القرآن والسورِ والآياتِ يوصلُ إلىٰ معرفة الهدايات

---

(١) الموافقات (٣/ ٣٨٣).

(٢) انظر: تفسير وهدايات سورة الفاتحة في ضوء تناسقها الموضوعي، أ.د. طه عابدين طه (ص:١٣).

الكلية في السورة، ويسهمُ في تنظيمِ وتنسيقِ هداياتها الجزئية، ويدفعُ الباحثَ لمزيدٍ من النظرِ والبحث في الهداياتِ الجزئية لاستيفاء مكملاتٍ ولوازمَ لا بد منها في اكتمالِ الهدايات الكلية، فهو خيرُ معين علىٰ تدبرٍ واستخراج الهدايات؛ ولذا قال الإمامُ الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التدبر إنما يكون لمن التفت إلىٰ المقاصد»[١].

والهداياتُ الكليةُ لا يمكن الوصولُ إليها إلا بالنظرِ إلىٰ آيات الموضوع أو السورةِ مجتمعة، وهو طريق المقاصد، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَالَّذِي يَكُونُ عَلَىٰ بال من المستمع والمتفهم هو الالتفات إِلَىٰ أَوَّلِ الْكَلَامِ وَآخِرِهِ، بِحَسَبِ الْقَضِيَّةِ وَمَا اقْتَضَاهُ الْحَالُ فِيهَا، لَا ينظر فِي أَوَّلِهَا دُونَ آخِرِهَا، وَلَا فِي آخِرِهَا دُونَ أَوَّلِهَا، فَإِنَّ الْقَضِيَّةَ وَإِنِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ جُمَلٍ؛ فَبَعْضُهَا مُتَعَلِّقٌ بِالْبَعْضِ لِأَنَّهَا قَضِيَّةٌ وَاحِدَةٌ نَازِلَةٌ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَلَا مَحِيصَ لِلْمُتَفَهِّمِ عَنْ رَدِّ آخِرِ الْكَلَامِ عَلَىٰ أَوَّلِهِ، وَأَوَّلِهِ عَلَىٰ آخِرِه، وَإِذْ ذَاكَ يَحْصُلُ مَقْصُودُ الشَّارِعِ فِي فَهْمِ الْمُكَلَّفِ، فَإِنْ فَرَّقَ النَّظَرَ فِي أَجْزَائِهِ؛ فَلَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ مُرَادِهِ، فَلَا يَصِحُّ الِاقْتِصَارُ فِي النَّظَرِ عَلَىٰ بَعْضِ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ دُونَ بَعْضٍ»[٢].

فمعرفةُ المقاصدِ هو الطريقُ لاستخراجِ الهدايات الكلية التي لا يقتصرُ فيها علىٰ دلالاتِ الجملِ والآيات، وإنما يرجعُ فيها إلىٰ مرامِ الكلامِ وغايته.

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٦٨).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٦٦).

٣) أمثلة ونماذج لأثر معرفة مقصد السورة في استخراج الهدايات:

أولًا: أثر المقصد في استخراج الهدايات الجزئية للسورة:

المثال الأول: عن سورة العصر: مقصد السورة: بيان طريق الربح والخسران في الحياة[١].

فمن أدرك مقصد السورة علم لماذا جاءت بعد سورة التكاثر الذي هو سبب الركون للدنيا ونسيان الآخرة وخسرانها، ولماذا افتتحت بالقسم بالعصر الذي هو موضع الربح والخسران بما يحقق سعادة الإنسان، وأدَّت إلىٰ الانتباه لمرور الساعات والأيام، وأدرك عظمة هذه السورة التي اشتملت علىٰ طريق السعادة والنجاة من خلال ثلاث آيات، وأنه لا نجاة ولا فوز ولا سعادة دون إيمان وعمل صالح، وأنَّ الحق ينبغي أن يعيش له العبد هدىٰ ودعوة وصبرًا ، وأنه لا يكفي للنجاة والسعادة معرفة الحق والعمل به حتىٰ يسعىٰ لتكميل غيره، كما أن من أدرك مقصدها يعلم أنها جعلت لحياة المؤمن قيمة بما يحققه في حياته من ربحه وزيادة رصيده عند ربه في كل ساعة ويوم، بعكس حياة الكافر الذي هو كل يوم في نقص وخسران.

المثال الثاني: عن سورة المسد: مقصد السورة «القطع بخسران الكافر»، قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مقصودها البت والقطع الحتم بخسران الكافر ولو كان أقرب الخلق إلىٰ أعظم الفائزين»[٢].

فمن أدرك مقصد السورة علم أن قصة أبي لهب تفيد: أن القرابة للأنبياء

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٤).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٦٧).

والصالحين لا قيمة لها مع الكفر، كما أن المال والجاه لا يغني من عذاب الله شيئًا إذا عمل العبد بما يغضب ربه، كما أن ما يكسبه الإنسان من معارف وصداقات وغيرها لا تدفع عنه من عذاب الله شيئًا، وأن خلطة الأشرار تقود إلىٰ النار كما هو الحال مع صاحبته، وأن هذه القصة هي عبرة لكل من يعادي الحق ويؤذي نبيه ﷺ وأن الخسران حليفه، كما أنها تدل علىٰ فضلة الصبر ، وإن تخلىٰ عن نصرتك أقرب الناس إليك، بل هي تؤسس لمبدأ الولاء والبراء وأنه لا تعاطف مع من حارب الله ورسوله[1]، فمعرفة المقصد يجعلك تتجه بالهدايات إلىٰ آفاق أرحب.

المثال الثالث: عن سورة الكوثر: مقصد السورة «حمل بشارات عظيمة للنبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»، قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مقصودها المنحة بكل خير يمكن أن يكون، واسمها الكوثر واضح في ذلك وكذا النحر لأنه معروف في نحر الإبل ، وذلك غاية الكرم عند العرب»[2].

فمن أدرك مقصد السورة علم أنها تفيد: شرف هذا النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومكانته حيث أضافه إلىٰ ربوبيته، وخصه الله تعالىٰ بالخير الكثير الذي منه النبوة والكتاب والعلم بربه والنهر وغيرها، وأن مما خصه الله تعالىٰ كذلك من النعم أن أوجب محبته في قلوب خلقه حيث بين عاقبة مبغضه، وهذا مستلزم لنعمة أخرىٰ وهو علو ذكره فلا أحد يستطيع أن ينقص قدره، وأن أعداءه لا يستطيعون النيل منه وغيرها من هدايات، وأن النعم العظيمة تحفظ بالشكر،

(١) انظر: الوافي في هدايات كلام الله الكافي تفسير وهدايات جزء عمّ (٢/ ١٠٠٣).

(٢) نظم الدرر (٨/ ٥٤٧).

وأن الشكر العملي المتمثل في الصلاة والنحر هو أعظم أنواع الشكر(١).

ثانيًا: أثر المقصد في استخراج الهدايات الكلية للسورة:

مقصدُ السورةِ في حدِ ذاته نوعٌ من الهدايات، فكلُّ مقصدٍ من المقاصد ما هو إلا هدايةٌ من الهداياتِ الكلية أو يهدي لهدايةٍ كلية، وقد اجتهد العلماءُ في استنباطِ مقاصدِ السور(٢)، ووصلوا إليها عن طريق استقراء الأجزاء، وهو نفس طريق العلماء في الوصول إلىٰ الهدايات الكلية، ومن أمثلتها:

قولهم: مقصد سورة الفاتحة: تحقيق العبودية لله تعالىٰ.

وقولهم: مقصد سورة البقرة: إقامة الدليل علىٰ أنّ الكتاب هدىٰ ليتبع في كل ما قال.

وقولهم: مقصد سورة آل عمران: الثبات علىٰ الإسلام بعد كماله وبيانه، ورد شبهات أهل الكتاب وخاصة النصارىٰ.

وقولهم: مقصد سورة النساء: تنظيم حقوق المجتمع المسلم من داخله، من خلال حفظ الحقوق الاجتماعية والمالية؛ إزالةً لرواسب الجاهلية، وتركيزًا علىٰ حقوق النساء والضعفاء.

وقولهم: مقصد سورة التوبة: كشف أحوال الطوائف، بالمُفاصلة مع الكافرين، وفضح المنافقين، وتمييز المؤمنين.

---

(١) انظر: الوافي في هدايات كلام الله الكافي تفسير وهدايات جزء عم(٢/ ٩٦٠).

(٢) وقد يكون للسورة أكثر من مقصد، وهو من الموضوعات التي تختلف فيه وجهات نظر العلماء، ولكن المعتبر ما قامت عليه الأدلة والبراهين الواضحة المبنية علىٰ دقة الملاحظة والنظر.

وقولهم: مقصد سورة هود: بيان منهج الرسل في مواجهة قومهم المكذبين.

وقولهم: مقصد سورة يوسف: تركز علىٰ الوعد بالتمكين بعد الابتلاء المبين؛ تثبيتًا ووعدًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين.

وقولهم: مقصد سورة النحل: التذكير بالنعم الدالة علىٰ المنعم؛ إلزامًا بعبوديته، وتحذيرًا من جحودها[١].. وهكذا إلىٰ آخر القرآن الكريم[٢].

فمن أدركَ مقصدَ السورةِ، قادته تلك المقاصد بكلِّ يسر لمعرفة الهدايات الكلية في السورة، وتفتحت عينُه علىٰ كثيرٍ من الهداياتِ الجزئية، لأنَّ مقاصدَ السورِ توضحُ للباحثِ الغايةَ التي يرادُ إيصالها من السورة من خلالِ المحاور والموضوعات والآيات.

ثانيًا: الصدور عن أصول الشريعة:

١) أهمية العلم بأصول الشريعة:

جميع شرائع الإسلام جاءت لتحقيق مصالح المكلفين في الدنيا والآخرة، وكيف لا وهي كلها حكمةٌ وعدلٌ ممن خلق الإنسان ويعلم ما تتحقق به سعادته بصورة شاملة شافية لا تقبل الزيادة أو النقصان.

وإذا كانتِ الغَايَةُ في التَّشريعِ تحقيقَ مصالحِ العبادِ فيجبُ معرفة تلك الأصول من الأمور التي يجب أن لا تغيب عن فكر العلماء وهم يستنبطون

(١) انظر: المختصر في التفسير في أوائل كل سورة، وهي في غالبها أخذت من البقاعي في كتابه مصاعد النظر.

(٢) انظر: علم مقاصد السور د. محمد الربيعة (ص:٧).

الهدايات من القرآن الكريم؛ وذلك لأمرينِ:

الأوَّل: معرفَةُ الوجوهِ الَّتي وردَ عليها التَّشريعُ من الحِكمِ والمعانِي، للإبانَةِ عنها وتبصيرِ الخلقِ بها، وذلك بإظهارِ محاسنِ هذه الشَّريعَةِ العظيمَةِ ومزايَاهَا وصلاحيَّةِ أحكامِها لجميعِ الأزمنَةِ والأمكنَةِ، وإقامةِ الحجَّة علىٰ أنَّها القانُونُ الَّذي يجبُ أن يسودَ، والميزانُ الَّذي يجبُ أن يُنصبَ، والعدلُ الَّذي يجبُ أن يُقامَ

الثَّاني: مراعاتُها عندَ الاستِنباطِ والنَّظرِ في المُستجِدَّاتِ والحوادِثِ فيما طريقُه الاجتِهاد، لأنَّ القصدَ إلىٰ مُوافقَةِ الحقِّ لا يُمكنُ من غيرِ اعتبار نوعِ مُطابَقَةٍ في ذلكَ الاجتِهادِ لحُكمِ الله عزَّوجلَّ، وتلكَ المُطابقَةُ ليسَتْ بمجرَّدِ الألفاظِ، بلْ بالمعاني الَّتي لم تُستعملِ الألفاظُ في الحقيقَةِ إلاَّ للإبانَةِ عنهَا، وتلكَ المعانِي هيَ حِكَمُ التَّشريعِ، وهيَ عِلَلُ الأحكامِ، وهيَ مصالحُ العِبادِ التي ينبغي أن تراعي عند استنباط الأحكام والهدايات منها، ويستخدمونها مفاتيح لكثير من المعاني الدقيقة التي قد لا ينتبه إليها، ويجعلونها ميزانًا تنتظم عليه جميع الهدايات المستخرجة، قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أهمية الاعتناء بمقاصد الشريعة وكلياتها: «هَذِهِ الْقَوَاعِدُ مُهِمَّةٌ فِي الْفِقْهِ عَظِيمَةُ النَّفْعِ وَبِقَدْرِ الْإِحَاطَةِ بِهَا يَعْظُمُ قَدْرُ الْفَقِيهِ، وَيَشْرُفُ وَيَظْهَرُ رَوْنَقُ الْفِقْهِ وَيُعْرَفُ وَتَتَّضِحُ مَنَاهِجُ الْفَتَاوَىٰ وَتُكْشَفُ، فِيهَا تَنَافَسَ الْعُلَمَاءُ وَتَفَاضَلَ الْفُضَلَاءُ، وَبَرَزَ الْقَارِحُ عَلَىٰ الْجَذَعِ وَحَازَ قَصَبَ السَّبْقِ مَنْ فِيهَا بَرَعَ، وَمَنْ جَعَلَ يُخْرِجُ الْفُرُوعَ بِالْمُنَاسَبَاتِ الْجُزْئِيَّةِ دُونَ الْقَوَاعِدِ الْكُلِّيَّةِ تَنَاقَضَتْ عَلَيْهِ الْفُرُوعُ وَاخْتَلَفَتْ وَتَزَلْزَلَتْ خَوَاطِرُهُ فِيهَا وَاضْطَرَبَتْ، وَضَاقَتْ نَفْسُهُ لِذَلِكَ وَقَنَطَتْ، وَاحْتَاجَ إِلَىٰ حِفْظِ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي لَا تَتَنَاهَىٰ وَانْتَهَىٰ الْعُمْرُ وَلَمْ تَقْضِ نَفْسُهُ مِنْ طَلَبِ

مُنَاهَا وَمَنْ ضَبَطَ الْفِقْهَ بِقَوَاعِدِهِ اسْتَغْنَىٰ عَنْ حِفْظِ أَكْثَرِ الْجُزْئِيَّاتِ لِانْدِرَاجِهَا فِي الْكُلِّيَّاتِ، وَاتَّحَدَ عِنْدَهُ مَا تَنَاقَضَ عِنْدَ غَيْرِهِ وَتَنَاسَبَ»(١).

٢) مفهوم أصول الشريعة:

وأصول الشريعة تفسر بأحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون المراد بها العقائد الإيمانية؛ إذ هي الأصل الذي لا يُقبل عملُ المكلف إلا به، فهي أصول من حيث إنها يبنىٰ عليها الأعمال الصالحة التي هي فروع لها، ويفسرون فروع الشريعة بالأعمال التكليفية كالصلاة وإطعام المساكين، فهي فروع في مقابل أصول الشريعة الإيمانية.

الوجه الثاني: أن يكون المراد بأصول الشريعة أدلتها الكلية، ومقاصدها، وقواعدها المطردة غالبًا التي تبنىٰ عليها الأحكام الجزئية، ويختص ببيانها ثلاثة علوم هي: أصول الفقه، وقواعد الفقه، ومقاصد الشريعة.

والمراد بأدلتها الكلية: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهي التي تدرس في أصول الفقه مع الأدلة المختلف فيها وقواعد الأحكام نحو: الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، والصيغة الخاصة للعموم، ونحو ذلك.

والقواعد الفقهية هي القواعد الخمس التي قيل: إن الفقه مبنيٌّ عليها، وهي: «الأمور بمقاصدها» - «اليقين لا يزول بالشك» - «المشقة تجلب التيسير» - «الضرر يزال» - «العادة محكمة».

ومقاصد الشرع هي: الضرورات الخمس، وهي الحفاظ علىٰ: (الدِّينِ،

---

(١) الفروق للقرافي (١/ ٣).

والنَّفسِ، والعقلِ، والمالِ، والعِرضِ)، وهذه الضَّروراتُ الخمسُ هي التي جاءت الشرائع لإقامتها ودرء ما يحدث فيها من اختلال.

وهي من حيث التفصيل قسمت لثلاثة أنواع:

١- ضرورات: وهي الأمورُ التي لا بدَّ منهُ لِقيامِ مصالحَ الدِّينِ والدُّنيَا، وبدونها لا تستقيم.

٢- وحاجيَّات: وهي كُلُّ أمرٍ يحتاجُ إليهِ النَّاسُ لرفعِ الحرَجِ عنهُم، وليسَ بفواتِه فواتُ ضرُوريٍّ لهُم، لكنْ يقعُ بفواتِهِ العُسرُ والضِّيقُ بما يشُقُّ علىٰ المُكلَّف احتمَالُه ومن هنا جاءت رخص الشريعة في العبادات والمعاملات وغيرها.

٣- وتحسينات: وهيَ الأخذُ بمحاسنِ العادَاتِ والأخلاقِ، وتجنُّبُ مساوئِها. وهذا بابٌ جاءتِ الشَّريعةُ فيه بأكملِ المعاني وأتمِّهَا.

وهي تعتبر أصولا للشريعة؛ لأنها تشتمل علىٰ قواعد كلية وأغلبية يستفاد منها المعرفة الصحيحة لأحكام الشريعة بفهم نصوصها واستنباط معانيها في كل مسألة من مسائل الفروع لا سيما المستحدثة، فمن هنا تعتبر هذه العلوم الثلاثة أصولا للشريعة؛ إذ لو ارتفعت لتعذّر فهم الشريعة وتعذّر اتباعها[١].

٣) نماذج لأثر معرفة أصول الشريعة في استخراج الهدايات:

المثال الأول: في قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء:٧٩].

(١) انظر: تيسير أصول الفقه لعبدالله الجديع (ص ٣٢١-: ٣٢٧).

ذكر العلماء أنّ فيها تعليما للأدب مع الله سبحانه، وهو أصل عام يجب ملاحظته في كل كلام عن الله تعالىٰ، ووجه ذلك في الآية: أنه تعالىٰ أضاف الحسنة إليه سبحانه، والسيئة إلىٰ خلقه؛ لتعليم الأدب في عدم نسبة الشر إلىٰ الله تعالىٰ، مع أن الكل منه سبحانه كما في الآية السابقة ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨]، وهذا له شواهد كثيرة.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأدب في ترك التنصيص علىٰ نسبة الشر إلىٰ الله تعالىٰ، وإن كان هو الخالق لكل شيء، كما قال بعد قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾.. إلىٰ قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولم يقل: (بيدك الخير والشر)، وإن كان قد ذكر القسمين معًا؛ لأن نزع الملك والإذلال بالنسبة إلىٰ من لحق ذلك به شر ظاهر، نعم قال في أثره: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ تنبيهًا في الجملة علىٰ أن الجميع خلقه، حتىٰ جاء في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «والخير في يديك والشر ليس إليك»(١)»(٢). وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩]،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم: (٣٣٤٨)، وكتاب الرقاق، باب قوله تعالىٰ: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، برقم: (٦٥٣٠)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، بلفظ (وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ) ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم: (٧٧١)، عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ بلفظ(وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) ، وهو بهذا اللفظ في مسند الطيالسي ح رقم ٤١٤، ومسن البزار ح رقم ٢٩٢٦، وسنن النسائي الكبرىٰ ح رقم ١١٢٩٤، والحاكم في المستدرك، ح رقم ٣٣٨٤، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص علىٰ شرط البخاري ومسلم.

(٢) الموافقات (٢/ ١٦٦).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأضاف عيب السفينة إلىٰ نفسه رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلىٰ نفسه، كما تأدب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، فأسند الفعل قبل وبعد إلىٰ الله تعالىٰ، وأسند إلىٰ نفسه المرض، إذ هو معنىٰ نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن منها، دون ما يستقبح»[١].

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلىٰ الله تعالىٰ، والشر حذفوا فاعله تأدبًا مع الله»[٢].

المثال الثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، استخرج العلماء من هذه الآية هداية عظيمة، وهي تنعم المؤمنين برؤية ربهم، كما هو أصل عند أئمة السنة. قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أكثر المفسرين: عن رؤيته، قال الحسن: لو علم الزاهدون العابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد؛ لزهقت أنفسهم في الدنيا، قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في الآخرة عن رؤيته، وسئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه، فلم يروه، تجلىٰ لأوليائه حتىٰ رأوه، وقال الشافعي: دلالة علىٰ أن أولياء الله يرون الله عيانًا»[٣].

المثال الثالث: في قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، ونحوها من

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٣٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان(ص:٨٩٠).

(٣) معالم التنزيل (٥/ ٢٢٥).

الآيات، التي تخص الذكرىٰ بأقوام قامت فيهم أوصاف معينة. يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فخص الإنذار بمن ذكر في الآيات؛ لأنهم هم المنتفعون به، مع أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحقيقة منذر لجميع الناس»[1]. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، فاستفاد في تقرير تلك الهداية، من المعلوم في أصول الإسلام، أن النذارة عامة لجميع الثقلين. فقد استند العلماء علىٰ أصول التشريع العامة في فهم هذه الآيات واستنباط هداياتها.

ثالثًا: النظر في حكم التشريع واسراره:

١) مفهوم حكم التشريع وأهميتها:

الشرع الحكيم جاءنا من عند الله الحكيم الخبير، فكل ما شرعه لعباده شرعه بعلمه وحكمته، فحكم التشريع وأسراره التي يقصد بها الغايات التي من أجلها شرعت الأحكام، هي أحدىٰ الطرق التي سلكها العلماء في استنباط واستخراج بعض الهدايات، وهي من الأمور التي تبهر العقل، وتؤكد أن هذا التشريع من لدن حكيم خبير، وتدفع للاستجابة لأمر الله، وتنبه علىٰ معان دقيقة قد يغفل عنها بعض الناس، والحكم خلاف العلل؛ لأن «العلة وصف ظاهر منضبط»[2]، والحكمة وصف غير ظاهر ولا يلزم أن يكون ظاهرا ولا منضبطًا، فالنظر والتأمل في حكم التشريع وأسراره تنبه المتدبر لجوانب مهمة في الهدايات ولأهميتها اعتنىٰ بها العلماء كثيرًا قديمًا وحديثًا.

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٥٣٦).

(٢) الشرح الكبير لمختصر الأصول (ص: ٤٨٩).

٢) أمثلة لدلالة النظر في حكم التشريع وأسراره في استخراج الهدايات:

الأمثلة علىٰ ذلك كثيرة منها:

المثال الأول: قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْحِكْمَةُ فِي تَمْثِيلِ الْإِيمَانِ بِالشَّجَرَةِ: هِيَ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَا تَكُونُ شَجَرَةً إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: عِرْقٌ رَاسِخٌ، وَأَصْلٌ قَائِمٌ، وَفَرْعٌ عَالٍ، كَذَلِكَ الْإِيمَانُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْأَبْدَانِ»(١)، فاستفادة من تمثيل الإيمان بالشجرة هذه المعاني والهدايات المستنبطة.

المثال الثاني: قال تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْحِكْمَةُ فِي إِثْبَاتِ حَقِّ الرَّجْعَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ يَكُونُ مَعَ صَاحِبِهِ لَا يَدْرِي أَنَّهُ هَلْ تَشُقُّ عَلَيْهِ مُفَارَقَتُهُ أَوْ لَا فَإِذَا فَارَقَهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَظْهَرُ، فَلَوْ جَعَلَ اللهُ الطَّلْقَةَ الْوَاحِدَةَ مَانِعَةً مِنَ الرُّجُوعِ لَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ بِتَقْدِيرِ أَنْ تَظْهَرَ الْمَحَبَّةُ بَعْدَ الْمُفَارَقَةِ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ كَمَالُ التَّجْرِبَةِ لَا يَحْصُلُ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ، فَلَا جَرَمَ أَثْبَتَ تَعَالَىٰ حَقَّ الْمُرَاجَعَةِ بَعْدَ الْمُفَارَقَةِ مَرَّتَيْنِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ

---

(١) معالم التنزيل، البغوي (٤/ ٣٤٧).

قَدْ جَرَّبَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ الْمُفَارَقَةِ وَعَرَفَ حَالَ قَلْبِهِ فِي ذَلِكَ الْبَابِ، فَإِنْ كَانَ الْأَصْلَحُ إِمْسَاكَهَا رَاجَعَهَا وَأَمْسَكَهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنْ كَانَ الْأَصْلَحُ لَهُ تَسْرِيحَهَا سَرَّحَهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَهَذَا التَّدْرِيجُ وَالتَّرْتِيبُ يَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بعبده»(١). فهي تفيد إثبات حكمة الله تعالىٰ وكمال علمه ورحمته بعباده.

المثال الثالث: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذِهِ مُبَارَزَةٌ مِنَ السَّحَرَةِ لِمُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ أَيْ: قَبْلك. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَلۡقُواْ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ أَوَّلًا قَبْلِي. وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- لِيَرَىٰ النَّاسُ صَنِيعَهُمْ وَيَتَأَمَّلُوهُ، فَإِذَا فُرغ مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمُحَالِهِمْ، جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ تَطَلُّبٍ لَهُ وَالِانْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ، فَيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ. وَكَذَا كَانَ»(٢).

المثال الرابع: قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ [النساء: ٤٣].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْحِكْمَةُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الْغُسْلِ النَّظَافَةُ، وَنِيطَ ذَلِكَ بِأَدَاءِ الصَّلَاةِ لِيَكُونَ الْمُصَلِّي فِي حَالَةِ كَمَالِ الْجَسَدِ، كَمَا كَانَ حِينَئِذٍ فِي

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (٦/ ٤٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٦).

حَالِ كَمَالِ الْبَاطِنِ بِالْمُنَاجَاةِ وَالْخُضُوعِ. وَمِنْ أَبْدَعِ الْحِكَمِ الشَّرْعِيَّةِ أَنَّهَا لَمْ تنط وجوب التنظّف بِحَالِ الْوَسَخِ لِأَنَّ مِقْدَارَ الْحَالِ مِنَ الْوَسَخِ الَّذِي يَسْتَدْعِي الِاغْتِسَال والتنظف مِمَّا تَخْتَلِفُ فِيهِ مَدَارِكُ الْبَشَرِ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، فَنِيطَ وُجُوبُ الْغُسْلِ بِحَالَةٍ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي مُدَّةٍ مُتَعَارَفِ أَعْمَارِ الْبَشَرِ، وَهِيَ حَالَةُ دَفْعِ فَوَاضِلِ الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ... كَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الْوُضُوءِ، عَلَىٰ أَنَّ فِي الِاغْتِسَالِ مِنَ الْجَنَابَةِ حِكْمَةً أُخْرَىٰ، وَهِيَ تَجْدِيدُ نَشَاطِ الْمَجْمُوعِ الْعَصَبِيِّ الَّذِي يَعْتَرِيهِ فُتُورٌ بِاسْتِفْرَاغِ الْقُوَّةِ الْمَأْخُوذَةِ مِنْ زَبَدِ الدَّمِ، حَسْبَمَا تَفَطَّنَ لِذَلِكَ الْأَطِبَّاءُ فَقُضِيَتْ بِهَذَا الِانْضِبَاطِ حِكَمٌ عَظِيمَةٌ»(١).

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

«وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ أَثْبَتَ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ»(٢).

المثال الخامس: قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: إذا توفي الزوج، مكثت زوجته، متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبا، والحكمة في ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٦٥).

(٢) المصدر السابق (١٥/ ٢٣١).

عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة، عدتها علىٰ النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام»[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وقال: «من الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفىٰ بذلك فضلا»[٢].

والمثال السادس: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحكمة في تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية، والألطاف السبحانية، وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة، والرغبة وافرة، مع قربه، تعالىٰ وتقدس من عباده»[٣].

المثال السابع: قال تعالىٰ: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ١٠٤).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٢٨).

(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) (٢/ ٤٣).

نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الحكمة في الدعوة إلىٰ المباهلة هي إظهار الثقة بالاعتقاد واليقين فيه»(١). مما يُحتِّم علىٰ الدعاة إلىٰ الله أن يكونوا علىٰ ثقة عظيمة وفخر كبير بما يدعون الناس إليه.

ومن شواهد ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢]. قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حثّ جميع الأمة علىٰ تعقب قاتل النفس وأخذه أينما ثقف، والامتناع من إيوائه، أو الستر عليه، كل مخاطب علىٰ حسب مقدرته، وبقدر بسطة يده في الأرض، من ولاة الأمور إلىٰ عامة الناس»(٢).

وهذه الهداية الدقيقة لها تعلق بحكمة الشريعة في قتل القاتل، وهي المأخوذة من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩]، وقال في آخرها: «ولك أن تجعل المقصد من التشبيه توجيه حكم القصاص وحقيته، وأنه منظور فيه لحق المقتول، بحيث لو تمكن لما رضي إلا بجزاء قاتله بمثل جرمه، فلا يتعجب أحد من حكم القصاص، قائلًا: كيف نصلح العالم بمثل ما فسد به؟ وكيف نداوي الداء بداء آخر، فبين لهم أن قاتل النفس عند ولي المقتول، كأنما قتل الناس جميعًا»(٣).

(١) زهرة التفاسير (٣/ ١٢٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٨).

(٣) المرجع السابق.



المبحث الخامس

الهدايات الكلية أهميتها وأنواعها وطرق استخراجها

المطلب الأول: أهمية الهدايات الكلية.

المطلب الثاني: أنواع الهدايات الكلية.

المطلب الثالث: طرق استخراج الهدايات الكلية.





مدخل

الخروج من دلالة القرآن بهداية كلية دلَّ عليها من خلال المعنىٰ العام للآيات أو السورة أو الموضوع قديم من حيث التطبيق وتناول العلماء له، جديد من حيث المصطلح والتأصيل، والعلماء عندما يتكلمون عن الكليات في القرآن يقصدون بذلك المعنىٰ المطرد أو الغالب في الألفاظ أو الأساليب، وهو الغالب في التعبير عن الكليَّات، وما يلي الأساليب قد يعبِّرون عنه بعادات القرآن وطرائقه، ونحن هنا لنا مصطلح مختلف للكليَّات بعد أن أضيفت هذه الكلمة للهدايات بما سبق تعريفه.

ولما كان للهدايات الكلية أهميتها، وأنواعها، وطرق معينة في استخراجها والتوصِّل إليها تختلف عن طرق الهدايات الجزئية جاء هذا البحث لإلقاء الضوء عنها، وهي مهما قلنا وكتبنا عنها تظل أمرًا اجتهاديًا يختلف من صنيع مفسر لآخر، لاختلاف نظر العلماء في استخراجها، وفي التعبير عنها بين الإجمال والتفصيل حتىٰ في الهداية الكلية الواحدة؛ ولكن مثل هذه الدراسة تقرب وجهات النظر المتباعدة في مثل هذه الصنعة التي تتباين فيها القدرات والأفكار.

المطلب الأول
أهمية الهدايات الكلية

المفسر مهما بذل من جهدٍ في إدراك الهدايات الجزئية لا يبلغ مراده كله، ولا يحصل له إلا القليل منه؛ لأنه علم تفنىٰ فيه أعمار الرجال؛ ولذا من الأهمية بمكان العناية بالهدايات الكليات التي بها يتقق مقصود القرآن من خلال خطابه العام، وفهم الدين، وتصحح به مسيرة العبودية دون عناءٍ حتىٰ لا تنحرف عن الصراط المستقيم، يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن حق التفسير أن يشتمل علىٰ بيان أصول التشريع وكلياته فكان بذلك حقيقا بأن يسمىٰ علما؛ ولكن المفسرين ابتدأوا بتقصي معاني القرآن فطفحت عليهم وحسرت دون كثرتها قواهم، فانصرفوا عن الاشتغال بانتزاع كليات التشريع إلا في مواضع قليلة»[1].

فمن أراد أن يفهم القرآن علىٰ أساس متين، ومعالم واضحة توصله لما يحبه الله تعالىٰ ويرضاه، ويبعده عن سخطه وعذابه بمسلك سهل قريب، عليه أن يركز في فهم الكليات ونقلها للناس، ثم تبقىٰ الجزئيَّات هي موضع اهتمام العلماء وبها يتفاضلون، وفي درجها يصعدون، وبها عن سائر الناس يتميزون، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٣).

ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ومما يدل علىٰ أهمية ومنزلة الهداية الكلية ما تتميز به، ما يترتب علىٰ معرفتها من ثمرات، وهي كثيرة، وإليك الحديث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: مميزات الهدايات الكلية:

وتتميز الهدايات الكلية عن الهدايات الجزئية بمميزات كثيرة من أبرزها:

١) الهدايات الكلية تندرج تحتها جزئيَّات كثيرة، وتجمع أقسامًا وأنواعًا متعددة، وإدراكها يتضمن إدراك الكثير من الجزئيات الواقعة تحتها وإن لم ينص عليها، خلافًا للهدايات الجزئية.

٢) الهدايات الكلية يجمع بين بين جزئيَّاتها تناسب وتماسك وانسجام وتكامل في الدلالة نحو المعنىٰ الكلي الذي يضمها ويلخص فكرتها، ليست أوزاعًا من المعاني لا تلتئم علىٰ مشترك، أم الهدايات الجزئية فهي صنفان، جزيئيات تتضامن في الدلالة علىٰ كلي، وجزيئيات أوزاع من المعاني متناثرة تدل بأعيانها علىٰ مفاداتها.

٣) الهدايات الكلية أمور ذات أولويات عالية، من حيث ما تطرحه من معنىٰ أو تضمه من أجزاء بقاسم مشترك، والهدايات الجزئية أقل منها في هذا الباب.

٤) الهدايات الكلية ينص عليها غالبًا بالعموم والشمول الذي هو أصل خطاب الشرع ثم يأتي التفصيل الذي يزيدها أهمية ووضوحا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات:١٦] فهذه هداية كلية، ثم تأتي تفاصيل في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩].

٥) الدلالة علىٰ الهدايات الكلية واضحة غالبًا، علىٰ عكس الهدايات الجزئية التي تتم عن طريق الاستنباط والقياس غالبًا، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣]«المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس»[1].

٦) الهدايات الكلية يسهل جمع واجتماع الأمة عليها، لأنها موضع اتفاق غالبـًا، بخلاف الهدايات الجزئية المندرجة تحت هذه الهدايات الكلية.

٧) طرق استخراج الهدايات الكلية يختلف عن طرق استخراج الهدايات الجزئية التي سبق بيانها.

ثانيًا: فوائد معرفة الهدايات الكلية:

لدراسة الهدايات الكلية فوائد عديدة تدل علىٰ أهميتها، منها:

١) جمع ما تفرَّق من هدايات جزئية تحتها بطريقة يسهل فهمها، والعمل بها، وتعليمها، خاصة للعامة حيث هي: تقرب لهم ما بعد، وتسهل عليهم ما عسر، وترتب لهم ما تناثر من هدايات جزئية في كلية واضحة ميسرة تحقيقًا

(١) المصدر السابق (١/ ٤٠).

لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

٢) توصل إلىٰ الكشف عن وجه آخر من أوجه عظمة هذا الكتاب ونفائسه ومكامنه الإعجازية، كيف نثرت فيه هدايات جزئية لا منتهىٰ لحصرها، وكيف جمعت في كليات واضحة بيِّنة أظهرت لونًا آخر من جمالها وحسنها ورونقها، خرجت كذلك من بين آياته وسوره لتعطي وجهًا آخر فريدًا مهمًا في الهداية، جعلت تلك القطوف الجزئية دانية من كل متلمس للطريق يصعب عليه استيعاب تلك الهدايات الجزئية المنثورة، قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَمْ أُغَادِرْ سُورَةً إِلَّا بَيَّنْتُ مَا أُحِيطُ بِهِ مِنْ أَغْرَاضِهَا لِئَلَّا يَكُونَ النَّاظِرُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ مَقْصُورًا عَلَىٰ بَيَانِ مُفْرَدَاتِهِ وَمَعَانِي جُمَلِهِ كَأَنَّهَا فِقَرٌ مُتَفَرِّقَةٌ تَصْرِفُهُ عَنْ رَوْعَةِ انْسِجَامِهِ وَتَحْجُبُ عَنْهُ رَوَائِعَ جَمَالِهِ»[(١)].

٣) فتح آفاق عظيمة ومهمة للتدبر والدراسات في كتاب الله تعالىٰ تجعل الباحثين في هدايات القرآن يعيشون من خلالها في أودية بهيجة أخرىٰ، يتذوقون ثمرة مختلفة من أوجه دلالة هذا الكتاب العزيز غير التي عاشوها وهم يتنقلون بين رياضه الجزئية الوافرة الظلال.

٤) حسن تصور الجزئيَّات، فهي بمنزلة الأساس لها، ولا يكون رسوخ العلم وعدم اضطرابه والتمييز بين ما يشتبه فيه من مسائله إلا بعد الإلمام بكلياته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية تُرد إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلا فيبقىٰ في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل مظلم في الكليات

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨).

فيتولد فساد عظيم»[١].

٥) التدريب على وجه آخر من أوجه التدبر الذي أمرنا به في القرآن الكريم أمرًا عامًا مطلقًا للوصول إلى نتائج أخرى مهمة في الاهتداء للحق، لأن بعض الهدايات الجزئية لا يكتمل مطلوبها إلا بعد جمعها في هدايات كلية.

٦) تقديم الأهم في الخطاب الدعوي والتعليمي والتربوي من خلال تقديم الكليات على الجزئيات، والسير على سلم الأولويات يتطلب معرفة الكليات وتقديمها على الجزئيات، والتدرج في الدعوة والتعليم هو هدي سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هي وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه إلى اليمن، فقال: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ)[٢].

٧) زيادة البصيرة والقدرات في استنباط الهدايات الجزئية، حيث تجعل الباحث أكثر دقة في تحرير المسائل العلمية، واستكمال ما ترمي إليه الهدايات الجزئية من مقاصد كلية، وفق نظرة شمولية تكاملية.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٣٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: لَا تُؤْخَذُ كَرَائِمُ أَمْوَالِ النَّاسِ فِي الصَّدَقَةِ ح رقم ١٤٥٨، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدُّعَاءِ إِلَىٰ الشَّهَادَتَيْنِ وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ ح رقم ١٣٢.

المطلب الثاني
أنواع الهدايات الكلية

تنقسم الهدايات الكلية من جهة استخراجها إلىٰ أنواع متعددة منها:

النوع الأول: هداية كلية مستخرجة من سورة كاملة:

مثال ذلك: مقصد الفاتحة تحقيق العبودية لله تعالى:

وقد خدمت هذه الهداية الكلية من خلال ثلاث هدايات جزئية من حيث اندراجها تحت هذه الهداية الكلية، ثم هي من جهة أخرىٰ هدايات كلية من حيث ما يتبعها من تفريعات جاء تفصيلها في القرآن الكريم، وهي تتمثل في الآتي:

الأولىٰ: في التعريف بالمعبود الحق جل وعلا في قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

الثانية: في التعريف بطريق عبودية الله الذي يتمثل في الإخلاص والاتباع والاستعانة في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فأي عبادة لتقبل لابد فيها من إخلاص واستقامة، ولابد في التوفيق إليها من استعانة ربانية.

الثالثة: بيان عاقبة من عبده ومن لم يعبد، فهم بين منعم عليه في روضات

الجنات، ومغضوب عليه في دركات النار، في قوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وكل ما جاء من تفصيل في قصص القرآن هو في عاقبة من عبده ومن عصاه في الدنيا، وكل ما جاء من حديث عن اليوم الآخر والجنة والنار هو في بيان عاقبة من عبده ومن عصاه في يوم الحساب.

ومثال آخر لهداية كلية مستخرجة من آيات سورة كاملة: تشتمل الفاتحة علىٰ أقسام التوحيد الثلاثة: فتوحيد الربوبية دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ الرب هو المالك الخالق الرازق المدبر لهذا الكون.

وتوحيد الألوهية، وإفراده بالعبادة، والتبرؤ من الشرك دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال الذي جاءت به الفاتحة.

وتوحيد الأسماء والصفات دلت عليه الأسماء الخمسة الواردة في السورة - وهي: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك، وهذه الخمسة إليها مرجع جميع الأسماء الحسنىٰ[1].

النوع الثاني: هدايات كلية ظاهرة مستخرجة من مجموع آيات متتالية:

قلنا هداية كلية ظاهرة؛ لأنها لا تحتاج إلىٰ استنباط، مثال ذلك: قولك: أبرز صفات المتقين التي وردت في البقرة خمسة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم (١/ ٤٩-٥١).

﴿مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣، ٤].

وكقولك أوقات الصلوات الخمسة جمعت في قوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧، ١٨]، فقد روىٰ الليث عن الحكم عن أبي عياض قال: قال: ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «جمعت الصلوات، فسبحان الله حين تمسون المغرب والعشاء، وحين تصبحون صلاة الصبح، وعشيا صلاة العصر، وحين تظهرون صلاة الظهر»(١).

النوع الثالث: هدايات كلية خفية مستخرجة من مجموع آيات متتالية:

وقلنا هداية كلية خفية؛ لأنها لا يمكن الوصول إليها إلا بقدر من الاجتهاد والاستنباط، مثال ذلك: جمعت آيات الفاتحة أركان العبادة القلبية الثلاثة التي لا تستقيم العبادة إلا بها، **وهي المحبة والخوف والرجاء**، فقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تفتح باب المحبة القلبية، فهي تثبت له صفات الكمال، وتنزهه عن صفات النقص، وتثبت له كمال النعمة علىٰ خلقه، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ تفتح باب الرجاء؛ وذلك لأنَّ ذكر الرحمة يبعث الأمل والرجاء في العبد، وقوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تفتح باب الخوف؛ وذلك لأنَّ ذكر الحساب والجزاء علىٰ الأعمال في يوم القيامة يبعث علىٰ الخوف والرهبة(٢).

---

(١) جامع البيان؛ لأبي جعفر الطبري (١٦/ ٥٠).

(٢) انظر: تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر(ص:٢٢)؛ ومن هدايات سورة الفاتحة، أ.د. عبدالرزاق البدر، (ص:٨٥)، وتفسير وهدايات الفاتحة في ضوء تناسقها الموضوعي أ.د. طه عابدين طه.

وكقولك هداية إكرام الضيف والتفاني في قراه، وأن ذلك من شيم الأنبياء والصالحين في قوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات:٢٤ -٢٨]، ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن هذه الآيات جمعت آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وقد وصل إليها عن طريق الاستنباط، فقال: «فِي هَذَا الثَّنَاء علىٰ إِبْرَاهِيم من وُجُوه مُتعَدِّدَة: أَحدهَا: أَنه وصف ضَيفه بِأَنَّهُم مكرمون... الثَّانِي: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ فَلم يذكر استئذانهم، فَفِي هَذَا دَلِيل علىٰ أَنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كَانَ قد عرف بإكرام الضيفان، واعتياد قراهم فَبَقِيَ منزله مضيفة مطروقًا لمن ورده لَا يحْتَاج إِلَىٰ الاسْتِئْذَان بل اسْتِئْذَان الدَّاخِل دُخُوله وَهَذَا غَايَة مَا يكون من الْكَرم. الثَّالِث: قَوْله لَهُم سَلام بِالرَّفْع وهم سلمُوا عَلَيْهِ بِالنّصب، وَالسَّلَام بِالرَّفْع أكمل فَإِنَّهُ يدل علىٰ الْجُمْلَة الاسمية الدَّالَّة علىٰ الثُّبُوت والتجدد، والمنصوب يدل علىٰ الفعلية الدَّالَّة علىٰ الْحُدُوث والتجدد فإبراهيم حياهم أحسن من تحيتهم فَإِن قَوْلهم سَلاما يدل علىٰ سلمنَا سَلاما وَقَوله سَلام أَي سَلام عَلَيْكُم. الرَّابِع: أَنه حذف من قَوْله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ فَإِنَّهُ لما أنكرهم وَلم يعرفهُمْ احتشم من مواجهتهم بِلَفْظ ينفر الضَّيْف لَو قَالَ أَنْتُم قوم منكرون فَحذف الْمُبْتَدَأ هُنَا من ألطف الْكَلَام. الْخَامِس: أَنه بنىٰ الْفِعْل للْمَفْعُول وَحذف فَاعله فَقَالَ: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ وَلم يقل إِنِّي أنكركم وَهُوَ أحسن فِي هَذَا الْمقَام وَأبْعد من التنفير والمواجهة بالخشونة. السَّادِس: أَنه راغ إِلَىٰ أَهله ليجيئهم بنزلهم والروغان هُوَ الذّهاب فِي اختفاء بِحَيْثُ لَا يكَاد يشْعر

بِهِ الضَّيْف وَهَذَا من كرم رب الْمنزل المضيف أَن يذهب فِي اختفاء بِحَيْثُ لَا يشْعر بِهِ الضَّيْف فيشق عَلَيْهِ ويستحي فَلَا يشْعر بِهِ إِلَّا وَقد جَاءَهُ بِالطَّعَامِ بِخِلَاف من يسمع ضَيفه وَيَقُول لَهُ أَو لمن حضر مَكَانكُمْ حَتَّىٰ آتيكم بِالطَّعَامِ وَنَحْو ذَلِك مِمَّا يُوجب حَيَاء الضَّيْف واحتشامه. السَّابِع: أَنه ذهب إِلَىٰ أَهله فجَاء بالضيافة فَدلَّ علىٰ أَن ذَلِك كَانَ معدا عِنْدهم مهيئا للضيفان وَلم يحْتَج أَن يذهب إِلَىٰ غَيرهم من جِيرَانه أَو غَيرهم فيشتريه أَو يستقرضه. الثَّامِن: قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٖ﴾ دلّ علىٰ خدمته للضيف بِنَفسِهِ وَلم يقل فَأمر لَهُم بل هُوَ الَّذِي ذهب وَجَاء بِهِ بِنَفسِهِ وَلم يَبْعَثهُ مَعَ خادمه وَهَذَا أبلغ فِي إكرام الضَّيْف. التَّاسِع: أَنه جَاءَ بعجل كَامِل وَلم يَأْتِ ببضعة مِنْهُ وَهَذَا من تَمام كرمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الْعَاشِر: إِنَّه سمين لَا هزيل وَمَعْلُوم أَن ذَلِك من أَفْخَر أَمْوَالهم وَمثله يتَّخذ للاقتناء والتربية فآثر بِهِ ضيفانه. الْحَادِي عشر: أَنه قربه إِلَيْهِم بِنَفسِهِ وَلم يَأْمر خادمه بذلك. الثَّانِي عشر: أَنه قربه وَلم يقربهُمْ إِلَيْهِ وَهَذَا أبلغ فِي الْكَرَامَة أَن يجلس الضَّيْف ثمَّ يقرب الطَّعَام إِلَيْهِ ويحمله إِلَىٰ حَضرته وَلَا يضع الطَّعَام فِي نَاحيَة ثمَّ يَأْمر الضَّيْف بِأَن يتَقرَّب إِلَيْهِ. الثَّالِث عشر: أَنه قَالَ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ وَهَذَا عرض وتلطف فِي القَوْل وَهُوَ أحسن من قَوْله كلوا أَو مدوا أيديكم وَهَذَا مِمَّا يعلم النَّاس بعقولهم حسنه ولطفه وَلِهَذَا يَقُولُونَ بِسم الله أَو أَلا تَتَصَدَّق أَو أَلا تجبر وَنَحْو ذَلِك. الرَّابِع عشر: أَنه إِنَّمَا عرض عَلَيْهِم الْأكل لِأَنَّهُ رَآهُمْ لَا يَأْكُلُون وَلم يكن ضيوفه يَحْتَاجُونَ مَعَه إِلَىٰ الْإِذْن فِي الْأكل بل كَانَ إِذا قدم إِلَيْهِم الطَّعَام أكلُوا وَهَؤُلَاء الضيوف لما امْتنعُوا من الْأكل قَالَ لَهُم أَلا تَأْكُلُونَ وَلِهَذَا أوجس مِنْهُم خيفة أَي أحسها وأضمرها فِي نَفسه وَلم يبدها لَهُم وَهُوَ الْوَجْه. الْخَامِس عشر: فَإِنَّهُم لما امْتنعُوا من آكل

طَعَامه خَافَ مِنْهُم وَلم يظْهر لَهُم ذَلِك فَلَمَّا علمت الْمَلَائِكَة مِنْهُ ذَلِك قَالُوا لَا تخف وبشروه بالغلام. فقد جمعت هَذِه الْآيَة آدَاب الضِّيَافَة الَّتِي هِيَ أشرف الْآدَاب»(١).

النوع الرابع: هدايات كلية مستخرجة من مجموع آيات متفرقة:

وهذه يصل إليها العلماء من خلال الاستقراء للموضوع أو المعنىٰ المراد في عدد من المواضع، يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك: «دلَّ القرآن في عدة آيات: أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلىٰ بالاشتغال بما يضره، وحُرم الأمرَ الأول؛ وذلك أنه ورد في عدة آيات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب الأليم، ولما بين لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختيارًا ورضًا بطريق الغي علىٰ طريق الهدىٰ والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم... والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم ثم تركها بعد أن عرفها، وزهد فيها بعد أن سلكها عوقب بإبعاده في طريق الضلالة الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدىٰ، فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادرًا في طريق غوايته ممعنًا في سبيل ضلالته، جزاء علىٰ فعله، كقوله في اليهود في

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ محمد خير الأنام (ص:٢٧١- ٢٧٣).

سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ [البقرة: من الآيتان: ١٠١، ١٠٢] فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح شؤونهم وإسعادهم، ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها وأضرها للعقول، وأفتكها في إفساد المجتمع، ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان»[1].

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ٩٦).

المطلب الثالث
طرق استخراج الهدايات الكلية

هنالك طرق عديدة للوصول إلىٰ الهدايات الكلية، منها:

الطريقة الأولى:

استقراء الهدايات الجزئية التي وردت في الموضع الواحد من الآيات، أو في السورة، أو في القرآن الكريم يوصل للهدايات الكلية، ولهذا يقول العلماء: «اعلم أن العقل يحتاج في تصور أكثر الكليات إلىٰ استقراء الجزئيات»[١]، مثل تدبر القرآن في مجموعه يوصل أنه حق من الله تعالىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

الطريقة الثانية:

كثرة التأكيد والتكرار لبعض المعاني والموضوعات في الآيات، أو السورة، أو القرآن يسوق إلىٰ معرفة الهدايات الكلية، كقضية التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، أو الولاء والبراء، وغيرها.

الطريقة الثالثة:

معرفة مقصود السورة، وموضوعها الكلي، ومحاورها الرئيسة، وما بينها من تناسق موضوعي من طرق معرفة الهدايات الكلية. فالسورة وإن

(١) التفسير والمفسرون للذهبي (٤/ ٣٥٦).

تعددت آياتها، وتنوعت موضوعاتها، وتناثرت هداياتها الجزئية، فهي تخدم غرض كليًا يناسق بين أجزائها، ويربط بين معانيها، ويؤلف بين موضوعاتها حتىٰ تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني، تأخذ بيدك لهدايتها الكلية[١]، وقد اهتم بعض المفسرين بذلك حتىٰ يظهر الصورة الكلية لهدايتها، مثال ذلك في سورة (الفاتحة)، و(الإخلاص)، و(المعوذتين).

الموقف من الهدايات الكلية المستخرجة بطريقة الهدايات الجزئية:

الهدايات الجزئية قد تدل علىٰ معانٍ كلية في سياق الجمل والآية القرآنية، الأفضل أن تكون في الكتابة ضمن الهدايات الجزئية؛ لأن الباحث يستخرجها غالبًا من خلال دراسة الآية في سياقها الموضعي، فهي وإن دلت علىٰ معنىً كليٍّ تندرج تحتها عدد من الجزئيَّات؛ لكنها في كتابتها وتصنيفها جعلناها ضمن الهدايات الجزئية حتىٰ لا ندخل الباحث في عنت التصنيف وهو يستخرج الهدايات الجزئية وفق طرق العلماء التي استخدمها في الوصول إليها، ولكن ينبغي أن يستفيد منها في كتابة الكليات المهمة التي يريد أن يبرزها وينزلها في الواقع.

مثال هدايات كلية مستخرجة من جملة قرآنية: كقوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ:١١] هداية كلية، وكقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٢] هداية كلية، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾ [الأسراء:٣٦]هداية كلية، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ

---

(١) يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: ((إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامىٰ بجملته إلىٰ غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غنىٰ لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنىٰ عن ذلك في أجزاء القضية)) النبأ العظيم (ص: ١٩٢).

﴿عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] هدايات كلية، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨]، هداية كلية، وقد تجتمع معاني القرآن ومقاصده وهداياته الجزئية في هداية كلية واحدة من خلال جملة قرآنية، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، فكل الهدايات التفصيلية التي جاءت في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات وغيرها فإن القرآن يهدي فيها للتي هي أكمل وأصلح وأنفع.

ومثال هدايات كلية مستخرجة من آية: كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فلا عبادة إلا لله، ولا استعانة إلا بالله، فهي هداية كلية اعتقادية تدرج فيها مئات الجزئيَّات. وكقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، تفيد أن الدين الحق هو الاهتداء إلىٰ الصراط المستقيم، الذي يعني معرفة الحق والعمل به، وهي هداية كلية تندرج تحتها عشرات الجزئيَّات، فهي آخذة بمجامع الدين؛ لأنها تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. وكقوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، فهي تفيد تقسيم الخلق إلىٰ ثلاثة أقسام: منعم عليهم، هم الذين عرفوا الحق وعملوا به، ومغضوب عليهم، وهم الذين عرفوا الحقَّ وأعرضوا عنه، وضالون، وهم الذين ضلوا عن معرفة الحق وعملوا من غير هدىٰ، وأن سعادة الدنيا والآخرة تكمن في الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وأن دين الإسلام قائم علىٰ الوسطية، وأن سبب الخروج عن الحق إما العناد أو الجهل، كما أنها تكشف عن عقيدة الولاء والبراء، فهي هداية كلية تندرج فيها مئات الجزئيّات.

بل قد تستخرج عدد من الهدايات الكلية من آية واحدة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، وكقوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه جمعت مكارم الأخلاق كلها؛ لأن في أخذ العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وفي الأمر بالمعروف تقوىٰ الله وصلة الأرحام وصرف اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه»[١].

(١) البرهان في علوم القرآن (٥/ ٢٢٧).





المبحث السادس

الطريقة المثلى في صياغة الهدايات القرآنية

المطلب الأول: صياغة الهدايات عند العلماء.

المطلب الثاني: ذكر وجه الدلالة عند العلماء.

المطلب الثالث: الاستدلال للهداية عند العلماء.





المطلب الأول
صياغة الهدايات عند العلماء

إن الهدايةَ إذا ظهرت وبانت للباحثِ من خلالِ الدلالة، فإن قدراتِ المفسرين بعد ذلك تتباين في ثلاثة جوانب مهمة، اختلفت فيها صنعتهم، وهي:

الجانبُ الأول:

في طريقةِ التعبيرِ عنها؛ لأنَّ التعبيرَ عن المعاني التي دلَّ عليها القرآنُ وهدىٰ هي صنعةٌ بشريةٌ تختلفُ فيها قدراتُ العلماء، كما قال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

والجانب الثاني:

في بيان وجه الدلالة علىٰ الهداية المستخرجة، والاستدلال عليها بأدلة أخرىٰ من غيرها.

والجانب الثالث:

في طريقةِ ربطها بالواقع؛ لأن المشتغل بالهداياتِ لا يقفُ جهدُه عند بيانِ الهدايات؛ بل يسعىٰ للاستفادةِ من كل هداية في إصلاحِ واقع الفردِ والجماعةِ ومن هنا تباينت جهود العلماء في التعبير عن الهدايات، وعن توظيفهم لها في الواقع.

فالعلماء تنوعت صياغتهم للهدايات وتعددت؛ ولكن من خلال النظر والتتبع والاستقراء الذي تمَّ عندي لعدة سنوات هنالك معايير مثلىٰ سلكها كثير من العلماء في صياغة الهداية ينبغي مراعاتها، نوجزها في عشر نقاط مهمة تتمثل في الآتي:

أولًا: الوضوح:

الهداية دلالة ترشد لكل خير وتعصم من كل شر، لابد أن تصاغ بطريقة واضحة ومحكمة ودقيقة وسلسة يجدُ فيها كلُّ مسلمٍ بغيتَه، ويسهلُ عليه فهمُها، مع البعد عن استخدام الألفاظ الغريبة، والأساليب الغامضة، والتعبيرات غير العلمية، فالقرآن كتاب وصفه مُبين بيِّن، ليتحقق الهدي من بيانه، قال تعالىٰ: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل:١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج:١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور:٤٦].

والله عَزَّوَجَلَّ بين لنا لماذا جعله بيِّنًا ومبينًا للهدىٰ، وبيِّنات عليه، حتىٰ يهتدي به العباد، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق: ١٠،١١].

وهذا البيان واضح لأهل العلم وضوح الشمس في رابعة النهار، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، فالعلماء الذين ظهرت لهم هذه الهدايات؛ لابد عند صياغتهم لها من مراعاة أن تكون موافقة لوصف الكتاب، محققة للمقصد الذي من أجله جعله الله تعالىٰ بيِّنًا ومبينًا للحق.

ثانيًا: الاختصار:

الهدف من صياغة الهداية توصيل المعنىٰ المراد بأقصر طريق، وأوجز بيان؛ دون شرح وتطويل، فلابد أن تكتب الهداية بطريقة مختصرةٍ جامعةٍ مانعة، تحقق الإفادة دون تطويل، مما يتطلب عدم الاستطراد والخروج عن الموضوع، ، وهذه هي البلاغة التي هي وصف القرآن الذي أعجز العرب من الاتيان بمثله؛ ولذا العلماء يذكرون الهداية غالبًا باختصار شديد.

مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّت الآية علىٰ أن المقتول ميت بأجله، وأن تغيير الآجال ممتنع»[(١)].

وأحيانًا يذكرون الهداية، وينبهون علىٰ عدم خوضهم فيما خاض فيه بعض أهل المعاني بغير دليل، مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠]. قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دَلَّت الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُ ذُرِّيَّةً. أَمَّا

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٣٧٨).

كَيْفِيَّةُ وِلَادَةِ تِلْكَ الذُّرِّيَّةِ فَلَمْ يَثْبُتْ فِيهِ نَقْلٌ صَحِيحٌ، وَمِثْلُهُ لَا يُعْرَفُ بِالرَّأْيِ»[١].

وأحيانًا إذا احتاج الأمر إلىٰ بسط بسطوا في ذلك والبسط إذا دعاه المقام هو كذلك من عين البلاغة العربية، فإن لكل غرض ظرفه الذي يناسبه في البيان، مثال ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّت الآية علىٰ أن الفطام في أقل من حولين لا يجوز إلا عند رضا الوالدين، وعند المشاورة مع أرباب التجارب؛ وذلك لأن الأم قد تمل من الرضاع فتحاول الفطام، والأب أيضا قد يمل من إعطاء الأجرة علىٰ الإرضاع، فقد يحاول الفطام دفعا لذلك، لكنهما قلَّما يتوافقان علىٰ الإضرار بالولد لغرض النفس، ثم بتقدير توافقهما اعتبر المشاورة مع غيرهما، وعند ذلك يبعد أن تحصل موافقة الكل علىٰ ما يكون فيه إضرار بالولد، فعند اتفاق الكل يدل علىٰ أن الفطام قبل الحولين لا يضره البتة. فانظر إلىٰ إحسان الله تعالىٰ بهذا الطفل الصغير؛ كم شرط في جواز إفطامه من الشرائط دفعا للمضار عنه، ثم عند اجتماع كل هذه الشرائط لم يصرح بالإذن؛ بل قال: فلا جناح عليهما، وهذا يدل علىٰ أن الإنسان كلما كان أكثر ضعفا كانت رحمة الله معه أكثر، وعنايته به أشد»[٢].

ثالثًا: التسلسل:

عند ذكر الهدايات لابد من مراعاة ترتيب وتسلسل الهدايات حسب ترتيب جمل الآية وموضوعاتها، فإن الترتيب في القرآن مقصود، فلا يقدم

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٢٩٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٦/ ٤٦٤).

موضوعًا أخرته الآية عند ذكر الهدايات أو يتقدم الباحث ويتأخر كيف شاء وهو يصوغ في هدايتها؛ بل ينبغي أن يتبع تسلسل الكلمات والجمل والآيات.

مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجر:١٢]، نجد العلماء هنا يبدؤون بالظن، ثم الحديث عن التجسس، ثم الغيبة، والظن فعل القلب، وبه تبدأ الهواجس الشيطانية؛ لذا قدم، فيدفع ذلك إلىٰ التجسس؛ وهو فعل الجوارح متعددة، ثم إذا ظهرت العيوب وقعت الغيبة، وهي فعل جارحة اللسان، فلابد من مراعاة هذا الترتيب عند الحديث عن هدايات الآية.

ومثله ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّت الآية علىٰ أن إيجاب الصلاة والزكاة كان مقدما علىٰ إيجاب الجهاد، وهذا هو الترتيب المطابق لما في العقول، لأن الصلاة عبارة عن التعظيم لأمر الله، والزكاة عبارة عن الشفقة علىٰ خلق الله، ولا شك أنهما مقدمان علىٰ الجهاد»(١).

ومثله ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥]. فالإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٤٣).

عند ما ذكر هدايتها راعىٰ ترتيب الألفاظ بدقة فقال: «هذه الآية تدل علىٰ أمور؛ أحدها: أنَّا إذا فسرنا الطائفين بالغرباء فحينئذ تدل الآية علىٰ أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة؛ لأنه تعالىٰ كما خصَّهم بالطواف دلَّ علىٰ أن لهم به مزيد اختصاص. وروي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء: أن الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل. وثانيها: تدل الآية علىٰ جواز الاعتكاف في البيت. وثالثها: تدل علىٰ جواز الصلاة في البيت فرضًا كانت أو نفلًا؛ إذ لم تفرق الآية بين شيئين منها»[1]، فهم عندما يذكرون الهدايات يذكرونها حسب تسلسها وترتيبها في الآية.

ومثله ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة: ١٩٨]، قال السعدي: «دلالة علىٰ أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفا أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات، لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضا معروف، يكون ليلة النحر بائتا بها، وبعد صلاة الفجر، يقف في المزدلفة داعيا، حتىٰ يسفر جدا، ويدخل في ذكر الله عنده، إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة، متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع، والخامس: أن عرفات ومزدلفة، كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها، وإظهارها.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٤٢).

السادس: أن مزدلفة في الحرم، كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل، كما هو مفهوم التقييد بـ «مزدلفة»»[(١)] .

رابعًا: الاستيعاب: الهداية فكرة تبدأ عند عالم، وتكبر مع الزمن عند عالم أو علماء آخرين، فتجد لثقافة العصر الذي عاش فيه العالم ومكانه أثره الكبير علىٰ ذلك، كما أن الثقافات المتنوعة لها تأثيرها في فكرة الهداية والتعبير عنها مما يتطلب وعيًا دقيقًا في استيعاب خلاصة ما ذكر من فوائد، بعضها كان في المشرق وبعضها في المغرب، وبينهما من تفاوت العصور ما الله به عليم، فلابد أن تكون الخلاصة المكتوبة جامعة مانعة مستوعبة لكل ما ذكره العلماء مع مراعاة التباين بينهما.

مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [النساء:٥]، تحدث الإمام ابن العربي وابن عاشور عن علة إضافة أموال المحاجير المملوكة للأولياء، مستخرجين من ذلك فائدة؛ وهي: أثر السفه علىٰ المال العام؛ ولكن نظر كيف عبَّر كل واحد منها عن هذه الهداية:

فالإمام ابن العربي (ت: ٥٤٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبر عنها بألفاظ وفكرة محددة، فقال: «وَإِضَافَتِهَا إِلَىٰ الْأَوْلِيَاءِ؛ لِأَنَّ الْأَمْوَالَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْخَلْقِ، تَنْتَقِلُ مِنْ يَدٍ إِلَىٰ يَدٍ، وَتَخْرُجُ عَنْ مِلْكٍ إِلَىٰ مِلْكٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء:٢٩] مَعْنَاهُ: لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا؛ فَيُقْتَلُ الْقَاتِلُ فَيَكُونُ قَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٩٢).

وَكَذَلِكَ إِذَا أُعْطِيَ الْمَالُ سَفِيهًا فَأَفْسَدَهُ رَجَعَ النُّقْصَانُ إِلَىٰ الْكُلِّ»[١].

ثم جاء ابن عاشور (ت:١٣٩٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ما يقارب خمسين وثمانمائة سنة فعبر عن هذه الهداية بأسلوب مختلف وفكرة أوسع فقال: «وَأُضِيفَتِ الْأَمْوَالُ إِلَىٰ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ بِـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إِشَارَةً بَدِيعَةً إِلَىٰ أَنَّ الْمَالَ الرَّائِجَ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ حَقٌّ لِمَالِكِيهِ الْمُخْتَصِّينَ بِهِ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ تَلُوحُ فِيهِ حُقُوق الْأمة جَمْعَاءَ؛ لِأَنَّ فِي حُصُولِهِ مَنْفَعَةً لِلْأُمَّةِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّ مَا فِي أَيْدِي بَعْضِ أَفْرَادِهَا مِنَ الثَّرْوَةِ يَعُودُ إِلَىٰ الْجَمِيعِ بِالصَّالِحَةِ، فَمِنْ تِلْكَ الْأَمْوَالِ يُنْفِقُ أَرْبَابُهَا وَيَسْتَأْجِرُونَ وَيَشْتَرُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ ثُمَّ تُورَثُ عَنْهُمْ إِذَا مَاتُوا فَيَنْتَقِلُ الْمَالُ بِذَلِكَ مِنْ يَدٍ إِلَىٰ غَيْرِهَا فَيَنْتَفِعُ الْعَاجِزُ وَالْعَامِلُ وَالتَّاجِرُ وَالْفَقِيرُ وَذُو الْكَفَافِ، وَمَتَىٰ قَلَّتِ الْأَمْوَالُ مِنْ أَيْدِي النَّاسِ تَقَارَبُوا فِي الْحَاجَةِ وَالْخَصَاصَةِ، فَأَصْبَحُوا فِي ضَنْكٍ وَبُؤْسٍ، وَاحْتَاجُوا إِلَىٰ قَبِيلَةٍ أَوْ أُمَّةٍ أُخْرَىٰ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ ابْتِزَازِ عِزِّهِمْ، وَامْتِلَاكِ بِلَادِهِمْ، وَتَصْيِيرِ مَنَافِعِهِمْ لِخِدْمَةِ غَيْرِهِمْ، فَلِأَجْلِ هَاتِهِ الْحِكْمَةِ أَضَافَ اللهُ تَعَالَىٰ الْأَمْوَالَ إِلَىٰ جَمِيعِ الْمُخَاطَبِينَ لِيَكُونَ لَهُمُ الْحَقُّ فِي إِقَامَةِ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَحْفَظُ الْأَمْوَالَ وَالثَّرْوَةَ الْعَامَّةَ. وَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَا أَحْسَبُ أَنَّ حَكِيمًا مِنْ حُكَمَاءِ الِاقْتِصَادِ سَبَقَ الْقُرْآنَ إِلَىٰ بَيَانِهَا»[٢].

وإذا جئت أنت اليوم تكتب هذه الهدايات، فلابد من استيعاب ما جاء في كلام الإمامين مع محاولة الاستفادة من كل كلمة وفكرة عبروا عنها، مع إضافة النقطة التي تليها؛ وهي المعاصرة في الخطاب.

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ١٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٣٤).

خامسًا: المعاصرة:

الناس أشبه بزمانهم من شبههم بآبائهم؛ ولذا تجد أن العلماء عبروا عن الهداية في كل عصر بما يناسب إنسان ذلك العصر، ليس فقط في الأساليب التعبيرية؛ بل حتىٰ في الأمثلة والنماذج التي ذكروها؛ فلابد بعد استيعاب ما كتبه العلماء وعبروا عنه من صياغتها صياغة معاصرة تتناسب مع إنسان اليوم، فالقرآن راعىٰ في خطابه مكونات البيئة العربية التي نزل فيها، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ [الغاشية:١٧-١٩]، فهذه الأمور التي أمر الله تعالىٰ بالنظر والتأمل فيها تجمع البيئة العربية بكل مكوناتها؛ وقد يعيش إنسانٌ في بيئة ليس فيها أي إبل؛ لكنه سيجد خلقًا آخر من الحيوانات؛ كالفيل وغيره لينظر ويتأمل في عظيم قدرة من خلقه وكوَّنه وسخَّره.

ومن يتأمل حتىٰ في الأمثال التي ضربها الله تعالىٰ في كتابه فإن غالبها كان متشكلًا في تلك البيئة العربية التي نزل فيها القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، هم لا يملكون شيئًا ولكن ذكر لهم من بيئتهم ما يناسبهم، وهو القطمير الذي هو لفافة النواة التي تكون عليه، وهي بيضاء رقيقة، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسرين»(١)، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤]، وهم لا يظلمون شيئا؛ ولكن ذكر لهم من بيئتهم ما يسهل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/ ٣٣٧).

عليهم تصوره من الأمور الحقيرة التي لا قيمة لها عندهم، فالفتيل هو: «الخيط المستطيل في شق نواة التمرة»[(١)]، والنقير: هو النقرة الصغيرة في ظهر النواة، «عن مجاهد: قال: النقير، الذي يكون في ظهر النواة»[(٢)].

سادسًا: عدم التكرار:

التكرار للآية بنصها من أساليب القرآن النادرة التي لا تتجاوز آيات معدودة، وهي مع قلتها تتضمن كثير من الأسرار والحكم كالتأكيد والتنبيه والتقرير والتعظيم والتهويل وغيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٢]، فلا يكرر القرآن الكريم كلامًا دون فائدة.

ونحن هنا نؤكد علىٰ تجنب التكرار في الألفاظ والمعاني والأفكار عند ذكر الهدايات دون فائدة، ولمَّا كانت الهداية هي ثمرة فهم المعنىٰ، والعلماء يعبرون عن المعنىٰ والهداية بألفاظ مختلفة؛ غالبًا ما يستفيد منها من يكتبون في الهدايات ويبنون عليها، فلابد من تجنب التكرار أثناء جمع المعاني، وجمع الأفكار المتنوعة للعلماء، ومحاولة الاستفادة منها كلها، فنحن ندعو إلىٰ الاستفادة والإكثار من الهدايات؛ ولكن من دون تكرار.

انظر إلىٰ الجشمي[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ وهو يتحدث عن سبع هدايات متوالية

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ١٤٤).

(٢) جامع البيان (٩/ ٢٤٩).

(٣) ابن كرامة المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي، مفسر، عالم بالأصول والكلام، حنفي ثم معتزلي فزيدي. وهو شيخ الزمخشري (ت:٤٩٤ ه). انظر: الأعلام لخير الدين الزركلي (٥/ ٢٨٩).

في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٥،٣٤]، فقال: «تدل الآية علىٰ عظيم معجزة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتدل علىٰ جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعىٰ لا يقدر عليه غير الله تعالىٰ، حتىٰ نسبوه إلىٰ السحر. وتدل علىٰ أن عادة البشر أن من رأىٰ أمرًا عظيمًا أن يعارضه، فلذلك دعا فرعون بالسحرة، فدل علىٰ أن العرب لو قدروا علىٰ مثل القرآن، لعارضوه. وتدل علىٰ أن الطريق في المعجزات المعارضة بإتيان مثله، ولذلك قال تعالىٰ في القرآن: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه. وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة علىٰ الملك والمال؛ لذلك قالوا: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ فيدل علىٰ أن من أقوىٰ الدواعي إلىٰ ترك الدين المحافظة علىٰ الرياسة والمال والجاه، كما هو عادة الناس في هذا الزمن»(١)، فليس في كلامه تكرار ولا تداخل بين فكرة هداية وأخرىٰ، وهذا كذلك مهم وستبينه النقطة الآتية.

سابعًا: تجنب التداخل:

فالذي يكتب في الهدايات؛ وهو يقرأ قراءة واسعة في المعاني، وفيما كتبه العلماء تتداخل عنده كثير من الهدايات والأفكار المستنبطة؛ فعليه كتابة كل هداية بصورة مستقلة، فلا ينبغي الجمع بين عدد من الهدايات في الصياغة؛ لأن ذلك يؤدي إلىٰ ضياع بعض الهدايات أو نسيانها، والقرآن فصَّل كل قضية، وفصلها عن أختها بما لا يؤدي إلىٰ لبس أو غموض، قال تعالىٰ:

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ١٦٤).

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

فالعلماء عندما يذكرون هدايات الآية يفصلون كل هداية عن الأخرىٰ؛ مثال ذلك: ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية علىٰ أن المؤاخذة بالذنب لا تحصل إلا بعد البيان وإزاحة العلة، فإذا علق الوعيد بشرط مجيء البينات وحصولها؛ فبأن لا يجوز أن يحصل الوعيد لمن لا قدرة له علىٰ الفعل أصلا أولىٰ، ولأن الدلالة لا ينتفع بها إلا أولوا القدرة، وقد ينتفع بالقدرة مع فقد الدلالة.

وقال أيضا: دلت الآية علىٰ أن المعتبر حصول البينات لا حصول اليقين من المكلف فمن هذا الوجه دلت الآية علىٰ أن المتمكن من النظر والاستدلال يلحقه الوعيد كالعارف، فبطل قول من زعم أن لا حجة لله علىٰ من يعلم ويعرف»[1].

ثامنًا: تجنب التناقض:

فإن القرآن الكريم موصوف بالكمال والحسن والتمام، منزه عن العوج والتناقض والاختلاف والكذب والعيب، يصدق بعضه بعضا في معانيه وهداياته، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقال

(١) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٥٥).

تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ يَعْنِي: أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي الْقُرْآنِ، وَالتَّدَبُّرُ: هُوَ النَّظَرُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، وَدُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ آخِرُهُ. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أَيْ تَفَاوُتًا وَتَنَاقُضًا كَثِيرًا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقِيلَ: لَوَجَدُوا فِيهِ أَيْ: فِي الْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَكُونُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ فَيَعْرِفُوا -بِعَدَمِ التَّنَاقُضِ فِيهِ وَصِدْقِ مَا يُخْبِرُ- أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَكُونُ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا يَخْلُو عَنْ تَنَاقُضٍ وَاخْتِلَافٍ»(١).

ونحن عندما نقرأ في كتب التفسير نجد أن هنالك اختلافًا وتباينًا كبيرًا في فهم وتقرير معانيه بين المفسرين لأسباب كثيرة: منه ما هو من اختلاف التضاد، ومنه ما هو من اختلاف التنوع، ونحن في محاولتنا للاستفادة من جميع ما كتبه المفسرون علينا أن ننتبه ألا يكون بين الهدايات المستخرجة تناقض واختلاف، فلابد من دقة متناهية في اختيار المعاني، وبناء الهدايات عليها دون اختلاف وتناقض.

تاسعًا: التحفيز للعمل:

الهدف من صياغة الهداية إظهار الحق للناس وترغيبهم في الاهتداء به، واتباع ما جاء فيه، وتنمية محبتهِ وعظمتهِ في نفوسهِم، ومحبة الله وكتابه وتعظيمهما، فلابد أن تكون الصياغة محفزة للعمل بالهداية، ومحققةً لغايةِ القرآن في إسعادِ الإنسان في الدنيا والآخرة، والتي عبَّرنا عنها في مصطلحِ

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٢٥٤).

الهدايات بـ «أن توصِلَ لكلِّ خيرٍ وتمنعَ من كلِّ شر»(١)، والقرآن في خطابه كثيراً ما يحفز على الاستجابة بل المسارعة، ورغب في الجنة والطاعة بأساليب يقف العق فيها حائر، كما في قوله تعالىٰ في الترغيب في الجنة وما فيها حتىٰ تتحفز النفوس للعمل لها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

فالعلماء وهم يعبرون عن الهداية تجد عندهم عناية كبيرة بهذا الجانب، فمثال ذلك نجد الرازي وهو يتحدث عن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩] قال: «دلت الآية علىٰ أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربَّانيًّا، فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيه وخاب عمله، وكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها، ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع)(٢) »(٣).

ويقول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] «وقد دلت الآية علىٰ الحث ببر الوالدين وإكرامهما، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة، وناهيك احتفالًا بهما أن الله عز اسمه قرن ذلك بعبادته»(٤).

(١) الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية (١/ ٤٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٢٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ح رقم ١٥٥٠، وابن ماجة في سننه ٣٨٣٧، والنسائي في السنن الكبرىٰ ح رقم٧٨٧١، والحاكم في المستدرك ح رقم ٣٥٤، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وقال الذهبي قي التلخيص: صحيح، وصححه الألباني.

(٤) روح المعاني (١/ ٣٨٨).

عاشرًا: تنزيل الهداية على الواقع:

القرآن الكريم اختار الله تعالىٰ له طريقة في التنزيل تختلف عن سائر الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها، حيث نزل منجمًا، مرتبطًا بالواقع، ملامسًا لحاجياته، معايشًا لأحداثه، ملبيًا لمتطلباته، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان:٣٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء:١٠٦]. ومن هنا اختلف خطاب القرآن المكي في موضوعاته وأساليبه عن القرآن المدني لاختلاف أولويات وحاجات ووقائع وأحدث كل فترة، فركَّز القرآن المكي علىٰ قضايا التوحيد والإيمان بالبعث وبناء مكارم الأخلاق حسب حاجة ذلك المجتمع القائم علىٰ الشرك وعادات الجاهلية البغيضة، خلافًا للقرآن المدني الذي تركز خطابه في الحديث عن أهل الكتاب والنفاق والمنافقين وجوانب التشريع التي يقوم عليه نظام المجتمع المسلم، كما روعي في كل خطاب حال الأمة من قوة وضعف، وما اختلف فيهما من عادات وتقاليد، فلما كانت عادة العرب الجاهلية في مكة كره النساء خاطبهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل:٥٧-٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨، ٩].ولما كان التطفيف في الكيل منتشر في المدينة أنزل الله تعالىٰ عليهم: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤

لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ١-٦]، فعن عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ[(١)]، وهكذا تنوع الآيات في موضوعاتها وأسلوبها حسب تنوع الواقع والأحداث.

وقد اختار الله تعالىٰ هذه الطريقة في نزول القرآن لحكم كثيرة، فهي مع ما فيه من تسهيل للحفظ والفهم، فهو منهج أصل في التطبيق والعمل بهديه، فإن الإنسان بفطرته يتشوق ويتطلع لتلقي الكلام الذي يلامس واقعه، ويلبي حاجته، ويهديه للتي هي أقوم في الأحداث التي تواجهه، كما أن الأمة تتعلم من معرفة تلك الحوادث والأسباب فقه أوسع في التنزيل كل ما استدعاها الواقع بأحداثه المتكررة المتشابهة؛ لأنها تكون «أحفظ لتلك المعاني، وأعرف بمواضعها، وتقدير غيرها من النوازل بها من أن نزل جملة في دفعة واحدة، والله أعلم»[(٢)]. فالقرآن الكريم نزل منجمًا «ليكون منهجا عمليا يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد، لا فقها نظريا ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني! وتلك حكمة نزوله متفرقا، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولىٰ. ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين علىٰ هذا المعنىٰ. تلقوه توجيها يطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهي، وكلما تلقوا منه أدبا أو فريضة، ولم يأخذوه

---

(١) أخرجه النسائي في السننِ الكبرىٰ ح رقم (١١٦٥٤)، وابنِ ماجة ح رقم (٢٢٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم (٥٢٨٦)، والطبراني في المعجمِ الكبير ح رقم (١٢٠٤١)، وابن حبان في صحيحهِ ح رقم (٤٩١٩)، والحاكمُ في المستدركِ ح رقم (٢٢٤٠)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ ولم يخرجاه، وقال الذهبيُّ: صحيحٌ، وحسنه الألبانيُّ في صحيح ابن ماجة.

(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي (٨/ ٢٤).

متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب، ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير فتكيفوا به في حياتهم اليومية. تكيَّفوا به في مشاعرهم وضمائرهم، وفي سلوكهم ونشاطهم، وفي بيوتهم ومعاشهم، فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كل ما عداه مما ورثوه، ومما عرفوه، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن»[١].

فالقرآن الكريم أنزله الله تعالىٰ ليهدي البشرية كلها للتي هي أقوم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]. فهو علم وعمل، ونور وهدىٰ، ليس نظريات فلسفية، ولا جدليات كلامية لا ترتبط بواقع الإنسان، جاء ليوجِّه مسيرة الإنسانية نحو ربها، ويرتب شؤون حياتها؛ وعندما يكون الدين نظريات وجدليات وفلسفات لا تنعكس علىٰ الواقع عقيدة وسلوكـًا تضيع الأمة، فلا مجال لفصل الهداية عن الحياة والواقع، بل كل آية وجملة منه تشتمل علىٰ هداية، وعلىٰ واقع تتمثل وتتجسد فيه تلك الهداية، فهو بهذا الفقه نزل وأحدث تأثيره في بناء الجماعة الأولىٰ، ويظل بنفس هذا الفقه في الجمع بين هداية العلم والعمل من خلال تنزيلها في الواقع مؤثراً فاعلا في بناء الأجيال والمجتمعات في كل زمان ومكان.

ولما كان تنزيل الهدايات علىٰ الواقع بهذه الأهمية؛ لأنه هو الذي يسوق الناس للعمل بالهدىٰ، ويثبتهم عليهم في مواجهة الباطل، ويدفع عنهم ما يواجهونه من نوازل وأحداث؛ حرص العلماء علىٰ ربط الهداية عند صياغتها بالواقع بقدر الإمكان تعزيزاً لجوانب الخير والمعروف، وتقليلاً لجوانب

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٨).

الشر والمنكر، فالبعد الواقعي في صياغة الهدايات مهم جدًا حتىٰ نجعل القرآن هاديًا للأمة ومصلحًا لحياتها، وتظهر آثاره وبركته علىٰ الناس، خاصة عند صياغة الهدايات الكلية؛ أو وجود ظواهر في الواقع بارزة تخالف الهداية المستخرجة من القرآن الكريم أو تكون هنالك قضايا شاغلة للرأي العام، أو أحداث تستدعىٰ الوقوف عليها، وعلىٰ قدرِ فقهِ الواقع وفهم أولوياته، وحسنِ تصوُّرِ الواجبِ في الواقع تكون قدرةُ الباحثِ في تنزيلِ الهدايات عليه.

وقد سلك العلماء لإنزال الهدايات علىٰ الواقع أساليب متنوعة منها: محاولة ربط الأحداث الواقعية بما يشابهها، أو التعليق علىٰ بعض السنن الربانية المتكررة، أو ذكر بعض أفراد العام بما يشمله النص في عمومه من خلال الواقع، أو ذكر بعض الأمثلة والنماذج بما يتوافق مع حاجة الواقع، مثلاً من يتحدث عن سؤال النعيم في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، فيذكر له أمثلة من واقعه لا ينتبه لها أنها من النعيم الذي يشكر، كالكهرباء، والثلاجات، والطائرات، والتلفونات، وغيرها فهذه من أخصب المجالات في تنزيل الهدايات علىٰ الواقع.

وقد اعتنىٰ علماء التفسير بهذا الجانب بصورة كبيرة حتىٰ تبلور ذلك في الفترة الأخيرة في مدرسة كاملة في التفسير سميت بالاتجاه الاجتماعي؛ والذي يمثل تفسير المنار أبرز مصادره، والأمثلة علىٰ عناية العلماء به كثيرة من ذلك:

المثال الأول: في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢]، نجد القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن هداية الآية التي تحثّ علىٰ التزيُّن يجمع الأدلَّة المتنوعة؛ ليرد علىٰ

انحرافات مهمة في المجتمع؛ فيقول: «دلَّت الآية علىٰ لباس الرفيع من الثياب، والتجمل بها في الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان. قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا. وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأىٰ حلة سيراء تباع عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ »(١). فما أنكر عليه ذكر التجمل، وإنما أنكر عليه كونها سيراء. وقد اشترىٰ تميم الداري حلة بألف درهم كان يصلي فيها. وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد. وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترىٰ بنحو الدينار. أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب. ويقول: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] هيهات! أترىٰ من ذكَرْنا تركوا لباس التقوىٰ؟ لا والله! بل هم أهل التقوىٰ وأولو المعرفة والنهىٰ، وغيرهم أهل دعوىٰ، وقلوبهم خالية من التقوىٰ. قال خالد بن شوذب: شهدت الحسن وأتاه فرقد، فأخذه الحسن بكسائه فمده إليه، وقال: يا فريقد، يا ابن أم فريقد، إن البر ليس في هذا الكساء، إنما البر ما وقر في الصدر وصدقه العمل... وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوىٰ من الله تعالىٰ، ويوجب احتقار اللابس؛ وكل ذلك مكروه منهي عنه. فإن قال قائل: تجويد اللباس هوىٰ النفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزين للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق. فالجواب ليس كل ما تهواه

---

(١) في كتاب: اللباس والزينة، باب: تَحْرِيمِ اسْتِعْمَالِ إِنَاءِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ عَلَىٰ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَخَاتَمِ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ عَلَىٰ الرَّجُلِ وَإِبَاحَتِهِ لِلنِّسَاءِ وَإِبَاحَةِ الْعَلَمِ وَنَحْوِهِ لِلرَّجُلِ مَا لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ أَرْبَعِ أَصَابِعَ ح رقم٥٥١٢.

النفس يذم، وليس كل ما يتزين به للناس يكره، وإنما ينهىٰ عن ذلك إذا كان الشرع قد نهىٰ عنه، أو علىٰ وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يجب أن يُرىٰ جميلا. وذلك حظ للنفس لا يلام فيه. ولهذا يسرح شعره، وينظر في المرآة، ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلىٰ داخل وظهارته الحسنة إلىٰ خارج. وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم... والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة، تدل كلها علىٰ النظافة وحسن الهيئة»[1].

المثال الثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو ينبه علىٰ انحراف الرافضة: «دلت الآية علىٰ أن القرآن معلوم المعنىٰ خلاف ما يقوله من يذهب إلىٰ أنه لا يعلم معناه إلا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والإمام المعصوم؛ لأنه لو كان كذلك لما تهيأ للمنافقين معرفة ذلك بالتدبر، ولما جاز أن يأمرهم الله تعالىٰ به وأن يجعل القرآن حجة في صحة نبوته، ولا أن يجعل عجزهم عن مثله حجة عليهم، كما لا يجوز أن يحتج علىٰ كفار الزنج بمثل ذلك»[2].

ومن يطالع في كتب التفسير يجد عشرات الأمثلة والنماذج لهذا.

المثال الثالث: في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠]، قال القاسمي: «دلت هذه الآية علىٰ وجوب إعداد القوة الحربية، اتقاء بأس العدوّ وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضي هذه الآية، أيام حضارة الإسلام، كان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٦- ١٩٨)، له كلام طويل اختصرناه يرجع إليه للفائدة.

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥٢).

الإسلام عزيزا، عظيما، أبي الضيم، قوي القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته علىٰ منبسط الأرض، فقبض علىٰ ناصية الإقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابا متتالية وهم سادة الأمم، وقادة مشعوب، وزمام الحول والطول وقطب روحي العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوة. وأما اليوم، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلىٰ النعيم والترف فأهملوا فرضا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض. ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدوّ بالممالك الإسلامية، ولا ترىٰ فيها معامل للأسلحة، وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترىٰ من بلاد العدوّ؟ أما آن لها أن تتنبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقي عليها تنقص العدوّ بلادها من أطرافها درسا يجب أن تتدبره، وتتلافىٰ ما فرطت به. قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضي - والعياذ بالله - علىٰ الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار. وبالله الهداية»[١].

أبرز معايير صياغة الهدايات عند العلماء:

الوضوح	الاختصار	التسلسل	الاستيعاب	المعاصرة
تجنب التداخل	تجنب التكرار	تجنب التناقض	التحفيز للعمل	ربط الهداية بالواقع

(١) محاسن التأويل (٥/ ٣١٦).

المطلب الثاني
ذكر وجه الدلالة عند العلماء

أولًا: أهمية معرفة وجه الدلالة:

استنباط الهدايات من الأدلة الشرعية يتوقف علىٰ معرفة طرق العلماء في استخراج الهدايات، وتطبيق تلك الطرق، وكل طريقة تحتاج إلىٰ معرفة بأمور كثيرة تمكن منها، والفائدة المستخرجة إذا لم تكن هنالك دلالة عليها من الآية وما يتعلق بها من قرائن لا يجوز القول بها، ولو كان المعنىٰ صحيحًا؛ لأنه يكون خطأً فِي الاستدلال، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وغير جائز أن يقال في تأويل كتاب الله بما لا دلالة عليه من بعض الوجوه التي تقوم بها الحجة»[1]؛ لأن صحة المدلول يتوقف علىٰ صحة الدلالة، وإلا كان انحرافًا عن طرق العلماء في استخراج الهداية، والانحراف في هذا الباب قد يقع من وجهين:

الوجه الأول: في الدليل والمدلول:

وذلك أن المفسر يستدل لرأيه بدليل، ويكون رأيه الذي استدل له باطلٌ فيستلزم بطلان دلالة الدليل علىٰ المستدل له.

ومثال ذلك: أن المعتزلة اعتقدوا أن الله سبحانه لا يُرىٰ في الآخرة؛ وهذا باطل، ثم استدلوا لهذا بقوله تعالىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ من قوله تعالىٰ:

(١) جامع البيان (١/ ٤٧١).

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فجعلوا ﴿لَن﴾ لتأبيد النفي، وهذا غير صحيح في هذا الموضع.

والوجه الثاني: في الاستدلال لا في المَدْلول:

فالمعنىٰ الذي يذكرونه صحيحًا؛ ولكن حَمْل الآية عليه لا يصح[1].

ومثال ذلك: ما فسر به بعضهم قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض من يتعاطىٰ غوامض المعاني: هذه الآية مثل ضربه الله للدنيا فشبهها الله بالنهر والشارب منه بالمائل إليها والمستكثر منها، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها، والمغترف بيده غرفة بالآخذ منها قدر الحاجة، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة.

قلت: ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل، والخروج عن الظاهر، لكن معناه صحيح من غير هذا»[2]، فكان الانحراف هنا ليس في المعنىٰ المذكور؛ ولكن لما كانت لا توجد عليه دلالة من الآية صار قولًا باطلًا في هذا المقام مخالفًا لظاهر القرآن.

فمراعاة أوجه الدلالة التي سلكها العلماء في استخراج الهدايات تعصم من التكلّف والزلل، فصحة القول متوقف علىٰ بيان وجه الدلالة من الدليل؛ ولكن العلماء عندما تكون الدلالة علىٰ المعنىٰ المستخرج واضحة فإنهم لا

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٢٥١).

يذكرون وجه الدلالة غالبًا عند صياغة الهداية؛ لأن ترك ذكر الواضحات من الحكمة والعقل؛ وإذا كانت غير واضحة فيتبع العلماء ذكر الهداية بذكر وجه الدلالة؛ ولذا أحببنا أن نعرِّف هنا بالدلالة، ونذكر بعض تطبيقات العلماء عليها، نسأل الله تعالىٰ العون والتوفيق.

ثانيًا: تعريف الدلالة:

الدلالة لغة:

«الدَّلالَةُ» بِفَتْحِ الدَّالِ - عَلَىٰ الأَفْصَحِ- وروي بكسر الدال، مَصْدَرُ دَلَّ يَدُلُّ دَلالَةً دِلالَةً إذا هدىٰ.

والدَّلِيلُ: المرشد، وهو ما يُستَدَلُّ به، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥]. وجمع الدليل: أدلة وأدلاء.

والاستِدلالُ: تَقرِيرُ الدَّلِيلِ لإثبات المَدْلُول. وهو طلب الدليل علىٰ الشيء من جهة غيره، وصيغة الاستفعال تدل علىٰ الطلب.

والدَّلائِلُ: جمعُ دَلِيلَةٍ أو دَلالةٍ، ويُجمَع الدَّلالَةُ علىٰ دَلالاتٍ[١].

الدلالة في الاصطلاح:

عرفها الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر»[٢]. فالعلم بالدلالة يوصل إلىٰ المدلول.

---

(١) انظر: تاج العروس (ص: ٧٠٦٧)، وتهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٤٣٧)، ولسان العرب (٤/ ٤٩٣)، والفروق اللغوية للعسكري (ص: ٤٦).

(٢) التعريفات للجرجاني رقم (٦٩٢).

وقيل: ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلىٰ العلم بالغير.

وقيل: مَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ النَّظَرِ فِيهِ إِلَىٰ مَطْلُوبٍ خَبَرِيٍّ[١].

وبعضهم يفسِّر الدلالة بأنها: «فهمُ الشيء من الشيء، أو فهم أمرٍ من أمرٍ، فَالشَّيْءُ الأَوَّلُ: هُوَ الدَّالُّ، وَالشَّيْءُ الثَّانِي: هُوَ الْمَدْلُولُ...قد يقرأ الآية عالم ولا يفهم منها شيئًا، ويقرأها عالم آخر ويستنبط منها ويستدل بها، حينئذٍ في الثاني هي دالة ولا شك، وفي الأول هي دالة كذلك ويسمىٰ دليلًا ولو لم يَفهم منها شيء»[٢].

ثالثًا: أنواع الدلالة:

الدلالة التي تحدث عنها العلماء أنواعها كثيرة؛ ولكن المهم هنا هو الدلالة المتعلقة بأدلة الوحي -الكتاب والسنة- فيمكن أن أجمالها في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الدلالة اللفظية:

هذا النوع من الدلالة يعتني به علماء أصول الفقه، وهي تؤخذ من دلالة اللفظ سواء كان اللفظ مفردًا أو مركبًا، منطوقًا أو مفهومًا.

---

(١) إرشاد الفحول إلىٰ تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني (١/ ٦٦)، ودلالة الاقتران ووجه الاحتجاج بها عند الأصوليين (ص: ١٤)، ومختصر التحرير شرح الكوكب المنير (١/ ١٢٥).

(٢) انظر: شرح المطلع علىٰ متن إيساغوجي (٤/ ٢٠)، وتعريف الدلالة في شرح تنقيح الفصول ص٢٣، التعريفات للجرجاني (ص: ١٠٩).

ودلالة المنطوق: الذي هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق، تنقسم إلىٰ ثلاثة أنواع:

الأول: دلالة المطابقة: وهي دلالة اللفظ علىٰ تمام ما وضع له كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، دل النص بمنطوقه الصريح علىٰ مشروعية البيع وتحريم الربا.

والثاني: دلالة تضمن: وهي دلالة اللفظ علىٰ جزء ما وضع له كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فتضمن الأمر بالصلاة الأمر بالركوع والسجود فإنها بعض الصلاة.

والثالث: دلالة التزام: وهي دلالة اللفظ علىٰ لازم المعنىٰ الموضوع له اللفظ ومتمماته وشروطه، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرج في اللفظ علىٰ ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدىٰ والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه. ولهذا أجمع العلماء علىٰ الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب. والطريق إلىٰ سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم

عليه، حتىٰ تصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف علىٰ الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد. فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية»(١).

مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨] فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلىٰ أهلها: استدللت بذلك علىٰ وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط فيها والتعدي عليها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك .

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك علىٰ أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالمًا بما يحكم به: فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلىٰ ذلك... وبهذا بعينه نستدل علىٰ وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك علىٰ العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا وينهَوْا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب(٢).

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص: ٢٨).

(٢) انظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص: ٢٨).

وقد قسم العلماء دلالة المنطوق إلىٰ قسمين:

المنطوق الصريح: وهو دلالة المطابقة ودلالة التضمن.

المنطوق غير الصريح: وهو دلالة الالتزام، وهي تضم ثلاثة أنواع من الدلالات، وهي: «دلالة الاقتضاء، والإيماء والإشارة». والتفريق بين الدلالات الثلاث:

أن المدلول عليه بالالتزام إما أن يكون مقصودا للمتكلم أو غير مقصود له، فإن كان مقصودا له وتوقف عليه صدق الكلام أو صحته العقلية أو الشرعية، فدلالته عليه تسمىٰ دلالة اقتضاء.

أما إن كان مقصودا له ولم يتوقف عليه صدق الكلام ولا صحته العقلية أو الشرعية، فدلالته عليه تسمىٰ دلالة إيماء أو دلالة تنبيه.

وإن لم يكن مقصودا للمتكلم فدلالته عليه تسمىٰ دلالة إشارة، وإليك بيان كل نوع:

النوع الأول: دلالة الاقتضاء: وهي دلالة الكلام علىٰ معنىٰ لا يستقيم الكلام إلا بتقديره كقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] أي فافطر فعدة من أيام أخر لان القضاء لا يلزم بمجرد المرض أو السفر بل لا بد من الفطر. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]، فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه، أي: وطء أمهاتكم ، لأن التحريم لا يضاف إلىٰ الأعيان، فوجب إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء ،فدلالة الاقتضاء يتوقف صدق الكلام أو صحته العقلية أو الشرعية علىٰ اقتضاء معنىٰ خارجي ، فهي

دلالة لفظية إلزامية، مقصودة من سوق الكلام.

والنوع الثاني: دلالة الإيماء والتنبيه: وهو أن يقترن الحكم بوصف لو لم يكن هذا الوصف تعليلا لهذا الحكم لكان ذكره حشوا في الكلام لا فائدة منه كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣] أي بمعنىٰ أنهم لبرهم سيجزون النعيم، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] يفهم منه أن السرقة علة للقطع، فهي كذلك دلالة لفظية إلزامية مقصودة من سوق الكلام.

والنوع الثالث: دلالة الإشارة: وهو أن يدل اللفظ علىٰ معنىٰ ليس مقصودا في الأصل ولكنه لازم للمعنىٰ الذي سيق الكلام من أجله كقوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٨٧] فلفظ الآية يدل علىٰ إباحة إتيان الزوجة ليلة الصيام في أي وقت من الليل حتىٰ آخر جزء منه، ويستفاد من ذلك صحة صوم من أصبح جنبا وهذا المعنىٰ غير مقصود من سياق الآية.

فدلالة المعنىٰ الذي تدل عليه دلالة الإشارة وإن كان دلالة لفظية لكن لم يسق الكلام لأجله، خلافًا لدلالة الاقتضاء والإيماء، وهي تحتاج إلىٰ نوع نظر وإمعان لتحقيق التلازم بين دلالة النص وما لازمه من الإشارة للمعنىٰ الآخر[1].

---

(١) انظر: شرح تنقيح الفصول، للقرافي (ص:٢٤)، والمستصفىٰ في علم الأصول، للغزالي (١/ ٣٠)، والإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(١/ ١٥)، والخير المأمول بتبسيط كتاب جمع المحصول (ص:٧، ٨)، وجمع المحصول لعبد الله الفوزان (ص: ٣٢).

والدلالة كما تكون من المنطوق، تكون من المفهوم الذي دل عليه اللفظ في غير محل النطق، والمفهوم ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: مفهوم موافقة: هو الذي يكون الحكم المسكوت عنه موافقا للملفوظ به، وهو نوعان:

الأول: فحوىٰ الخطاب: وهو ما كان المفهوم أولىٰ بالحكم من المنطوق، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، لأن منطوق الآية تحريم التأفف ، فيكون تحريم الشتم والضرب أولىٰ لأنهما أشد ، ويسمىٰ كذلك: بالقياس الجلي أو دلالة النص .

النوع الثاني: لحن الخطاب: وهو ما كان فيه حكم المفهوم مساويًا لحكم المنطوق، كدلالة تحريم أكل مال اليتيم علىٰ إحراقه في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠]؛ لأنه مساوٍ له في الإتلاف. وشرطه أن لا يكون المعنىٰ في المسكوت عنه أقل مناسبة للحكم من المعنىٰ المنطوق به. وتسمية هذين بمفهوم الموافقة؛ لأن المسكون عنه يوافق المنطوق به في الحكم، فإن زاد عليه يسمىٰ كما في النوع الأول» فحوىٰ الخطاب»، وإن كان مساويا له في الحكم يسمىٰ» لحن الخطاب» كما في الثاني، والدلالة فيه من قبيل التنبيه.

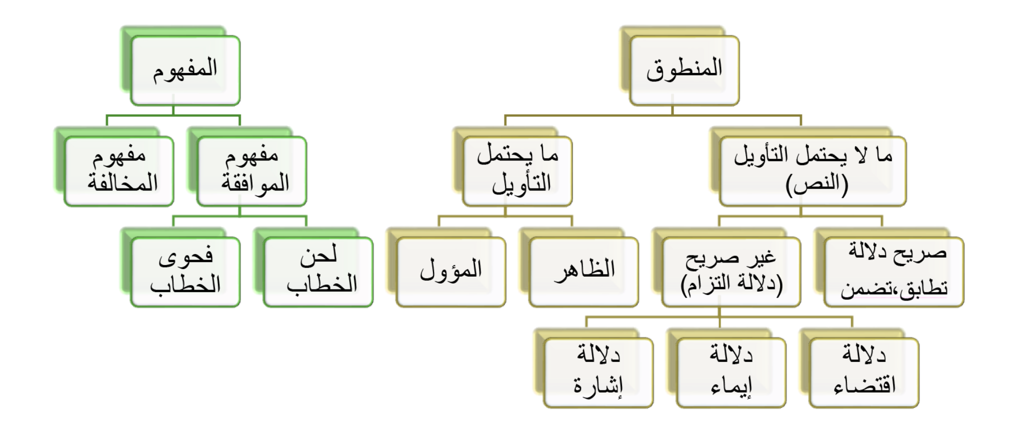
والثاني: مفهوم المخالفة: وهو الحكم الذي يكون المسكوت عنه مخالفا للمذكور في الحكم اثباتا ونفيا، فيثبت للمسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به، ويسمىٰ دليل الخطاب؛ لأن دليله من جنس الخطاب؛ أو لأن الخطاب



دال عليه بواسطة انتفاء القيد من الوصفية أو الشرطية أو غيرهما. مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلالة علىٰ أن أولياء الله يرون الله»[(١)].

والآية الواحدة قد يؤخذ منها هدايات بدلالة المنطوق والمفهوم، مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه، وتعليله بمفهومه. فدلالته بمنطوقه علىٰ قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بإيمائه وتعليله علىٰ أن هذا القرب مستحق بالإحسان، وهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه علىٰ بعده من غير المحسنين»[(٢)].

الدلالة اللفظية:



(١) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٣٦٦).

(٢) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (٣/ ٢٤٢).

النوع الثاني: الدلالة الأسلوبية:

وهذا النوع من الدلالة يعتني به علماء البلاغة، وهي تؤخذ من الأساليب البلاغية الذي ركب بها الكلام، وأنواع الأساليب التي تؤخذ منها الدلالة في القرآن كثيرة، يصعب الإحاطة بها، ولكن من أمثلها:

التوكيد أو الاستثناء، أو الاستفهام، أو السؤال، أو العموم أو الخصوص، أو الاطلاق أو التقيد، أو التكرار أو الحذف، أو التعليل، أو الاختصاص، أو الحصر، أو التنكير، أو التمثيل، أو الترغيب أو الترهيب، أو التخيير، أو الإعجاز، أو زيادة المبنىٰ، أو الالتفات، وغيرها كثيرة.

من أمثلة ذلك في الاختصاص: ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩]، قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة علىٰ فضله وتقدّمه»(١).

ومثله قول الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] «تخصيصه كتابه بالهدىٰ للمتقين دلالة علىٰ أنه ليس بهدىٰ لغيرهم»(٢).

ومثله تعالىٰ: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خص من بينها الصلاة الوسطىٰ بالمحافظة عليها دلالة علىٰ فضلها»(٣).

---

(١) الكشاف (١/ ٣٣٤).

(٢) تفسير الكتاب العزيز للواحدي (١/ ١٠).

(٣) معالم التنزيل (١/ ٢٨٧).

النوع الثالث: دلالة قرائن الوحي:

وهذا النوع من الدلالة يعتني به علماء التفسير، وهي تؤخذ من دلالة السياق، وأحوال النزول، والمناسبات، ومكتشفات العلوم، وغيرها مما سبق تفصيله.

ومما ينبغي التنبه له هو سعة علم الدلالات عند علماء التفسير، فإن علمَ الدلالاتِ عند علماءِ التفسيرِ أوسعُ بكثيرٍ مما هو عند علماءِ اللغةِ العربيةِ، الذي يدورُ في غالبِهِ حولَ الألفاظِ والتعابير والأساليب[1]، وأوسعُ مما عند علماءِ الفقهِ وأصوله؛ الذي يدورُ في غالبِهِ حولَ دلالة الألفاظ في المنطوق والمفهومِ وما يتعلقُ بهما من قواعد؛ أما علماءُ التفسير فإنهم يستخدمون تلك الدلالات اللفظية والأسلوبية، ويزيدون عليها قرائن الوحي ، كدلالة: أحوال النزول، والرسم، ومقاصد القرآن وسوره، ومستكشفات العلوم، وغيرها، وهذا يتطلب معرفتها وحسن تطبيقها، كما سنبين ذلك بإذن الله تعالىٰ.

خامسًا: أمثلة تطبيقية لذكر وجه الدلالة عند العلماء:

العلماء إذا كانت الهداية واضحة في دلالة النص غالبًا لا يذكرونها، ولكن إذا كان المعنىٰ منتزعًا بوجه خفي ينصون علىٰ وجه الدلالة، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

---

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصر (١/ ٧٦٤)، وأثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجًا (ص:٣٢).

المثال الأول:

التنصيص على الدلالة اللفظية التي بني عليها الحكم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، قال الرازي: «دلَّتِ الآيةُ على أنَّ هذا الكِتْمَان من الكَبَائر؛ لأنَّه تعالَى أَوْجبَ فيه اللَّعْن، ويدل على أن أحدا من الأنبياء لم يكتم ما حمل من الرسالة وإلا كان داخلا في الآية»[١].

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، قال ابن عادل الحنبلي: «دلَّت الآية على أنَّ الشيطان لا يأمر إلا بالقبائح؛ لأنَّ الله تعالى ذكره بكلمة «إنَّمَا» وهي للحصر»[٢].

ومن أمثلته كذلك: ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢].

قال الشربيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية على أنّ الأصل في الملابس وأنواع التجملات والمطاعم الإباحة إلا ما ورد النص بخلافه لأنّ الاستفهام في «من» للإنكار»[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٤/ ١٤٢).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (٣/ ١٥٦).

(٣) تفسير السراج المنير لمحمد الشربيني (١/ ٣٧٤).

المثال الثاني:

التنصيص علىٰ دلالة أولوية المسكوت عنه في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية علىٰ وجوب النظر والاستدلال، وعلىٰ القول بفساد التقليد؛ لأنه تعالىٰ أمر المنافقين بالاستدلال بهذا الدليل علىٰ صحة نبوته، وإذا كان لا بد في صحة نبوته من الاستدلال، فبأن يحتاج في معرفة ذات الله وصفاته إلىٰ الاستدلال كان أولىٰ»(١).

ومن أمثلته كذلك: ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩].

قال ابن القيم ناسبًا الهداية لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمهما الله -حيث بين أنه سمعها منه: «تدل الآية بإشارتها علىٰ أنه لا يمس المصحف إلا طاهر؛ لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون لكرامتها علىٰ الله فهذه الصحف أولىٰ أن لا يمسها إلا طاهر، وسمعته يقول في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة) إذا كانت الملائكة المخلوقين يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عز وجل ومحبته وحلاوة ذكره والأنس بقربه في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة»(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤١٨).

المثال الثالث:

التنصيص على دلالة اللزوم في قوله تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء:٨٤]، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية علىٰ أنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كان أشجع الخلق، وأعرفهم بكيفية القتال؛ لأنه تعالىٰ ما كان يأمره بذلك إلا وهو صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ موصوف بهذه الصفات، ولقد اقتدىٰ به أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ حيث حاول الخروج وحده إلىٰ قتال مانعي الزكاة، ومن علم أن الأمر كله بيد الله وأنه لا يحصل أمر من الأمور إلا بقضاء الله سهل ذلك عليه»(١).

المثال الرابع:

الاشارة إلىٰ دلالة المناسبة في قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، فقالوا: «دلت الآية السابقة علىٰ عناية الدين بصحة العقائد، فطالبت المؤمنين أن يقيموا عقد النكاح علىٰ أساس من الإيمان الصادق، كما تدل علىٰ الغرض الرئيسي من الزواج، وهو: إنجاب الأطفال»(٢)، وهم يقصدون بالآية السابقة: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٥٧).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٢/ ٣١٤).

ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١].

المثال الخامس:

الاستفادة من دلالة السياق، مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تدل الآية علىٰ أن القائم بالأمر بالمعروف تلي منزلته في العظم منزلة الأنبياء»[1].

وهذا موضوع طويل فيه عشرات الأمثلة والنماذج التي قد يطول ذكرها؛ لكن خلاصته أن الهداية إذا لم تكن الدلالة واضحة فمنهج العلماء الإشارة إليها حتىٰ تكون معتبرة.

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (١/ ٣٦٣).

المطلب الثالث
الاستدلال للهداية عند العلماء

أولًا: أهمية الاستدلال للهداية:

من خلال طرق العلماء نجد أن الهدايات المستنبطة تحتاج أحيانا بعد ذكر الهداية ووجه الدلالة عليها إلىٰ الاستدلال بأدلة أخرىٰ تقويها متىٰ ما رأىٰ المستخرج للهداية حاجتها لذلك، وهو من الأهمية بمكان في تقوية معاني الهدايات أو لإبطال ما يخالفها؛ وذلك لأن: «العلم إما نقل مصدق وإما استدلال محقق»[1].

والاستدلال له منهجه وضوابطه الدقيقة عند العلماء حتىٰ يكون معتبرًا، كما له طرقه المتنوعة في إيراد وترتيب الأدلة، فهذا موضوع طويل لا نريد أن نخوض فيه، وقد كتبت فيه مؤلفات كثيرة[2]؛ وإنما نريد الحديث هنا عن كيفية استدلال العلماء علىٰ الهداية المستخرجة بوجه دلالة صحيحة بأدلة أخرىٰ خارجة عنها تقويها؛ ولذا حصرنا الكلام هنا عن بيان الفرق بين الدلالة

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٣/ ٣٤٤).

(٢) من المؤلفات القيمة في هذا الباب: الرسالة العلمية الصادرة عن مركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض، والتي هي بعنوان «الاستدلال في التفسير دراسة في منهج ابن جرير الطبري في الاستدلال علىٰ المعاني في التفسير» للدكتور نايف بن سعيد الزهراني، ورسالة منهج الاستدلال علىٰ مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، للأستاذ الدكتور عثمان علي حسن، طبعة دار الرشد، الرياض.

والاستدلال، وذكر أمثلة تطبيقية عليها.

ثانيًا: الفرق بين الدلالة والاستدلال:

هنالك فروق مهمة بين الدلالة علىٰ الهداية والاستدلال لها، وإليك بيان أبرز الفروق بين الدلالة والاستدلال، وهي تتلخص في الآتي:

أولًا: الدلالة تكون بأحد طرق العلماء المعتبرة من دلالة اللفظ أو الأسلوب، أو السياق وغيرها، والاستدلال للهداية يكون بإقامة وإحضار دليل معتبر عليها من القرآن أو السنة أو الإجماع أو أقوال الصحابة والتابعين أو شواهد اللغة وغيرها.

ثانيًا: الدلالة تكون منتزعة من الآية، وما يتعلق بها من قرائن، بهدف إقامتها دليلًا علىٰ صحة المعنىٰ المستخرج، والاستدلال للهداية يكون بإقامة دليل آخر عليها لتقوية قبول المعنىٰ المستخرج.

ثالثًا: الدلالة هي غاية النظر العقلي في الدليل ونتيجته ومحل بحثه، والاستدلال هو غاية النظر في الأدلة النقلية والعقلية ونتيجته ومحل بحثه.

رابعًا: الدلالة تسبق المعنىٰ وتدل عليه، والاستدلال يتبع المعاني ليقررها.

خامسًا: الدلالة علىٰ الهداية لها ضوابطها ومراتبها الخاصة، فأقواها الدلالة اللفظية، ثم الأسلوبية كما أن الاستدلال له ضوابطه ومراتبه فأقواه ما جاء في القرآن الكريم، ثم السنة النبوية الصحيحة، ثم الاجماع، ثم القياس، والمنطوق مقدم علىٰ المفهوم، وله ضوابطه، منها: عدم جواز الاستدلال بدليل منسوخ، أو حديث ضعيف أو موضوع، أو قياس لا تنطبق فيه شروطه وغيرها.

سادسًا: الدلالة هي نوع من الدليل، والاستدلال هو لبيان المدلول، وهو نوع من الاستشهاد لإثبات المعنىٰ المدلول. قال ابن عساكر في الفرق بين الدلالة والاستدلال: «إن الدلالة ما يمكن الاستدلال به، والاستدلال فعل المستدل»(١).

ب/ أمثلة تطبيقية للعلماء على الاستدلال:

لم يتبع العلماء في الاستدلال منهجًا واحدًا، ولكن من خلال الاستقراء الناقص نجد لهم مناهج متعددة من ذلك:

أولًا: ذكر الهداية والاستدلال عليها بدليل من القرآن:

مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٤]. قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية بمفهومها علىٰ تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]»(٢).

وأحيانًا يذكرون الدليل من القرآن مع بيان السبب، مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٨]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية علىٰ أنه لا يجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة والإلحاد، وهذا

(١) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٢٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢٢١).

متأكد بعموم قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]، والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين؛ لأن ذلك هو الأمر الذي به يتقرب إلىٰ الله تعالىٰ، ويتوسل به إلىٰ طلب السعادة في الآخرة، وإذا كان كذلك كانت العداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع العداوة، وإذا كان كذلك امتنع طلب المحبة والولاية في الموضع الذي يكون أعظم موجبات العداوة حاصلا فيه؛ والله أعلم»[١].

ثانيًا: ذكر الهداية والاستدلال عليها من السنة:

مثال ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«دلت الآية علىٰ جواز المسألة بالله تعالىٰ.روىٰ مجاهد عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من سألكم بالله فأعطوه)[٢]»[٣].

وقد يستدلون بالحديث مع ما فيه من ضعف كما جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]. قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ فَضِيلَةِ الِاسْتِغْفَارِ وَبَرَكَتِهِ بِإِثْبَاتٍ؛ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَمِنُوا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَذَّبَ

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط والكبير برقم ١٢٤٦٥، والبيهقي في شعب الإيمان ح رقم ٣٥٣٨، والحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ح رقم ١٥٠٢، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، وقال الألباني في صحيح وضعيف الجامع للشيخ الألباني (٢/ ٣٤) صحيح برقم ٦٠٢١.

(٣) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٨١).

اللهُ بِهِ الْأُمَمَ لِأَنَّهُمُ اسْتَغْفَرُوا مِنَ الشِّرْكِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْإِسْلَامَ. رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي، وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهِمُ الِاسْتِغْفَارَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١)] [(٢)].

وأحيانًا قد يشار للحديث دون ذكره كما ذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٩]. قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «دلَّت الآية بتنبيهها علىٰ أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خبر بمعنىٰ النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر»[(٣)].

ثالثًا: ذكر الهداية، والتدليل عليها بدليل من القرآن والسنة:

مثال ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، قال العلماء: ((دلت الآية علىٰ أن الأُمة: يجب عليها أن تخصص طائفة منها: تقوم بالدعوة إلىٰ الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]. وهذا لا يعفي

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ح رقم ٣٠٨٢، وقال: هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع للشيخ الألباني برقم ١٣٤١.

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٦).

سائر أفراد الأُمة من القيام بهذا الواجب: كل بحسب طاقته. ويؤَيد هذا؛ ما رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: (من رأىٰ منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان) وفي رواية أُخرىٰ لمسلم (وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خردل)[1])[2].

رابعًا: ذكر الهداية والاستدلال عليها بعدد من الأدلة:

الدليل الواحد قد يكون كافيًا في تأكيد الهداية وتحقيق المقصود؛ ولكن العلماء أحيانًا يكثرون من ذكر الأدلة لأهمية مضمون الهداية التي يتحدثون أو وجود من يقول بخلافها، مثال ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قال القاسمي رَحِمَهُٱللَّهُ: «دلت الآية علىٰ أن طلب رؤيته تعالىٰ في الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ سؤال الرؤية إلا استعظمه. وذلك في آيات. منها هذه. ومنها قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ [النساء: ١٥٣]، ومنها قوله تعالىٰ: و ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١]،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٦).

(٢) التفسير الوسيط (٢/ ٦٣١).

فدلت هذه التهويلات الفظيعة الواردة لطالبيها في الدنيا علىٰ امتناعها فيها»[1].

وقد يكون باستقراء الأدلة الأخرىٰ دون ذكرها كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]. قال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت الآية علىٰ وجوب جهاد المنافقين وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر، وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار إنما يكون بالسيف، ومع المنافقين بإظهار الحجة عليهم تارة، وبترك الرفق بهم تارة، وبالانتهار تارة»[2].

والاستدلال كما يكون لتقوية الهداية المذكورة يكون لإبطال القول المخالف للهداية المقررة، وهذا له أمثلة كثيرة من ذلك ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٣]. قال العلماء: «قد دلت الآية: علىٰ أن الحرمة بالرضاعة، لا تثبت إلا بالإرضاع أثناءَ الحولين، فتجعل للرضيع فيهما حرمة النسب، وهذا هو الصحيح. ومن العلماءِ من أثبت الحرمة بالرضاع بعد الحولين إلىٰ شهر، وقيل: إلىٰ شهرين. وقيل: إلىٰ ثلاثة. وقيل: إلىٰ ستة أشهر. وكل ذلك ضعيف لمخالفته نص الآية، ولحديث مالك في الموطأ: «لا رضاع إلا ما كان في الحولين»[3].

فالاستدلال علىٰ الهداية عند العلماء موضوع طويل يحتاج أن يفرد بالدراسة حتىٰ يتم تأصيله بصورة علمية متكاملة.

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٣٠٨).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ٣٨٤).

(٣) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (١/ ٣٩٢).

الخاتمة

بعد هذه الدراسة البحثية العميقة تأصيلًا وتطبيقًا حول بيان طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها نصل بدراستنا هذه - بفضل الله ومنه وكرمه إلىٰ خاتمتها التي نسأل الله تعالىٰ حُسنها، وأن تكون مسكًا في خلاصتها ونتائجها التي حققتها وهي كثيرة، يتلخص أبرزها في النقاط الآتية:

أولًا: اهتم القرآن الكريم كثيرًا بموضوع الهدىٰ والهداية، وجعله العاصم من الضلال والسبيل الموصل للسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، ومن هنا زاد اهتمام العلماء بموضوعها، وكثر حديث عنها.

ثانيًا: الهدايات القرآنية من حيث موضوعها، فهي» الدلالةِ المبينة لإرشاداتِ القرآن الكريم التي توصلُ لكلِّ خيرٍ وتمنعُ من كلِّ شر». ومن حيث صناعتها فهي: «منهجٌ علمي لاستخراجِ الإرشاداتِ القرآنيةِ الظاهرةِ والخفيةِ التي توصلُ لكلِّ خيرٍ وتمنعُ من كلِّ شر»، وهي تنقسم إلىٰ قسمين هداية جزئية، وهداية كلية، وكل له تعريفه وما يميزه عن غيره من المصطلحات المقاربة.

ثالثًا: الباحث في مجال الهدايات القرآنية يحتاج إلىٰ إعداد روحي لتلقي أنوار الوحي، ويطهر به قلبه من علله وأمراضه ويعظم به ربه وكلامه حتىٰ ينتفع به، وإعداد فكري يخلصه من كل معطلات ومشوهات الفكر.

رابعًا: لينتفع العبد بالقرآن ينبغي له التخلص من تبعيات الآباء والسادة

والكبراء، ويأتي إليه بقلب وعقل سليم، ونفس مستسلمة لهداه من غير هوىٰ.

خامسًا: هنالك حجب مانعة من الوصول لهدايات القرآن الكريم، وهي كثيرة من أبرزها: الانشغال بالحروف عن المعاني، والاكتفاء بالظاهر من هداياته، والانشغال بالوسائل عن المقاصد، والاكتفاء برأي شيخ أو مذهب، والظن أن الهداية لابد فيها من سلف، وقصر الهداية في أبواب محددة، وغيرها.

سادسًا: معرفة طرق العلماء في استخراج الهدايات له فوائد كثيرة من ذلك فهو: العصمة من الضلال عن سواء السبيل، وبناء القدرات العلمية وتكوين الملكة العملية، واكتساب الرؤىٰ المتنوعة والاتجاهات المتعددة لمتدبر القرآن.

سابعًا: الطرق التي سلكها العلماء في استخراج الهدايات جاءت في سبع عشرة طريقة، تشكلت في خمس دوائر جاءت علىٰ النحو الآتي:

الأولىٰ: المفردة: (دلالات اللفظ، اختلاف القراءات، رسم المصحف للمفردة).

الثانية: الجملة: (تنوع الأساليب، السياق، المناسبات، وورود أسماء الله الحسنىٰ، وأوجه الإعراب المحتملة).

الثالثة: مجموع أدلة الوحي، وآثار الصحابة والتابعين.

الرابعة: القرائن (أحوال النزول، وقراءة النبي ﷺ للآيات والسور، ومكتشفاتِ العلوم التطبيقية، الواقع).

الخامسة: مقاصد السور وأصول الشريعة وحكم التشريع وأسراره.

ثامنًا: طرق العلماء في استخراج الهدايات من حيث التوظيف؛ تنقسم إلىٰ قسمين: القسم الأول: طرق توظف بصورة دائمة، وهي: «الألفاظ، والأساليب، والسياق، وأحوال النزول، ومقاصد القرآن، وأصول الشريعة، وآثار السلف، ومتطلبات الواقع»، وهنالك طرق توظف عند الحاجة إليها، وهي «القراءات، والرسم، والمناسبات، وتوارد أسماء الله الحسنىٰ، وأوجه الإعراب المحتملة، ومجموع أدلة الوحي، وقراءة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومكتشفات العلوم، وحكم التشريع».

تاسعًا: الهدايات الكلية لا تقل أهمية عن الهدايات الجزئية، وهي أنواع متعددة، وللعلماء طرق محددة في استخراجها، جاء تفصيلها في هذه الدراسة.

عاشرًا: الطريقة المثلىٰ في صياغة الهدايات: الوضوح، والاختصار، والتسلسل، والاستيعاب، والمعاصرة، وعدم التكرار، وتجنب التداخل، وتجنب التناقض، والتحفيز للعمل، وربط الهداية بالواقع.

الحادي عشر: الهداية حتىٰ تكون معتبرة لابد من ذكر وجه الدلالة عليها، خاصة إذا استخرجت من وجه خفي، ومما يقويها الاستدلال عليها بأدلة خارجية.

تم بحمد الله



فهرس المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. ابن جني النحوي، د. فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار النذير، ط١/ ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، وأصل هذا الكتاب رسالة ماجستير.

٣. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، ط١/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ت: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

٤. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضىٰ مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٥. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ويسمىٰ (منتهىٰ الأماني والمسرات في علوم القراءات)، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، ط١/ ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٦. الإتقان في علوم القرآن. السيوطي، عبد الرَّحمن بن الكمال أبو بكر، طبعة: المكتبة العصريّة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ت: محمَّد أبو الفضل إبراهيم. بيروت.

٧. أثر تعدد الآراء النحوية في تفسير الآيات القرآنية، الدكتور سامي عوض ياسر محمّد مطره جي، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٢٩) العدد (١) ٢٠٠٧م.

٨. اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٩. الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي الناشر، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان، ت: المحقق: عبد الرزاق عفيفي

١٠. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

١١. إرشاد الفحول إلىٰ تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق، ط١/ ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ت: الشيخ أحمد عزو عناية.

١٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. الشنقيطي، محمَّد الأمين بن محمَّد المختار. طبعة: دار عالم الفوائد، مكّة المكرّمة، ط١/ ١٤٢٦هـ.

١٣. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفىٰ صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨/ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥ م.

١٤. إعراب القرآن للنحاس، أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس، طبعة: عالم الكتب، بيروت، ط٣/ ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م. ت: زهير غازي

زاهد. بيروت: عالم الكتب.

١٥. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ط١/ ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ت: محمد عبد السلام إبراهيم.

١٦. الأعلام. الزّركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، ط: دار العلم للملايين، بيروت، ط٦/ ٢٠٠٥ م.

١٧. الإكليل في استنباط التنزيل، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ت: سيف الدين عبد القادر الكاتب.

١٨. الأمثال في القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: مكتبة الصحابة، طنطا، ط١/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ت: إبراهيم بن محمد.

١٩. إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، الناشر: المكتبة العلمية- لاهور، مكان النشر: باكستان، ت: إبراهيم عطوه عوض.

٢٠. أنوار التّنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي، عبد اللّه بن عمر، طبعة: دار إحياء التراث العربيّ، بيروت/ ط١/ [بدون].

٢١. الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزَّجَّاجي، الناشر: دار النفائس، بيروت، ط٥/ ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م، ت: الدكتور مازن المبارك.

٢٢. بحر العلوم. السمرقندي، نصر بن محمد، الناشر: دار الفكر، بيروت، ت: د. محمود مطرجي.

٢٣. البحر المحيط في التفسير. أبو حيّان، محمَّد بن يوسف، طبعة: دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١/ ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م، ت: عبد الرزّاق المهدي.

٢٤. بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية، طبعة مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، مكة المكرمة، ط١/ ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ت: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد.

٢٥. البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٢٦. تأويلات أهل السنة. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م، ت: د. مجدي باسلوم.

٢٧. التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف الدين النووي، الناشر: الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط١/ ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٢٨. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، الناشر: إحياء الكتب العربية، ت: علي محمد البجاوىٰ.

٢٩. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن،عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري، ت: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

٣٠. التَّحرير والتّنوير. ابن عاشور، محمَّد الطّاهر، طبعة: دار سحنون للنّشر والتّوزيع، تونس، [التّاريخ: بدون].

٣١. تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، سلسلة مكتبة تدبر(٥).

٣٢. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لبدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني، مكتبة مشكاة الإسلامية.

٣٣. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/ ١٤٠٥هـ، ت: إبراهيم الأبياري.

٣٤. تفسير ابن باديس «في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير»، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروتط١/ ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

٣٥. تفسير أسماء الله الحسنىٰ، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، ت: أحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار الثقافة العربية- دمشق.

٣٦. تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانىٰ ، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣٧. تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، دار النشر / دار الكتب العلمية بيروت.

٣٨. تفسير الشعراوي- الخواطر: لمحمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع

أخبار اليوم، القاهرة، ط: بدون، عام١٩٩٧م.

٣٩. تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

٤٠. تفسير القرآن العظيم. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الرياض، ط٢/ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م، ت: سامي السّلامة.

٤١. تفسير القرآن، ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد، طبعة: دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط١/ ١٤٢٣هـ.

٤٢. تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، منصور بن محمد، طبعة: دار الوطن، الرياض، ط١/١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم. الرياض.

٤٣. تفسير النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان.، الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢٦ه، ت: الشيخ زكريا عميرات.

٤٤. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط٢/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م.

٤٥. التفسير الوسيط، علي بن أحمد الواحدي، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ- ١٩٩٤ م، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس.

٤٦. تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١/ سنة ١٤١٩هـ.

٤٧. تفسير عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ بدون.

٤٨. تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ)، ت: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط١/ ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٤٩. التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.

٥٠. تفسير وهدايات سورة الفاتحة، أ.د.طه عابدين طه، طبعة: المتنبي، الدمام، ط١/ ١٤٣٥هـ.

٥١. التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البسيلي، الناشر: كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - المملكة العربية السعودية.

٥٢. تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط١/ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ت: د. السيد الجميلي.

٥٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م،

ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

٥٤. التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط١/ ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٥٥. التيسير في القراءات السبع، للإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤ه/ ١٩٨٤م.

٥٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمَّد بن جرير الطّبري، طبعة: دار عالم الكتب، الرِّياض، ط١/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م، ت: عبد اللّه بن عبد المحسن التركي.

٥٧. الجامع الصحيح، مسلم بن الحجّاج القشيري، طبعة: دار المودّة، المنصورة، ط١/ ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م.

٥٨. الجامع المسند الصّحيح المختصر من أمور رسولِ اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيّامه (صحيح البخاريّ). البخاريّ، محمَّد بن إسماعيل. الطّبعة الثّانية. اعتنىٰ به: محمَّد زهير بن ناصر البدر، طبعة: دار المنهاج، جدّة وبيروت: دار طوق النّجاة، ط١/ ١٤٢٩هـ.

٥٩. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّنه من السنّة وآي الفرقان، محمَّد بن أحمد القرطبي، طبعة: مؤسّسة الرِّسالة، بيروت، ط١/ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ م، ت: عبد اللّه بن عبد المحسن التركي.

٦٠. جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار العروبة، الكويت، ط٢/ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ت: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط.

٦١. الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم، لبيب سعيد، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت.

٦٢. حاشية العطار علىٰ شرح الجلال المحلي علىٰ جمع الجوامع، حسن بن محمد بن محمود العطار الشافعي ،

٦٣. حاشية العلامة البناني علىٰ شرح المحلي علىٰ متن جمع الجوامع، للعلامة البناني، الناشر: دار لفكر للنشر والتوزيع، بيروت، طبعة ١٤٢٧هـ.

٦٤. حجة القراءات، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة، ت: سعيد الأفغاني، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت

٦٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٦٦. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جِنّي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٢/ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م، ت: عبد الحميد هنداوي.

٦٧. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، ت: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

٦٨. درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الناشر: دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١م، ت: محمد رشاد سالم.

٦٩. دراسات في أساليب القرآن الكريم، مُحَمَّد عبد الخالق عظيمة، ط: دار

الحديث، القاهرة.

٧٠. درة التنزيل وغرة التأويل، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفىٰ آيدين، الناشر: جامعة أم القرىٰ، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصىٰ بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط١/ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٧١. دلالة الاقتران ووجه الاحتجاج بها عند الأصوليين، أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي، الناشر: دار النشر والتوزيع الإسلامية، ط١/ ١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م.

٧٢. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني أبو بكر البيهقي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٥هـ.

٧٣. رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، غانم قدوري الحمد، من منشورات الجمهورية العراقية: اللجنة الوطنية لإحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري تم نشره عام: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٧٤. رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، شعبان محمد إسماعيل، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة: الثانية.

٧٥. رسم المصحف ونقطه، لعبد الحي حسين الفرماوي، طبعة: المكتبة المكية، مكة، ط١، ١٤٠٤هـ

٧٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، محمود الألوسي، طبعة: دار الفكر، بيروت، تاريخ الطَّبعة: [بدون]. ت: محمَّد حسين

العرب.

٧٧. الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وعليه حواشٍ لجماعةٍ من العلماء منهم الأمير الصّنعاني)، لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضىٰ بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفىٰ: ٨٤٠هـ)، تقديم: فضيلة الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، اعتنىٰ به: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٧٨. زاد المسير في علم التّفسير، عبد الرَّحمن بن عليّ بن الجوزي، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤/ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٧٩. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣/ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٨٠. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفىٰ بن أحمد المعروف بأبي زهرة، الناشر: دار الفكر العربي، بيروت، بدون سنة نشر.

٨١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، (لمكتبة المعارف).

٨٢. سنن أبي داود. أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، طبعة: المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ نشر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٨٣. سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح، أبىٰ عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سورة الترمذي، طبعة: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ت: عبد الوهاب عبد اللطيف.

٨٤. سنن النسائي الكبرىٰ، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١/ ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ت: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.

٨٥. الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفىٰ بن عبد اللطيف المنياوي، الناشر: المكتبة الشاملة، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م.

٨٦. شرح الكوكب المنير، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي، الناشر: مكتبة العبيكان، ط٢/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م، ت: محمد الزحيلي ونزيه حماد.

٨٧. شرح المطلع علىٰ متن إيساغوجي المؤلف: أبو عبد الله، أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشيخ الحازمي http: //alhazme.net

٨٨. شرح تنقيح الفصول، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط١/ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، ت: طه عبد الرؤوف سعد.

٨٩. شرح مختصر المنتهىٰ الأصولي للإمام أبي عمرو عثمان ابن الحاجب المالكي، وعلىٰ المختصر والشرح/ حاشية سعد الدين التفتازاني، وحاشية السيد الشريف الجرجاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ط١/ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م، ت: محمد حسن محمد حسن إسماعيل.

٩٠. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ت: شعيب الأرنؤوط.

٩١. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي.

٩٢. صحيح وضعيف سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ط١/ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩٣. الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، ط٣/ ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ت: د. علي بن محمد الدخيل الله، ط٢/ ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٩٤. عظماء أسلموا، للدكتور لراغب السرجاني ، طبعة : دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة.

٩٥. علم الدلالة د. أحمد مختار عمر، الناشر: عالم الكتب-مصر، ط٧/ ٢٠٠٩م.

٩٦. علم مقاصد السور د. محمد عبد الله عبد الرحمن الربيعة، ط١/ ١٤٣٢هـ.

٩٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٩٨. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن

بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدًا - بَيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري.

٩٩. فتح القدير الجامع بين فنيّ الرِّواية والدّراية من علم التَّفسير، محمَّد بن عليّ الشّوكاني، طبعة: دار النّدوة العالميّة للنّشر والتَّوزيع، الرياض/ ط٣/ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م، ت: عبد الرَّحمن عميرة، الرِّياض.

١٠٠. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي علىٰ الكشاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي ت: إياد محمد الغوج، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣.

١٠١. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيىٰ بن مهران العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٠٢. الفروق، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٠٣. الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٠٤. القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجا، الدكتور عبد الرازق بن حمودة القادوسي، الناشر: رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور رجب عبد الجواد إبراهيم- قسم اللغة العربية - كلية

الآداب – جامعة حلوان، سنة النشر: ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٠٥. قضايا مطروحة للمناقشة في النّحو واللّغة والنّقد، د. سعيد جاسم الزّبيديّ، الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن عمان، تاريخ النشر ١٩٩٨م.

١٠٦. القواعد الحسان لتفسير القرآن. آل سعدي، عبد الرحمن بن ناصر، طبعة: مكتبة الرشد، الرياض، ط١/ ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٠٧. الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الزَّمخشريّ. محمود بن عمر، طبعة: دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط١/ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ م، ت: أبي عبد اللّه الدّاني بن منير آل زهوي.

١٠٨. الكشف والبيان (تفسير الثَّعلبيّ)، أحمد بن محمَّد الثَّعلبيّ، طبعة: دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢ م، ت: أبي محمَّد بن عاشور. بيروت.

١٠٩. لباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد بن إبراهيم الخازن، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ، تصحيح: محمد علي شاهين. بيروت: ١٤١٥هـ.

١١٠. اللّباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد اللّه بن الحسين العُكبري، طبعة: دار الفكر، دمشق، ط١/ ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥ م، ت: غازي طليمات.

١١١. لسان العرب، محمَّد بن مكرم بن منظور، طبعة: دار إحياء التراث العربيّ، ومؤسّسة التَّاريخ العربيّ، بيروت، ط٢/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧

م، اعتنىٰ بتصحيحها: أمين محمَّد عبد الوهاب، ومحمّد الصَّادق العبيدي.

١١٢. مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفىٰ مسلم، الناشر: دار القلم، ط٤/ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١١٣. المجتبىٰ من مشكل إعراب القرآن، أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، سنة النشر: ١٤٢٦هـ.

١١٤. مجلة البحوث والدراسات القرآنية، بجمع الملك فهد لطباعة المصحف، العدد الثاني، ١٤٢٧هـ.

١١٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، سنة النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ت: حسام الدين القدسي.

١١٦. مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، طبعة: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ت: زهير عبد المحسن سلطان.

١١٧. مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة. جمع وترتيب: عبد الرَّحمن بن محمَّد بن قاسم، وابنه محمَّد. الطَّبعة: [بدون]. [النَّاشر: بدون].

١١٨. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، الناشر: دار الكتب العلميه، بيروت، ط١/ ١٤١٨هـ، ت: محمد باسل عيون السود.

١١٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف، أبو محمد عبد الحق

بن غالب بن عطية الأندلسي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، ط١/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد.

١٢٠. المحكم في نقط المصاحف، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني ت: د. عزة حسن، الناشر: دار الفكر، دمشق، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

١٢١. المختصر في التفسير القرآن الكريم، جماعة من علماء التفسير، ط٥/ ١٤٤٠هـ، طبعة: دار المختصر للنشر والتوزيع.

١٢٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣/ ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي.

١٢٣. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢/ ١٣٩٣ - ١٩٧٣م، ت: محمد حامد الفقي.

١٢٤. المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، ت: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.

١٢٥. المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الناشر: مكتبه السنة - القاهرة، ط٢/ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م.

١٢٦. المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الناشر: مكتبه السنة - القاهرة، ط٢/ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م.

١٢٧. المستدرك على الصحيحين. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، طبعة: دار المعرفة، بيروت، [التاريخ: بدون].

١٢٨. المستصفىٰ في علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشر : مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ت : محمد بن سليمان الأشقر.

١٢٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م.

١٣٠. مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السِّوَرِ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ط١/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧ م.

١٣١. المُصَنَّف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، الناشر: دار القبلة، ت: محمد عوامة.

١٣٢. مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية للعلامة أحمد بن الصديق الغماري، طبعة: مكتبة القاهرة.

١٣٣. معالم التّنزيل، محمَّد الحسين بن مسعود البغوي، طبعة: دار طيبة للنّشر والتَّوزيع، الرِّياض، ط٤/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م، ت: محمَّد عبد اللّه النّمر، وعثمان جمعة ضميريّة، وسليمان مسلم الحرش.

١٣٤. معاني القرآن وإعرابه. الزجّاج، إبراهيم السَّرِي، طبعة: عالم الكتب، بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨ م، ت: عبد الجليل شلبي.

١٣٥. معاني القرآن. النحاس، أحمد بن محمد، مركز إحياء التراث بجامعة

أم القرىٰ، بمكة، ط٢/ ١٤٢٨هـ، ت: محمد علي الصابوني.

١٣٦. معترك الأقران في إعجاز القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوط، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.

١٣٧. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢/ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م، ت: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

١٣٨. معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، ط١/ ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م.

١٣٩. مفاتيح الغيب، محمَّد بن عمر الرّازيّ، طبعة: دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٤/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م.

١٤٠. مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

١٤١. مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانىٰ، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١/ ١٤١٢هـ، ت: صفوان عدنان الداودي.

١٤٢. المفسِّر شروطه، آدابه، مصادره دراسة تأصيلية، للشيخ أحمد قشيري سهيل، الناشر: دار الرشد الرياض، طبعة ١٤٢٩هـ.

١٤٣. المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد،

الزمخشري جار الله، الناشر: مكتبة الهلال، بيروت، ط١/ ١٩٩٣م، ت: د. علي بو ملحم.

١٤٤. مقاييس اللّغة. أحمد بن فارس بن زكريّا، طبعة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢/ ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ت: عبد السّلام هارون.

١٤٥. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين، ت: عبد الله محمد الدرويش، الناشر: دار يعرب، سنة النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٤٦. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٧. من هدايات سورة الفاتحة، د. عبد الرزاق البدر، طبعة علىٰ نفقة بعض المحسنين.

١٤٨. المناسبات بين الآيات والسور فوائدها.. وأنواعها.. وموقف العلماء منها، د.سامي عطا حسن، جامعة آل البيت.

١٤٩. مناهج الأصوليين في طرق دلالات الألفاظ علىٰ الأحكام، خليفة بابكر الحسن، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.

١٥٠. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، الناشر: مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.

١٥١. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت،

ط٢/ ١٣٩٢هـ.

١٥٢. منهج الفرقان في علوم القرآن للشيخ محمد علي سلامة، الناشر: نهضة مصر، ط٢/ ٢٠٠٤م.

١٥٣. المنهج القرآني الفاصل بين أصول الحق وأصول الباطل، للشيخ طه حامد الدليمي، بدون.

١٥٤. الموافقات، لإبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الناشر: دار ابن عفان، ط١/ ١٤١٧ه/ ١٩٩٧م، ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

١٥٥. الموسوعة القرآنية، لإبراهيم الإبياري، الناشر: مؤسسة سجل العرب، ط١/ ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

١٥٦. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة: طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، اعتنىٰ به: أحمد مصطفىٰ فضيلة.

١٥٧. نحو وعي لغوي، د. مازن المبارك، طبعة الرسالة بيروت، طبعة: ١٩٧٩م.

١٥٨. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف ، ت: علي محمد الضباع الناشر : المطبعة التجارية الكبرىٰ [تصوير دار الكتاب العلمية].

١٥٩. نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، إبراهيم بن عمر البقاعي، طبعة: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢/ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢ م.

١٦٠. النّكت والعيون (تفسير الماورديّ)، عليّ بن محمَّد الماورديّ، طبعة:

دار الكتب العلميّة، بيروت، [التّاريخ: بدون]، ت: السيّد بن عبد المقصود.

١٦١. الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، أ.د طه عابدين طه وآخرون، الناشر: دار المتنبي، الدمام ١٤٣٨هـ.

١٦٢. الهداية إلىٰ بلوغ النهاية. القيسي، مكي بن أبي طالب. الطبعة: الأولىٰ. المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة. الشارقة: جامعة الشارقة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٦٣. الواضح في علوم القرآن، مصطفىٰ ديب البغا، محي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية - دمشق، ط٢/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٦٤. الوافي في هدايات كلام الله الكافي تفسير وهدايات جزء عم، للأستاذ الدكتور طه عابدين طه، الناشر: مكتبة المتنبي، الدمام، السعودية، ط١/ ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.

١٦٥. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. الواحدي، عليّ بن أحمد، طبعة: الدّار الشّاميّة، بيروت، ط١/ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ت: صفوان عدنان داوودي.



فهرس الموضوعات